

تأليف الأستاذ الدكتور

عبد الحميد السيد محمد عبد الحميد

الناشر

المكتبة الأزهرية للتراث
٩ درب الاتراك خلف الجامع الأزهر الشريف
ت: ٥١٢٠٨٤٧

الجزيرة
للنشر والتوزيع

النكاح في الجاهلية والإسلام

تأليف الأستاذ الدكتور
عبد الحميد السيد محمد عبد الحميد

الناشر

المكتبة الأزهرية للتراث
٩ درب الأتراك خلف الجامع الأزهر الشريف
ت : ٥١٢٠٨٤٧

الجزيرة
للنشر والتوزيع

اسم الكتاب : النكاح في الجاهلية والاسلام

المؤلف : د / عبدالحميد السيد عبدالحميد

موضوع الكتاب : الزواج في الشريعة الاسلامية

رقم الايداع : ٧٩٠٢

التاريخ : ٢٠٠٧/٤/٤

عدد الصفحات : ٢٨٢

تدمك : ٨ ١٤٦ ٣١٥ ٩٧٧

الناشـر : الازهـــرية للتـراث

الجزيرة للنشر والتوزيع

العنـوان : ٩ درب الاتراك خلف الجامع الازهر الشريف

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدِّمة :

الحمدُ للهِ رب العالمين : حمداً يُوَافى نعمَه ، ويَسْتَمطرُ فَضْلَه ، وَفَيْضَه ، وفريده ، والصلاة ، والسلام على سيدنا ، ومولانا رسول الله ، الذى بلَّغ الرسالة ، وأَدَّى الأمانة ، ونصح الأمة ، وعلى آله ، وأصحابه ، ومن اهتدى بهديه إلى يوم الدين .

وبعد

فإن الله (عز وجل) خلقنا من ذَكَرٍ ، وأُنْثَى ، وبثَّ منهما رجالاً كثيراً ، ونِسَاءً ، وجعل الأنثى من ضِلَع من أَضْلاع الذكر ؛ لتكون منه ، وليكون بها آنس ، ولتتم الألفة ، وتزول النُّفْرةَ ، كما جعل بعضنَا من بعض : فالرجل : أَبٌ ، وجدْ ، وأخ . . . ، والمرأة أُمٌّ الرجل ، وجدته ، وابنته ، وأخته . . .

وهذا الخلق المحكم ، صنعةُ الحكيم ، وقدرته ، وذلك : ليسود التوادُّ بين الخلق ، ويعمّ الإخاء ، وتنتشر المحبة ، وتقوى المعُرَى ، وتتوثّق الصلات . فكلنا لآدم ، وآدم من تراب . . . لا فضل لعربىّ على عَجَمىّ إلا بالتَّقْوَى، . . .

فإذا تفرق البشر فى الضَّرْب فى الأرض ، وتباعدت الشَّقَّة بينهم ردَّتهم أحْلامُهم المفكّرة إلى الأصل الواحد ، والوشيجة الموثَّقة ، واستظلوا تحت شجرةَ الأُخوة – فى الدَّم – الوارفة الظلال ، الشهيّة الجَنَى ، الدانية القُطوُف فيحنُّ الدانى إلى القاصِى ، ويعطف الْقَاصِى على الدانى ،

وتُتَبادَلُ المنافع ، وتطِيبُ الحياة ، وترفرف رايات الأمن ، والأمان ، والسلام على ربوع الدنيا . . .

والعقل البشرىّ يدرك – فى أول الأمر – رابطة الدم ، ولُحْمَة القرابة فى الأصل ، فإذا عرض له نسْيَان – لطبعه الذى فُطِر عليه ، وجبلّته، التى خُلِق عليها ، ذكَّره ربُّه بهذه الرابطة ، وجمع البشر جمعًا آخر **على أب ثانٍ** ، هو : سيدنا نوح (عليه الصلاة والسلام) : فآدم أبو البشر الأول، ونوح أبو البشر الثانى ؛ لأنه تعالى جعل ذُريته هم الباقين ، بعد هلاك الكافرين بالطوفان ، فاجتمعت البشرية جمعًا آخر على أب ثان فالبشر بعد ذلك : لِسَام ، وحامٍ ، ويافث ، وهم أبناء نوح (عليه الصلاة ، والسلام) وإذا تفرق الأبناء ، والأحفاد فى أرض الله تعالى الواسعة ، وارتقت عقولهم ، شيئًا ، فشيئًا جاء جمع من نوعٍ آخر ، فى رحمة السماء بالأرض ، وفى وحى الله تعالى على الأرض ، وجاء جمعٌ من لون أَرْقَى فى خليل الله إبراهيم (عليه الصلاة والسلام) وهو أبو الأنبياء ، الذين جَمَعُوا البشر تحت مظلّة الإيمان بربّ الأرض ، والسماء ، وجمعوهم على كلمة سَوَاء ، وذكروهم بأصل الخلقة ، وعبودية المعبُود .

وإن جميع الرسالات السابقة قد ربَّت العقُول ، ومهَّدت للرسالة الخاتمة ، وللرسول الخاتم : سيّدنا محمد (عليه الصلاة والسلام) . . .

وكانت هذه الرسالة الخاتمة جمعًا للبشرية ، أرْقَى : فمن حيث الأعْرَاق قد اجتمع لجده الذبيح : إسماعيل العظيم : الدَّم السَّامىّ ، من ناحية إبيه العظيم ، والدّم الحامىّ من ناحية أمه الأميرة : هَاجَر ، وقد ارتبط إسماعيل بالمصاهرة ، والمعاشرة مع العرب القحطانيين : أبناء يعرب بن قَحْطَان . . . . : عرب اليمن . . .

كل ذلك : تقدير العزيز العليم ، ولتأليف القلوب ، وجمعها على الرسول الخاتم ، لمن يتمسك بأهداب قرابة الدَّم ، ولُحمْة النسب ؛ وليرقى عقله لإدراك الرابطة الأسمى .

أما الشيء الأعظم ، والأرقى ، والأكمل فهو جَمْع للبشرية جَمَّعاء – وقد تربت عقوبلهم ، بوحى الله تعالى على ألسنة الرسل ، بالأسوة الطيبة منهم ، وبالقدوة الصالحة من جميع الأنبياء ... **كل ذلك** : قد جمع البشر على ربٍّ واحد ، وقبلة واحدة ، وقرآن محكم ، وسنة مطهرة ، وهدف متَّحد : العمل للدنيا ، لنيل ما أودعه ربنا لنا من خيرات فى أرضه، والعمل للآخرة للفوز بجنات النعيم ....

الرسول العظيم ربىِّ الإنسان الفاضلَ فى عقيدته ، وفى سلوكه ، وفى عمله ، وفى اتجاهاته ، ووضح له طرائق الخير ، ومسالك الغَىّ ، لينفر منها ، كما بيّن العَلاَقَات الاجتماعية من أبوِّة ، وأُخُوة ، وأمُومة ، وأولى أرحام ، ومن جيران ، ومعاهدين ... ؛ ليعيش البشر ملائكة يمشُون على الأرض ، كما كوَّن المجتمع الأمثل ، مجتمع المدينة ؛ ليكون مجتمع المثالية، والنموذج الأمثل للمجتمعات إلى يوم القيامة ...

فما من خير إلا دلنَّا عليه بالقول ، والعمل ، والقدوة ، وما من شر إلا نَفَّرنا منه ، **وباعد ما بيننا** ، **وبينه** ... ومنحت الفرصة لمن شاء أن يؤمن ، ومن شاء أن يسلك سُبل الضلال ، والغواية ...

ومن هنا نقول :

ما ترى خيراً ، يرقى بالبشر إلا وقد بينَه لنا رسولنا العظيم ، وما يُرىَ من شر ، وخِيم العاقبةُ إلا وحذَّرنا منه (جزاه الله عنا خيرَ ما جَازَى نبيًّا عن أمته) .

كما نقول :

ما وقعنا فى ضرٍّ إلا كان بسبب مخالفة منهجه (عليه الصلاة والسلام) ...

والمشكلة التى نحن بصدد الحديث عنها ما كانت إلا بسبب الانحراف عن منهجه المستقيم ...

ولعلنا : نحدِّد أبعادها ، وأضرارها على المجتمعات ، وأسبابها ،

وسبل الخلاص منها ، لنحيا حياة القوة ، والعزة ، والكرامة ، والنماء ، والرَّفَه ، والثَّرَاء . . . والسلام .

« وَمَا توْفِيقِى إلاَّ بالله عَلَيْهِ توكَّلْتُ ، وإِلَيْهِ أنِيبُ » .

د / عبد الحميد السيد محمد عبد الحميد

دكتوراه من كلية اللغة العربية بالقاهرة - جامعة الأزهر الشريف - مع مرتبة الشرف الأولى

* * *

الفصْلُ الأوَّل

أولا :

معنى التَّعْوِيق : (الإِعَاقَة) : ونأخذ ذلك من اشتقاق الكلمة ، ومادتها الأصلية (ع وق) : فى المصباح المنير ، مادة (عوق) :

« عاقَه عَوْقًا ، من باب (قال) ، واعْتَاقَهُ ، وعوَّقه : بمعنى **منَعَه** . »

وفى المختار ، مادة (ع وق) : « عاقَهُ عن كذا : **حبَسَه عنه** ، **وصَرَفه** ، وبابه (قال) وكذا اعْتَاقَهُ ، وَعَوَائق الدهر : الشواغِل من أحداثه ، والتَّعُوُّق : **التَّثَبّط** ، والتعويق : **التثبيط** . . . » .

وفي كتاب الأفعال للسَّرَقُسْطِى ، مادة (عَاقَ) : « عَاقَ الشىء عَوْقًا : **حَبَس** . . . » وفى أساس البلاغة لجار الله : الزمخشرى ، مادة (ع وق) « . . . وعاقة ،واعتاقه ، وعوَّقه « قَدْ يَعْلَمُ اللهُ المعوِّقِين منكُمْ» [1] .

« **وتقول** : فلان صحبه **التَّعوْيق** ، **فهجَره التَّوْفِيق** . . . » .

وفى القاموس المحيط ، مادة (الْعَوْق) :

« العَوْق : **الحبس** ، **والصَّرْف** ، **والتبيط** ، كالتَّعويق ، والاعْتيَاق ، **والرجل الذى لا خير عنده** . . . » فقد زاد فى المعانى . . .

وفى لسان العرب ، مادة (عَوْق) : « عوق : رجل عَوْق : **لا خير عنده** ، والجمع : أعْوَاق ، ورجل عُوَق : **جبَان** (هُذَلِيَّة) وعَاقَه عن الشىء يَعُوقه عُوْقًا : **صرفه** ، **وحبسه** ، ومنه التعويق ، والاعتياق . . . ورجل عُوَقة ، وعُوَق ، وعوق ، أى : ذو تعويق . . . » وقد زاد صاحب اللسان فى الاشتقاق ، والمعانى . . .

وقد أتى المعجم الوسيط على كثير من المعانى ، فى مادة (عاقه) :

---

(١) من الآية ١٨ من سورة الأحزاب .

فمن ذلك : « « عاقة عن الشيء عَوْقًا : **منعه منه ، وشغله عنه** ، فهو عائق ... وعوائق الدهر : شواغله ، وأحداثه ، وعوّقه عن كذا : عاقه ، اعتاقه : عاقه ، وتعَوَّق : **امْتَنَعَ** ، **وتثبّط** ... » .

وخلاصة ما تقدم :

أن مادة (ع و ق) **تعنى المعانى الآتية** :

- المنع ، والصَّدّ عن الأمر .
- الحبس ، والصرف عن الشيء .
- والشواغل التى تصرف عن القيام بالأعمال .
- والمعوَّق : الذى لا خير عنده .
- الامتناع عن الأعمال ، والتَّثْبِيط ...

ونزيد المادَّة **فضل** إيضاح . **فنقول** :

المصدر : « عَوْق » وزَان : « قَوْل » : أخذ منه الفعل الماضى « عَاقَ » بقلب عينه ألفا ... وأخذ منه الفعل المضارع « يَعُوق » بزيادة ياء المضارعة ، وبقاء الواو على حَالتِها ؛ لأن الضمة قبلها ، فلم تُعَلّ ...

وأخذ منه الأمر « عُقْ » وَزَان « قُلْ » والوزن الصرفى لهما « قُلْ » بحذف عين فعل الأمر ؛ لوُجُود المقتضى للحذف .

واسم الفاعل « عَائِق » واسم المفعول « مَعُوق » ...

ما تقدم هو : الفعل الْبَسيط ، الذى يؤدى معنى بَسيطًا : أخذًا من حروف مادته .

وعند زيادة التضعيف ؛ لثلثيه المعنى ، فإن الفعل **يصير مركَّبًا** : من المعنى الأصلى ، ومن زيادة التضعيف ، التى اجتلبت لمعنى زائد ...

فالفعل « **عَوَّق** » المزيد بالتضعيف من مصدر « التَّعْوِيق » ومضارعه « يُعَوِّق » وأمره « عَوِّق » واسم فاعله « مَعوِّق » بكسر الواو ، واسم مفعوله « مَعَوَّق » – بفتح الواو [1] ...

---

(١) انظر كتابنا : تصريف الأفعال ص ١١٢ ، ...

ومن ذلك : جاءت الآية الكريمة « الْمُعَوِّقين » وهم : المنافقون الذين أخذوا فى تثبيط المؤمنين ، والموازنة بين قوة الحق ، وقوة الشيطان ، المتمثلة فى قريش ، ومَنْ وراءَ قريش ... إذا كانوا يقولون : «ما محمدٌ ، وأصحابُه إلا أكلة رأس ، ولو كانوا لحمًا لا لتهمهم أبو سفيان ، وأصحابه ، فخلوهم ... » (١) .

من العَرْض المتقدّم يمكننا أن نقول - فى ثقة ، واطمئنان -

إن التعويق (الإعاقة) يمكن أن يكون **فى النواحى الآتية** :

١ - **التعويق** : فى نمو الأجسام نُمُوَّها الطبيعىّ .

٢ - **التعويق** : فى إصابه الحواسّ ، وهى المنافذ على الحياة ...

٣ - **التعويق** : يمكن أن يكون فى التخلف العقلى المعتاد .

٤ - **التعويق** : يمكن أن يكون فى عدم استقامة الأعضاء ، وسلامتها .

٥ - **التعويق** : يمكن أن يكون فى الأمراض النفسية ، والعضوية ...

٦ - **التعويق** : يمكن أن يكون فى الأمراض الوراثية ، التى تعوق العمل ، وتعطل الإنتاج .

٧ - **التعويق** : يمكن أن يكون فى القصور عن تحصيل العلم ، وعملية التعلّم ...

٨ - **التعويق** : يمكن أن يكون فى انعدام الطموح . والتخلف عن ركب الحياة الصاعد ...

٩ - **التعويق** : يمكن أن يكون فى قصر الأعمار ، بسبب أمراض الوراثة ...

---

(١) ٥٢٩/٣ الكشاف .

١٠ – **التعويق** : بخالف منهج الله تعالى ، وموازينه ، بسبب فقد العلاقات فى المجتمعات ...

– **التعويق** : يمكن أن يكون سببًا من أسباب العقم ، وعدم الإنجاب .

وغير ذلك : مما نحسُّه ، ونلمسُه ، ونقرؤه فى كتاب الكون المُفتوح ، الذى أمرنَا بالتفكر فيه ، وفى أنفسنا ... وطلب منا : أن نفكر ، ونعقل ، ونذَّكر ، ...

ويهمنا – فى المقام الأول . التعرّف على أسباب الدَّاء ، وأبعاده ، وأضراره على الأفراد ، والمجتمعات ، وعلى النموَّ ، والنماء ، والتنمية ، ومحاولة وضع الدواء الناجع لهذا الدَّاء الْعَيَاء .

ثانيا :

أسباب المشكلة من زاوية التزاوج ، والتَّنَاسُل :

وقبل أن نعرض لأسباب المشكلة **نعرض لنواميس** الله (عز وجل) الكونية ، وسننه التى لا تَتَحول ، ولا تتبدَّل .

١ – خلق الله البشر من أب : هو آدم (عليه الصلاة والسلام) ومنه خلقت حوَّاء وهى الأم ، ومنهما بث الله رجالا كثيرًا ، ونِسَاءً ، وذلك فى قوله تعالى : « ... اتَّقُوا ربَّكُم ، الَّذى خَلقَكُمْ مِنْ نفسٍ وَاحِدةٍ ، وخَلَقَ منها زَوْجَهَا ، وبَثَّ منْهُما رِجَالاً كَثيرًا ، ونِسَاءً ... »[1] .

وفى ذلك من الحكم السَّامية ما فيه :

– الانتساب إلى أمنا الأرض ، فآدم منها ، يعيش هو وذريته عليها ، ويحيا على خيراتها ، ويئُولُ إليها ، ويبعث منها ... فمنها خلق ، ومن خيرها يحفظ حياته ، وإليها يعود ، ... .

– حوَّاء منه ؛ لتتم المودة ، وتأتى الرحمة ، وتكون السَّكَن ، والصَّدرَ الدافىء ، والقلب الحانى ، وليكون من الزوجين بكلمات الله بدء الحياة ، وانتشار الذُّرِّية ...

---

(١) من الآية الأولى من سورة النساء .

- الإشارة إلى أن كل آدم لابد له من حوَّاء ، وكل حوَّاء لابد لها من آدم ؛ ليكتمل النصفان ، ومنهما تكون الذرية ، والإنجاب ... وتسير الحياة إلى غايتها التى حددها رب العزة ...

- **كل آدم صالح لكل حواء** ، وكل حوّاء صالحة لكل آدم مهما كان التباين فى لون الجلود ، والتفاوت فى القُدُود ، وفى الحُسْن ، والملاَحَة ، وفى الدَّمَامة ، وعدم الوَضَاءَة ، والجمال ... فالصلاحية من حيث الخلقة ثابتة ، إذا ما التقى حيوان منوى ببويضة أُنُثَوِية ...

- كل ادم يأنس بكلِّ حوَّاء ، ويشبع منها غُلَّته ، ويروى ظَمَأهُ ، وكل أنثى تألف كل آدم وتنال منه رِيَّهَا ، وراحتها ، وشفاء فَوْرَتها ...

- من الالتقاء تأتى الذَّرَارِى ، ويتم الإنجاب - بتقدير العزيز العليم ، الذى « يَعْلَمُ ما تحملُ كلُّ أُنْثَى ، وما تَغيضُ الأرْحَامُ ، ومَا تَزْدَادُ ، وكُلَّ شَىْءٍ عِنْدَهُ بمقْدارٍ »(١) .

« هُوَ الَّذِى يُصوِّرُكُم فى الأَرْحَام كَيْفَ يَشَاءُ ، لاَ إِلَه إلاَّ هُوَ العزيزُ ، الحكيمُ »(٢) .

- من أجل تنظيم العشرة ، والإنجاب جاء نظام الشرائع السماوية المحكمة ، إذ كان أول البشر رسولاً فقد « اجْتَبَاه ربُّهُ ، فَتَاب عَلَيْه ، وهَدَى »(٣) .

- هدى الله تعالى آدم إلى عشْرَة حوَّاء ، وقادته فطرته التى ركبها ربه فيه ، كما اسجابت حوَّاء بهداية الله تعالى ، واستجابة للفطرة التى فطر الله الناسَ عليها ، وبعد إذْن الله تعالى ، وكلماته التى تبيح الاستمتاع ، وتأتى ثَمرة له الذرية ﴿ فلما تَغشَاهَا حَمَلَتْ حَمْلاً خَفيفًا ، فمرَّتْ به ، فلمَا أثْقَلَتْ دَعَوا الله ربَّهُمَا لئنْ أتيتَنَا صَالحًا لنَكُونَنَّ منَ الشَّاكرينَ ﴾(٤) .

---

(١) من الآية ٨ من سورة الرعد .

(٢) الآية ٦ من سورة آل عمران .

(٣) من الآية ١٢٢ من سورة طة . (٤) من الآية ١٨٩ من سورة الأعراف .

والمراد بالصلاح – هنا – سلامة الأعضاء ، واستقامتها ، وسلامة الأجهزة ، وقوتها ، وعدم العيوب الخِلقية .

وذلك : لأن آدم رسول ، يوحى إليه ، والعصمة له ثابتة ، وحوَّاء صورة منه فى كل معانى السمّو الإنسانى ، والرفعة البشرية ... وأولادهما على نهجهما ، وشاكلتهما ...

وقيل : « ولداً ذكرا ؛ لأن الذكورة من الصلاح ، والجودة » [1] .

ويقول القرطبىّ فى نسل آدم ، وحوَّاء : « وكان جميع ما ولدته حوَّاء أربعين : من ذكر ، وأنثى فى عشرين بطنا ، أولهم قابيل ، وتوأمته إقْلِيمياء ، وآخرهم عبد المغيث ، ثم بارك الله فى نسل آدم ، قال ابن عباس : لم يمت آدم حتى بلغ ولده ، وولد ولده أربعين ألفًا » [2] .

وللضرورة أجاز المشرع الأعظم : ربّ العزة : الله زواج الأخت من أخيها ...

ولحكمة البُعْد الغَالية كان الأخ يأخذ توأمة أخيه .

وفى هذا التشريع المحكم إشارة **إلى الإغراب** ، فى حدود الممكن المتاح ؛ إذ لا يوجد متاح غير ذلك ...

ومن هنا نقول – فى اطمئنان نفس – :

إن الله (عز وجل) يعلّم عباده **على يد أول بشر رسول أن يُغْرِبُوا** ما أمكنهم ذلك ...

والحكمة البالغة فى ذلك : صحة الناشىء ، والناشئة ، وبلوغ مرتبة الكمال الخِلْقِى ، والخُلُقى .

---

(١) انظر ٢ / ١٨٦ الكشاف .

(٢) ٣ / ٣٢ ٠ ١ الجامع لأحكام القرآن ...

وانظر مع ما تقدم كتابنا « المرأة عبر العصور ، بين هوان الجاهلية ، وعزة الإسلام (تحت الطبع) .

٢ – « لعلَّ ذرية أبينا آدم (عليه الصلاة ، والسلام) قد أفادت من الدرس – فى الإغراب .

وهداها الله (عز وجل) إلى رشدها ، وقادتها الفطرة السليمة إلى خيرها ، ونمت خبراتها ، ومعارفها ، واستحصدت تجربتها ، مع الحياة الطيبة ، والأرض الواسعة ، الفسيحة ، والجو النقىّ ، الذى لم يختلط – بما يكدّر الصفو مما حدث بآخره ، مع اتساع العُمران ، وحضارة الإنسان ، التى تُصْلِح جانبا ، وتُفْسِد آخر . . .

ولعل تلك الأحقاب كانت تنعم بقوة الأبدان ، وسلامة الحواس ، واستقامة الأعضاء ، حتى تنعم بموائد الله تعالى على أرضه ، وتدرأ عن أنفسها خطر الطبيعة من حولها وتكون فى منآى ، ومأمنٍ من العَوَادِى ، والضَّوَارى ، والكوارِث الطبيعية . . .

ونقول : لم ينقطع نور السماء عن الأرض ، ولم تُتْرك الخلائق دون بشير ، ونذير تحقيقا لقول ربنا (عز وجل) : « وَإِنْ مِنْ أمَّةٍ إلاَّ خَلاَ فيهَا نذيرٌ » (١) .

ويقول جار الله : الزمخشرى « والأمة : الجماعة الكثيرة . . . ويقال لأهل كل عصر أمَّة . . . » (٢) .

والمراد : الرسول المرسل ، بشرع يُبَلِّغ ، أو نَبىّ بشرع يَعْمل به فى خاصة نفسه ، ويشيعُ القدوة الصالحة ، وتمتد آثار الهداية فى أمم آتية ، وفى عصور قادمة . . .

ولعل رسالة آدم (عليه الصلاة والسلام) كانت ممتدة الأثر ، باقية الذكر إلى آماد ، لا يعلم مداها إلا الله (عز وجل) .

ولعل التزاوج فى الغرائب كان باقيا ، وثبتته التجربة ، وأكده واقع الحياة ، ومصلحة الأحياء . . . وصولاً إلى النجابة ، وبلوغ القوّة المنشودة

---

(١) من الآية ٢٤ من سورة فاطر .

(٢) ٣/٦٠٨ الكشاف . . .

فى بيئات تحتاج إلى القسوَّة لمواجهة متطلبات الأحياء ، وأخطار الحياة . . .

٣ – جاء دَوْرُ الأب الثانى للبشر ، وهو سيدنا نُوح (عليه الصلاة والسلام) وأجاب الله دعاءَهُ ، وحقق رجاءَه ، وانتصر له من أهل الكفر ، والعناد ، والإيذاء ، والسخرية ، فحوَّل نعمة الماء إلى طوفان مُدَمِّرٍ ، ونَجَا نوحٌ ، ومن آمن به ، وما حمل فى الفلك المشحون من كل زوجين اثنين ، وهلك الكفر ، وأهله ، ورَسَت السفينة على الجُودِىّ ، وجفت الأرض ، وصلحت للحياة عليها ، ولإمداد الأحياء بكل حاجاتهم ، إذا ما أعطوها طاقاتهم . . .

وشاءت حكمة الله (عز وجل) أن يكون التناسل من أبناء نوح الثلاثة : حام ،وسام ، ويافث ، وصدق الله العظيم حيث يقول « وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِين »(١) .

سكن المؤمنون **قرية الثمانين** نسبة لعددهم فى الموقع الذى أرس الله فيه السفينة ، وأخذ المؤمنون يقيمون قريتهم ، ويبنون البيوت ، ويتخذون من سفينة النجاة ما تحتاج إليه بيوتهم من ألواحها ، ودُسُرِها . . .

وقد أخذت الحياة تسير سيرها الذى رسمه لها رب العزة (جل ، وعز) وكان التناسل فى أبناء الأب الثانى للبشرية : نوح (عليه الصلاة والسلام) :

لقد تفرقوا فى أرض الله الواسعة ، وتناسلوا : اتجه حام إلى إفريقيا ، وسكن سام ، وذريته شبه الجزيرة العربية من الناحية الغربية ، واتجه يافث إلى الجنوب فى شبه الجزيرة العربية . . . من الناحبة الشرقية ، وعمرت ذريته الصين ، والهند . . . ثم اتجهت شمالاً إلى حيث شاء الله لها ، وقد كان أكثر أبناء نوح نَسْلاً .

لكن الرسالات كانت فى أبناء سامٍ ، وامتلأت أرض الله (عز وجل) بالنسل المنتسب إلى نوح (عليه الصلاة والسلام) . . .

---

(١) الآية ٧٧ من سورة الصافات .

ونشأ العمران فى الأرض الخصيبة التربة الطيبة الهواء ، الكثيرة الخيرات ، المعتدلة المناخ .

ولعلَّ أبناء نوح ، وأحفادهُ قد اتجهوا إلى التباعد فى الزواج ، وعدم التزوج بالقرائب **وذلك** :

للإفادة من رسالة الرسول الكريم : نوح ، فإنهم الصفوة المؤمنة من الخلق .

ولعلَّ ذلك : كان المتاح فى أول الأمر - إذ التناسل من أبناء نوح ، مع الزواج من المؤمنات الناجيات . . .

فإذا ما اتسع العمران ، ونما السكان اتسعت القاعدة ، وأتى الزواج ثماره الطيبة فى القوة ، والنجابة . . .

والحياة فى هذه الأحقاب تحتاج إلى القوة ، التى بها تحصيل مابه قوام الحياة من مأكل ، ومشرب ، وملْبَس ، ومأوى ، ووسائل دفاع عن النفس . . .

كما تحتاج إلى نجابة ، وملكات خلاَّقة ، وقدرات عالية . . .

وإنما يتحقق الأمران إذا تم التزواج بين الأباعد . . .

وإن ربَّ العزة (جل وعز) لم يَحرِم جيلاً من الناس من الفطنة ، والذكاء ، والقدرة على توظيف ذلك فى النهوض بالحياة ، والاتقاء بالأحياء فى شتى النواحى . . . .

٣ - **ولعلَّ من ثمار** تعاليم الرسول العظيم ، وهو خامس أولى العزم من الرسل ، وحصاد التجربة على الأرض ، والملاحظة الدقيقة ، والخبرات النامية : التى تُعدِّل السلوك البشرى ، ما سنذكره عن أبناء **عاد** . . . من ولد سام بن نوح (عليه الصلاة والسلام) :

روى الجاحظ : « أن أخت لُقمان قالت لامرأة لقمان : إنىِّ امرأة مُحْمِقَة ، ولُقْمانُ رجُلٌ مُنْجب محكِم ، وأنا فى ليلة طهرى ، فهبى لى

ليلتك ، ففعلت ، فباتت فى بيت امرأة لقمان ، فوقع عليها ، فأحبلها بلُقَيمْ . . .

والمرأة : إذا ولدت الحَمْقَى فهى مُحْمِقَة ، ولا يعلم ذلك حتى يرى ولد زوجها من غيرها أكْيَاسًا » (١) .

ويقول الجاحظ : « وكانت العرب تعظم شأن لُقْمَان بن عاد الأكبر ، والأصغر ، ولقيم بن لقمان ، فى النباهة ، والقدر ، وفى العلم ، والحكم ، وفى اللسان ، وفى الحلم ، **وهذان** غير لقمان ، الحكيم المذكور فى القرآن – على ما يقول المفسرون .

ولارتفاع قدره ، وعظم شأنه قال النمر بن تولب :

لُقَيْـــمْ بنُ لُقْمَانُ من أختِه ... فكان ابنَ أُخْتٍ لَهُ ، وابْنَمَـــا
ليالِى حُمِّـقَ ، فاستَحْصَنَت ... عَلَيْه ، فَغُرَّ بهـــــا مُظْلِمًا
فَغُرَبها رَجُلٌ محكـــــمٌ ... فجاءَتْ به رَجُلاً مُحكَمًا » (٢)

يريد النَّمر بن تَوْلَب أن يقول :

– إن لُقَيْم بن لقمان من أخته المحمِقَة ، فكان لقمان خال لقيم ، وهو أبوه . . .

– وتم ذلك بتدبير أخْرَق ، فى ليل بهيم من أخت لقمان ، وزوجته .

– ولقمان رجل محكم ، وقد أنجب لقيمًا حكيما مثله . . .

ويزيد الأمر إيضاحًا الإمام العَيْنِى فى شراهده الكبرى ، ويوضح الجوانب الآتية :

(أ) كان لقمان يلد النجباء ، وكانت أخته على العكس تلد الحمقى . . .

(ب) كانت أخت لقمان تحت رجل ضعيف ، أحمق ، فلولدت له أولادًا ضِعَافًا .

---

(١) ١/١٩٤ البيان ، والتبين .

(٢) ١/١٩٣ ، ١٩٤ البيان والتبين .

(جـ) أحبت أخته أن يكون لها ولد كأخيها ، وقد اتفقت مع امرأة لقمان ، في مقابل جُعْلٍ ، يدفع لها ، وتأذن لها ، وتم لها ما أرادت ، وقد سكر لقمان ، واندلست له أخته ، وقد لبست ثياب زوجته ، فوقع لقمان على أخته ، فحملت منه بلقيم . . .

(د) كان لقيم من أحكم الناس . . .

(هـ) وحينما أتته أخته أتته كأنها حَصَان ، كما تأتى المرأة زوجها . . . [1] .

ومما تقدم نقول :

- عرف الناس فى هذه الأحقاب،وفى حياة العرب البائدة : النجابة ، والنجباء ، والكياسة ، والأكياس . . . كما عرفوا الحَمْقَى ، والمُعَوَّقين . .

- ومَرَدُّ ذلك إلى ما بقى من إثارة من تعاليم السماء على أيدى رسل الله الكرام ، وكذلك عن طريق معارفهم فى الحياة ، المستمدة من تجارب الحياة ، وخبراتها . . .

- كما عرفوا أسباب النباهة ، ورفعة الشأن ، وأسباب القوة ، والأقوياء ، كما عرفوا عكس ذلك ، وتعرفوا على أسبابه . . .

ونشير إلى ذلك فيما يلى :

٤ - **عرفت العرب الضْوَى** ، وردَّته إلى أسبابه .

- فى كتاب الأفعال للسَّرَقُسْطِىّ ، مادة (ضَوِى) :

« ضَوِى ضَوًّى : **رَقَّ جسمه** .

وأنشد أبو عثمان ، لذى الرُّمَّة يصفُ نارًا ، وزَنْدًا ، وزَنْدَة :

أَخُوها أبُوها ، والضَّوَى لا يَضيرُها   وسَاقُ أبيها أُمُّهَا عقَرَتْ عَقْرًا

يقول : هذا الزّند من خشبة واحدة قطعَتْ نصْفَيْن . »

---

(١) انظر ١ / ٥٧٦ ، ٥٧٧ الشواهد الكبرى للعينى .

وقد عرفت العرب المرخ ، والعفار ، واستوقدت من حَكِّهِمَا النار ٠٠

وقد أشار لذلك الذكر الحكيم إشارة إلى القدرة البالغة فى جمع الضِّدين : الماء ، والنار ٠٠٠

« الَّذى جَعَلَ لكُمْ مَن الشجر الأَخْضَر نَارًا ، فإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُون »(١) .

كما جاء قول الشاعر :

فَتًى لم تَ لِدْهُ بنْتُ عـمٍّ قريبة   فَيضْوَى،وقدٍ يَضْوَى رَدِيدُ الأقارِبِ

وقول الراجز :

ذَاكَ عُبَيدٌ قد أصَابَ ميًّا   يَا ليْتَه ألقَحَهَا صَبِيًّا

فحمَلَت فولَدَتْ ضَاوِيًّا

وقال الشاعر :

تَنجَبَها للنَّسبل ، وهْيَ غريبةٌ   فجاءتْ بِهِ كَالبَدْرِ خرِقًا معمَّمَا

وعلينا بعد ما تقدم أن نحدد ماهية الضَّوَىَ ، والمعنى من معجمات اللغة ، وقواميسها ٠٠٠ حتى نفهم أبعاده التى عرفتها العرب ، ووردت إلينا منهم ٠

وذلك فى الآتى :

فى مختار الصحاح ، مادة (ض و ى) : « الضوَى : **الهُزَال** ، وبابه صَدِى ، وغُلام ضَاوِىّ : وزنه فَاعُول ، أى : **نحيف** ، وفيه ضَاوِيَّة ، وجَارِية ضاوِيّة ٠

وفى الحديث « اغْترِبُوا لاَ تُضْوُوا » أى : تزوجوا فى الأجنبيات ، ولا تتزوجوا فى العُمُومة ، وذلك : أن العرب تزعم أن ولد الرجل من قرابته **يجىء ضاويًّا ، نحيفًا ، غير أنه يجىء كريمًا على طبع قومه** » ٠

وفى المصباح المنير ، مادة (ضَوِى) : « ضَوِى الولدُ ضَوًّى من باب

---

(١) الآية ٨٠ من سورة يس ٠

تَعبَ : إذا **صغر جسمه** ، **وهزل** ، فهو ضَاوِىّ : **مثقل** ... والأنثى : ضَاوِيَّة ، وأَضْوَيتُه : **أضعفته** . » وسجَّل الحديث الشريف المتقدم ، وجاء بتعليل للضَّوَى – على حسب ماهدت إليه الفطرة ... حيث قال : « .. وكانت العرب تزعم أن الولد يجىء من القريبة ضاوِيًّا ؛ **لكثرة الحياء من الزوجين** ، لكنه يجىء على طبع قومه من الكرم » .

وفى أساس البلاغة ، مادة (ض و ى) : « غلام ضَاوِىّ : مهزول ، وأهلكه الضَّوَى ، وقد ضَوِىَ يضُوَى ، وأضْوَت فلانة : جاءت بولد ضَاوِىّ ، وفى الحديث« اغتربوا ، وَلاَ تُضْوُووا » .

ويقولون : **الغرائب أَنْجَبَ** ، **والقرائب أَضْوَى** ، وقال :

فتًى لم تَلِدْهُ بنتُ عمٍّ قريبةٌ   فَيَضْوَى ، وقد يَضْوَى رَدِيدُ الأقَارب

وفى معجم مقاييس اللغة ، مادة (ضوى) :

« الضاد ، والواو ، والياء : أصل صحيح ، يدل على **هزال** ، يقال : غلام ضاوىّ : مهزول ... وجارية ضاويَة .

وكانت العرب تقول : إذا تقارب نسب الأبوين خرج الولد ضاويًّا ، وجاء فى الحديث : « اسْتَغْرِبُوا ، لا تَضْوُوا ... »

وفى المعجم الوسيط ، مادة (ضوى) : « ضَوى : **ضعف** ، **وهزل** ، **أودق** ... »

وفى القاموس المحيط ، مادة (الضَّوَى) :

« الضَّوَى : **دقة العظم** ، **وقلة الجسم خِلْقَة** ، أو **الهزال** ، ... » .

وفى لسان العرب ، مادة (ضَوَا) :

« ... والضَّوَى : **دقة العظم** ، **وقلة الجسم خِلْقَة** ، وقيل الضوى : **الهزال** ... وغلام ضاوىّ ، وكذلك غير الإنسان من أنواع الحيوان ... »

وقد ذكر صاحب اللسان كثيراً من الاستخدام مما اشتق من الضَّوَى ،

كما سجل الحديث الشريف ، وفَسَّره بقوله : « ... تزَوَّجُوا فى البِعَاد الأنْسَاب ، لا فى الأقارب . لئلا تَضْوَى أولاذكُمْ .

وقيل معناه : أنكحوا فى الغرائب ، دون القرائب ، فإن ولدا الضريبة أنجب ، وأقوى ،وولد القرائب أضعف ، وأضوى ... » .

كما فسّر لا تُضْوُوا : « أى : لا تأْتُوا ، بأولاد ضَاوين ، أى : ضعفاء ... » .

وخلاصة ما تقدم من معانى (الضَّوَى) أخذا من معجمات اللغة ، وقواميسها ما يلى : **الضَّوَى** : الهزال ، النَّحافة ، صغر الجسم ، وهُزَاله ، والضعف ، وأَضْوَت المرأة : جاءت بولد ضاوٍ ، الدَّقة : أى : دقة العظم ، وقلة الجسم خِلْقَة ..

وجميع المعانى التى سجلها أصحاب القواميس لمعنى الضوى تخرج من مشكاة واحدة ، وتدل على ضعف ، وهزال ، ودقة عظم ، وصغر جسم ، ..

وهذه المعانى يأخذ بعضها برقاب بعض ، كما تأخذ كلها بحجز ما تقدم ذكره من أنواع التعويق : الإعاقة ..

وكلها تتفق فى المنشأ، والسبب ، وتصبُّ فى زواج الأقارب ...

ونستنبط مما تقدم – فى ثقة ، واطمئنان ما يلى :

أوَلاً : لقد عرفت الإنسانية القوة ، والنجابة ، والتفوق فى زواج الأجنبيات من النساء ... أى : البعيدات النَّسب ...

وقد جاء **التعليل لظاهرة ملموسة** بالحياء بين الأقارب ...

وهو تعليل إن قُبل منهم فى العصور السابقة – قبل عصر العلم ، والتجريب ، واستخلاص النتائج – فلن يقبل فى عصور العلم ، الذى فتح الله به على العلماء تحقيقا لقوله تعالى : « وَإِنْ مِنْ شَىْءٍ إِلاَّ عِنْدَنَا خزائنُه ، وما نُنَزلُه إِلاَّ بقَدَرٍ مَعْلُومٍ (١) »

---

(١) الآية ٢١ من سورة الحجر .

وقوله تعالى « سَنُرِيهِم آيَاتِنَا فِى الآفَاقِ ، وَفِى أَنْفُسِهِم . . . » [٢] .

ثانيا : كما عرفت البشرية أن داء التعويق يكمن فى زواج الأقارب ، وعلل العلم لذلك - بآخرة -

ثالثا : إذا كانت التجربة خير برهان ، فلقد ثبت بها الخير فى زواج الأجنبيات ، غير الأقارب ، وأن العاهات ، والعلل فى مخالفة ذلك .

رابعًا : فى جميع العصور ، والدهور ، التى وضحت فيها التجربة ، وبان النفع ، والضر ، وكان نمط الحياة السائد تمجيد القوة ، والرغبة فيها ، والنفرة من الضعف ، والهزال ، تحقيقا للمقولة التى تنص على أن البقاء للأصلح ، والأقوى . . .

خامسًا : لم تكن الآلة قد ظهرت فى شتى ضروب الحياة ، حتى تخفف الأعباء عن الأحياء ، وإنما كان النشاط البشرى يقوم - فى الأعم ، الأغلب على قوة الأجسام ، وسلامة الأعضاء .

ونجمل ما تقدم فيما يلى :

١ - **القوة** : هى عماد العمل ، وقِوَام الحيَاة فى بيئات لم تعرف الآلة ، ولم تعرف الأسلوب العلمىّ ، والتجريب ، وطرح الاحتمالات ، واستخلاص النتائج ، والتطبيق عليها ،حتى يتم العمل بالاسلوب العلمىّ ، المستنير ، الذى ، يرقى بالحياة ، ويسعد الأحياء .

٢ - **القوَّة** : هى النَّصر فى معركة الأحياء ، مع الطبيعة ، العاتية ، المزمجرة أحيانًا ، والتى ، تُبَيِّتُ الناسَ ، وتَدْهَمُهم بالأعاصير المدمرة ، والسُّيول الْعَرِمَة ، المخربة ، مع المعارك المستمرة ، مع الوحوش ، والضوارى . . . وغير ذلك ، مما تموج به الحياة ، وهو من ضروراتها . . .

٣ - **القوة** : هى الأساس الصُّلْب ؛ لتحويل أنْعُم الله تعالى ، التى تترى على الخلق إلى طعام سائغ ، وشراب هانىء ، وملبس واقٍ ، وسرْبَال يقى صاحبه الحرَّ ، والبردَ ، والبأس ، ومسكن هادئ ، وعُشٍّ ملائم ، وفراش وثير ، فيه المتعة ، والجمال . . .

---

(١) من الآية ٥٣ من سورة فصلت .

كل ذلك : يحتاج إلى النوة ، والأقوياء ، وصولا إلى الإشباع ، ثم الوفرة ، والرَّفَة ... وغير ذلك .

٤ - **القوة** : لازمة للحياة ، والأحياء حتى يُحَصَّل بها ما به قوام الحياة من ضرورات العيش ، ونظام الحياة ، والكون ...

٥ - **القوىّ** : هو الذى يسعى ، ويملك إثراء الحياة ، وتطوير البيئات ، وهو الذى بسواعده الفتية يملك مفاتيح الخير ، وخزائن الثراء...

٦ - **القوىّ** : هو الذى يستطيع أن يفيد من كل قطرة ماء ، وذرة تراب ، وذرة هواء ...

٧ - **القوى** : هو الذى يحقق بعرقه ، ودمعه ، ودمه ، وجهده ، وكده خلافة الله تعالى فى الأرض : بإقامة الحق ، والعدل ، والإخاء ، والتكافل الاجتماعى ، والسلام .

٨ - **القوىّ** : هو ، الذى قال بعلمه الخلاَّق ، وجهده المثمر لربه (عز وجل) حينما صدر إليه الأمر الإلهى بأن يعمر أرض الله ، ويثيرها ، وينعم بخيراتها وذلك فى قوله الكريم « هُو أنشأكم مَن الأرض ، واسْتَعمَركُم فيهَا »[1] أى : فى الأرض والهمزة ، والسين ، والتاء للطلب، وهو طلب حثيث ، يعود نفعه عليه ، وعلى بنى جنسه ...

قال لربه : سمعتُ ، وأطعتُ ... وأثار الأرض ، وعمرها ، وبذل للخير العرق ، والدم ، ..

٩ - **القوىّ** : هو الذى يحمل الْكَلّ ، ويُعين المستعين ، ويكفل ذا التعويق ، وذَا الزَّمَانَة ... حتى يتحقق التكافُل الاجتماعى على أرض الله (عز وجل) .

١٠ - **القوىّ** : هو الذى يحمى البيضة ، ويذود عن الذِّمار ، ويحمى العرين ، ويحفظ الحُرَم ، والحَرِيم ، ... ويحقق التوازن فى

---

(١) من الآية ٦١ من سورة هود .

المجتمعات المتناحرة على الماء ، والكلأ ، والمنافع ، والاختصاص بالخيرات . . . ويحقق الخلافة فى إقامة الحق ، والعدل . . .

ومما تقدم يمكننا أن نقول :

إن الحياة هى القوة ، وإن القوّة هى الحياة . . .

٥ - تقديس القوَّة ، وتعظيم الأَقْوِيَاء ، والعمل الدءوب لبلوغ القوة :

وإذا كان للقُوّة هذا الدَّور البارز فى بيئات لا تبلغ الحياة الآمنة إلابالقوة فقد كانت الهدف الاسمى لهذه البيئات . . . عبر العصور المختلفة . . .

وأساس القوَّة الإِنْسَان : وما عداه عوامل مساعدة لبلوغ الغايات : وإذا كان العرب - وهم جيل عظيم ، ممتد من الناس - قد عرفوا النجابة ، والنجباء ، وعملوا لذلك :

فقد عرفت العرب فى جاهليتها : النجيب ، والنجيبة ، وعملوا - جَادِّين - للوصول إلى النجابة . . .

جاء فى أساس البلاغة ، مادة (ن ج ب) :

« هو نَجيب من النُّجبَاء ، والأنْجَاب . . . وقد نجبُ نجابةً ، وله نجيبة، ونجائب ، ونجب ، وفحل مُنْجب ، وامرأة منجبة ، ومنجاب ، ونساء مناجيب وأنجب به أبواه ، قال الأعشى :

أنْجَبَ أيَّامَ وَالِدَاهُ به إِذْ نَجلاهُ ، فَنَعْمَ سا نَجلاَ . . . »

وفى القاموس ، مادة (النجيب) :

« النَّجِيب و وكُهَمزَة : الحسيب ، والجمع : أنجاب ، ونُجَبَاء ، ونُجُب . . . ورجل مُنْجِب ، وامرأة منجبة ، ومِنْجَاب : ولدا الأنجاب . . . » .

واتسع بالنقل فى الاستعمال صاحب لسان العرب . فى مادة(نجب) « . . . النجيب : الفاضل من كل حيوان ، وقد نَجُبَ ينجُب نجابة : إذا

كان فاضلا نفيسًا فى نوعه ... وناقة نجيب ، ونجيبة ، وقد نجب ينجب نجابة ، وأنجب ، وأنجبت المرأة فهى منجبة : ولدت النجباء ... » .

والقصد :

فإن حياة هؤلاء فى بيناتهم تطلبت القوة لمواجهتها ، وسعوا إلى القوة بتلمُّس النجابة ، والسعى والبحث عن المنجبات : لتلد لهم النجباء .

وقد تلمس العرب المنجبات من النساء .

ومن ذلك : ما سجله أحمد بن عبد ربه فى العقد الفريد ، ونورد طرفا منه .

قالوا : أنجب النساء الفَرُوك ، وذلك أن الرجل يغلبها على الشبق ؛ لزهدها فى الرجل . (والفروك : الشديدة الكره لزوجها) . وهو تعليل قد يقبل فى أوقاته ...

عن الأصمعى : النجيبة التى تنزع بالولد إلى أكرم العرقين : وهو تعليل طيب عزره العلم ... قالت العرب : **بنات العم أصبَر** ، **والمغرائب أنجب** ، وما ضرب رءوس الأبطال كابْن أعجمية .

وقالوا : إذا أردت أن يصلب ولدا المرأة ، فأغضبها ، ثم قَعْ عليها

قال الشاعر :

مِمَّنْ حَمَلْنَ به ، وهُنَّ عَوَاقدٌ   حُبُكَ النِّطَاقِ ، فشبَّ غيرَ مُهَبَّلِ

حَمَلتْ بهِ لَيْلَةٍ مَزْءُودَةٍ   كُرْهًا ، وعقدُ نطاقها لم يُحْلَلِ

كما تلمسوا **صفة الآباء فى الأبناء :**

وجاء فى ذلك قول الشاعر :

شَابَه عدىٌّ أبَاه فى الكَرَمْ   ومن يُشابه أبَهَ فَمَا ظَلَمْ

---

(١) انظر ٧ / ١٢٩ العقد الفريد .

« أَبه » جاء على لغة النقص فى « أب ، والمراد : عدى بن حاتم الطائى .

وقالوا : « العُصَبَّةُ من العَصَا » .

وقالوا « شِنْشَنَةٌ أعْرفُها من أخْزَمٍ » .

يقال فى الولد إذا كان فيه طبيعة من أبيه .

وقال زهير :

وهل يُنْبتُ الخطِّىَّ إلاَّ وشيجُهُ   وتفرسُ إلاَّ فِى مَنَابتهَا النَّخْلُ (١)

وقد افتخر الشعراء بأمهاتهم النجيبات ، كما **افتخروا بآبائهم المنجبين .**

ومن ذلك قول سالم بن دارة :

أنَا ابْنُ دَارَةَ مَعْرُوفًا بهَا نَسَبِى   وهلْ بدارَةَ يا للنَاسِ منْ عَارِ (٢)

يريد أنه منسوب إلى أمه : دارة – فى رأى الأكثرين – وليس بها من عيب ، أو مَعَرَّة . . .

وسجلت كتب الأدب ، والبلاغة شيئًا عن : فاطمة بنت الخُرشُب الأَنْمارِية ، أم الكَحَلَة . . . وهى التى قالت عنهم – حينما سئلت عن أيهم أفضل ؟ : « . . . هم كالحلقة المفرغة ، لا يُدْرَى أين طرفَاهَا . . . » .

وإذا كانت الحياة **تعنى القوة** فإن التوصل إلى القوَّة يتطلب الآتى :

– قوَّة الأجسام ، وسلامة الأعضاء ، والحواس . . . **وجماع** ذلك ما يطلق عليه النجابة . . . – ذكاء القلب ، ونباهة الشأن ، والحكمة فى تسيير دفة الأمور ، ووضع الأمور فى نصابها ، والتكيّف مع المجتمعات ، والحياة ، والأحياء ، وذلك يعنى الحكمة ، والحكيم ، والحكماء . . .

---

(١) انظر ٣ / ٤٠ العقد الفريد .

(٢) انظر ص ٣٠٦ شرح شذور الذهب ، وانظر ٢ / ٣١٥ ، ٣١٦ شرح الأشمونى – بتحقيقنا . وانظر كتاب سيبويه ١ / ٢٥٧ ، . . .

– عدم التعويق ، والغِرار عن الزَّمَانَة بما يعنيه معنى التعويق مما أشرنا إليه فيما تقدم . . .

– ما تقدم ، وغيره ما تتطلبه حياة القوَّة ، والنَّبَاهة ، والسيادة ، والرِّيَادَة ، وبسط السيطرة ، والنفوذ . . .

كل ذلك : جعلهم يفكرون ، ويقدرون ، ويعملون الفكر ، ويقدَحُون الذهن للوصول إلى ما تقدم . . .

ويظهر ذلك جليًّا **فى طرائق الزَّوَاج** التى كانت تتم فى الجاهلية الجَهْلاَء . . . وللوصول إلى حقيقة الأمر نرجع إلى السنة المطهرة الصحيحة من مصادرها الرائقة . . . ولنأخذ الأمر من مصدره الموثوق به ، فقد روى « عروة بن الزبير : أن عائشة زوج النبى (ﷺ) أخبرته أن النكاح فى الجاهلية كان على **أربعة أنحاء** : فنكاح منها نكاح الناس اليوم . . .

ونكاح آخر :

« كان الرجلُ يقول لامرأته إذا طَهُرَت من طَمْثها : أرسلى إلى فلان ، فاستبضعى منه ، ويعتزلها زوجها ، ولا يَمسُّها أبداً حتى يتبيّن حملها من ذلك الرجل الذى تستبضع منه ، فإذا تبين حملها أصابها زوجها إن أحَبّ .

وإنما يفعل ذلك : **رغبة فى نجابة الولد** .

فكان هذا النِّكاح نكاح الاستبضاع . . . »[1] .

وتوضيح هذا النوع من النكاح الجاهلى فى الآتى :

(أ) بدء الاستعداد لهذا النوع من النكاح عقب الطُّهْر من دم العادة : الحيض ، وذلك لشعورهم بسرعة العُلُوق من صاحب الماء الحرام : الحمل .

ولأنه عقب طهر المرأة بفترة معينة تبدأ بإذن الله (عز وجل) حركة

---

(١) ١٩ / ٢٢٠ ، ٢٢١ فتح البارى بشرح صحيح البخارى .

البويضة الأنثوية فى التحرك حيث تكون مهيَّأة لاستقبال الحيوان المنوى فى أحد المبيضين ، وعند الالتقاء ، إذا شاء الله تعالى يتم الإخصاب ، ويبدأ الانقسام ، وتأخذ الدورة فى الاستكمال ، وتستقر البويضة المخصبة فى مكانها الأمين ، والذى أشار إليه الذكر الحكيم ﴿ ... ثُمَّ خلقْنَا النطفَةَ علَقَةً ، فخلقْنَا العَلَقَةَ مضغةً ، فخلقْنَا المضغَة عظامًا ، فكسْوْنَا العظَامَ لحمًا ، ثم أنشأناه خلقًا آخَرَ ، فَتَبارَكَ الله أحْسَن الْخَالقِينَ ﴾ (١) .

٢ – **من المؤسف** – من الناحية الدينية والخلقية ... – أن يطلب الزوج من زوجته أن ترسل إلى فلان ، أو تذهب إليه تدعوه إلى المباضعَة ، وقضاء المتعة الحرام معها ...

ومما يعتصر القلب أسىً أن يكون الزوج ، الذى ينبغى أن يَغَار على زوجته ، ويحميها من غيره – كما تفعل كثير من الحيوانات ، والطيور ، ... ولكن الحياة تفسد إذا غاب عنها وحيُ السماء ، أو جنح الأحياء إلى المخالفة ، والعنَاد ...

٣ – **المراد بالاستبضاع** : الجماع ، والمباضعة : المجامعة ، والاشتقاق من البضع ، وهو الفرج : للرجل ، وللمرأة .. والمباضعة : مفاعلة من الجانبين ...

٤ – الذى تطلب المباضعة منه يكون مشهوراً ، مقَّسما بأحد صفتين، أوهُمَا معًا ...

الأولى : الجَسَامَة ، والقَسَامة ، وسلامة الأعضاء ، وسلامة الحواس ، والرونق ، والبهاء ... وذلك : يتعلق بالنواحى الخلْقيَّة...

والثانية : النواحى العقلية ، والنفسية : إذ كانوا ينظرون إلى الصِّفَات الكريمة نظرة مقدسة :مثل الشجاعة ، والنجدة ، وقوَّة البأْس ، وشدة الشكيمة ، والحكمة ، والكياسة ، والسياسة ... وينظرون إلى

---

(١) الآية : ١٤ من سورة المؤمنون .

هذه الصفات ، ويرون أنها المؤهلة للرياسة ، والرياسة يأتى تبعًا لها المال ، والسيطرة ، والإشباع ، . . .

وعلى ذلك :

فإنهم يرون فى نكاح الاستبضاع بلوغ الأهداف المنشودة فى النَّشْء : من حيث القوَّة ، والسيطرة ، والغلبة . . .

٥ – وقد شاعت فى مجتمعات الجاهلية ، وتردد على ألسنة الناس من يطلقون عليه أنه « زِير نسَاء » (١) .

وجاء فى معجم مقاييس اللغة ، مادة (زير) : « الزاى ، والياء ، والراء : ليس بأصل ، يقولون : « رجُل زِيرْ » : يحب مجالسة النساء ، ومحادثتهن . . . من : زار ، يزور فقلبت الواو ياء للكسرة قبلها ، كما يقال : هو حِدْث نساء ، قال فى الزِّير :

من يكنْ فى السِّوَاد ، والرَّدِ ، والإغرام ، فإننى غير زِيرِ »

وكان من المفاخر فى طباعهم المعكوسة – أن الرجل زِير نساء .

ومن ذلك يقول مهلهل : أخى كليب فى رثائه . . .

فلو سُئل المقابرُ عن كليب   فيخبر بالمقابر أىّ : زير ؟

لأن ذلك : يعنى النجابة ، والسؤدد ، والحكمة . . .

ومما ينسب لحاتم الطائى قوله :

رُبَّ بَيْضَاءَ ، فرعُهــا يتثنى   قد دعَتْنِى لوصْلِهَــا فأبيتُ

لم يكنْ بى تحرُّجٌ ، غيرَ أنِّى   كنتُ خِدْنًا لبْعلها فاسْتَحْيتُ

وبيتا حاتم يؤكدان ما قدمناه :

– من دعوة المرأة للمباضعة ، مع من يرتضى زوجها خَلْقَة ، أ خُلُقَه، أوهمامعا .

---

(١) انظر ١٩ / ٢٢٠ ، ٢٢١ فتح البارى بشرح صحيح البخارى .

– عدم تحرج زير النساء من المعاشرة ، والمبضاعة ، وقضاء المتعة الحرام ، لأنه لا يخشى مغبة ذلك ، إذ الدعوة من ورائها صاحب الغيرة على الحرمَ ، والحريم . . .

– ولعل المرأة لا تعلن عن حملها إذا حظيت عند الزِّير ، أوراقت عنده ، أو استراحت إليه ، وتستمر المباضعة حتى بعد حصول الحمل، المرغوب فيه ، وقد يساعد على ذلك – من تحقيق الإشباع – أن النساء كانت الصفة الغالبة عليهن النحافة ، ومعها قد لا تظهر **مخايل الحمل** إلا بعد فترةٍ ، تحقِّق للبغيَّيْن المتعة المحرمة [١] . . .

لم يرد حاتمًا دعوة المرأة الجميلة للمباضعة إلا الحياءُ من بعلها لرابطة الصداقة بينهما .

٦ – وهنا نقول :

على العفة ، وعلى النخوة ، وعلى الغيرة الواجبة في مثل ذلك السلام ، مادام هذا العمل الآثم يحقق النجابة المنشوة ، والقوة المأمولة ، التى يواجهون بها الحياة . . . كما يطيب لنا أن نقول : « جَزَى اللّٰه عنا سيدنَا محمداً (ﷺ) خير الجَزَاء .

٧ – والعجب الذى يجر إلى اعتصار القلب أسىً ، وحَسْرَة .

– كيف يحقق الحيوان المتعة للحريم ، وقد لمسُوها ، وردَّدُوهَا فى أشْعَارهم ، وتُهَدْر فى الذى كرمه اللّٰه تعالى ، وفضله على كثير ممَّن خلق تفضيلا . . . ؟

– كيف يقبل الرجل على وليده يشمه ، وبقبله ، ويربِّيه ، وهو يعلم أنه ليس له ، وأنه يحمل صفات ، وملامح زيرَ نِسَاء . . . ؟

– كيف يقبل على الضرب فى الأرض ، والجدّ فى العمل ، وعائد ذلك يئول إلى ولد ليس له فى الحقيقة . . . ؟

---

(١) من أراد المزيد فليرجع إلى كتابنا : المرأة عبر العصور بين هوان الجاهلية ، وعزة الإسلام – تحت الطبع .

– كيف يكون حال الزوجة المسكينة ، التى أُهدرَت كرامتُها ، وأزيلت عنها أخص صفات آدميتها بأن تكون تحت من لا ترتبط به بكلمات الله ، وتحت ستره الساتر ... ؟

– كيف تقبل على زوجها – بعد ذلك – وقد ذاقت عُسَيْلَةَ من هو أقوى منه جسْمًا ، وأتم عقلا ، وحكمةً ... ؟

– أين قِوَامة الرجل ، وقد أهدرها بيده ؟ وهل يمكن أن تقتنع به – بعد ذلك ؟ – وقد يتكرر ذلك فى الحياة الزوجية بغية الوصول إلى النجابة ، ونسل النجباء .

٧ – **ويعلل لما تقدم الحديث الشريف** – فى طباعهم المعكوسة ، فيقول :

« ... وإنما يفعَل ذلك رغبة فى نَجَابَة الْوَلَد ... » (١) .

ويقول الإمام ابن حجر : « ... اكتسابًا من ماء الفَحْل ؛ لأنهم كانوا يطلبون ذلك من أكابرهم ، ورؤسائهم : فى الشجاعة ، أو الكرم ، أو غير ذلك » (٢) .

٨ – **وإذا قوَّمنا هذا العمل المشين** من زاوية القوَّة المنشودة ، والحكمة المأمولة فإننا **نقول** :

إن هذا العمل الشائن ، المشين إن كان ينْشَد فى مستقبل الحياة فى نشءٍ حرام فإنما يفتقدها ، ويقضى عليها فى الحال ...

وذلك : لأنهم إذا وضعوا أقوياءهم ، ورؤساءهم ، وأصحاب الحل ، والعقد فيهم فى هذه الأوضاع الشائنة فإنهم يستهلكونهم ، ويجلبون لهم الوهن ، والضعف ، والأمراض ، والأدواء من اللائى يمارسون معهن المتعة الحرام ...

وتكون العاقبة ضُرّاً ، إذ قد يفقد الجسيم جَسَامَته ، والقسيم

---

(١) ١٩ / ٢٢١ فتح البارى ...

(٢) ١٩ / ٢٢١ فتح البارى ...

قَسَامَتَه ، والوَسيم وسَامَتَه ، والحكيم حكمتَه ، وكياسَة مع الممارسات المنكرة ، والاستبضاع الدائم . . .

ومن ناحية أخرى : كيف يكون حال هؤلاء – مع زوجاتهن – اللائى يعلمن عنهم كل شىء ، وما تنتظره الزوجة من زوجها – تحت ستار الزوجية – يذهب إلى غيرها فى عادات ذميمة ، ومتع حرام . . . ؟

ثم كيف يكون شأن الذرية الناشئة من ماء حرام ، والحرام لا ينبت الخير ، ولا يكون حصادهُ إلا الحنظل ، والمُرَار . . . ؟ .

وفى نهاية الأمر : كيف يكون النسيج الاجتماعى ؟ وما حال العلاقات الاجتماعية التى لم تقم على أساس سليم . . . ؟ وغير ذلك .

وحصاد ما تقدم : أرحام مقطوعة ، ودماءٌ سائلة ، وغارات لا تنقطع ، ونارات لا تنتهى .

ومما هو قريب الشبه بالنكاح المتقدم ، شَبَه الليل بالليل ، والغُرَاب بالغُراب :

النَّوع الثالث من النكاح :

وفى الحديث المتقدم : « . . . **ونكاح آخر** :

يجتمع الرهط ما دون العشرة ، فيدخلون على المرأة ، كلُّهم يُصيبها ، فإذا حملت . ووضعت ، ومر ليال بعد أن تضع حملها أرسلت إليهم ، فلم يستطع رجل منهم أن يمتنع حتى يجتمعوا عندها .

تقول لهم : قد عرفتم الذى كان من أمركم ، وقد ولدت ، فهو ابنك يا فلانُ ، تسمِّى من أحبَّت باسمه ، فيلحق به ولدها ، لا يستطيع أن يمتنع به الرجل » (١) .

وخلاصة هذا النوع من النكاح المشين :

---

(١) ١٩ / ٢٢١ فتح البارى .

- هذا النوع من نكاح الجاهلية يتم عن تراض من أطراف : المرأة البغيّ ، الراغبة فى المتعة الحرام ، والإنجاب منها . . .

كما يتم بين الرهط ، ويكون ذلك عن تواطؤٍ منها ، ورضا منهم . . .

- كذلك : لابد من مباركة ولى أمر المرأة من أب ، وغيره . . .

- ولكل فرد من أفراد الرهط الحق فى نكاح الراغبة فى ذلك . . .

- **ولعلّ ذلك** : يكون مستمرًّا ، وبواحًا ، حتى يتبين حملها . . . وتضعه . . .

- عند وضع الحمل ، ومرور ليال ترسل إليهم جميعًا ، فلا يستطيع رجل من الرجال أن يمتنع ، وتلك عادتهم . . .

فإذا اجتمعوا عندها تقول لهم : قد عرفتم الذى كان من أمركم ، تريد الوطء ، ووضع الشهوة الحرام ، فى رحم مشترك . . . وتقول : لقد ولدت وهو ابنك يا فلان ، أو هى ابنتك يا فلان ، وهذا فى النادر من الأحوال ، لكراهة البنات عندهم ، إذا لم يتم وأدها : دفنها حية فى الرمل، أو التراب .

ويقول ابن حجر : « . . . لكن يحتمل أن يكون لا تفعل ذلك إلا إذا كان ذكرًا ، لما عرف من كراهتهم فى البنت ، وقد كان منهم من يقتل بنته ، التى يتحقق أنها بنت ، فضلا عمَّن تجيء بهذه الصفة » (١) .

وتعقب هذا النوع من النكاح يجيء كسابقه ، **ونجمل ذلك فى الآتى :**

(أ) إهدار كرامة المرأة ، التى نَزَلُوا بها عن مرتبة الحيوان : فعند الحيوان يتم التلقيح فى وقته ، ومع الحاجة إليه فقط ، ومن ذكر واحد . . .

(ب) التَّدَنِّى إلى صفات أدنى من صفات الحيوان ، والتخلى عن أدنى صفات الإنسانية . . .

---

(١) ١٩ / ٢٢١ فتح البارى . . .

(جـ) التواطؤ المشين على جرم ، ونكير من امرأة رضيت بالذِّلَّة ، والهوان ، ومن رجال وضعوا نور أعينهم ، ومخ سوقهم فى رحم مشترك ، لا يُدْرَى ماذا ينجم عنه ، ولا يعلم ما يحلق به ، ولا من يلصق به . . . ومن ولى أمر ، تخلى عن نخوته ، وفقد غيرته ، وكرامته . . .

(د) يئول إلصاق الولد إلى من ارتضته المرأة ، لِخَلْقه ، أو خُلُقه ، **وهو عود إلى النوع الثانى من النكاح** . . . واختيار الأمثَلَ ، لفحولته ، ونجابته . . .

(هـ) إلصاق الولد بأحد الرجال لا يكون اختياراً نابعًا عن علم ، أو خبرة ، وإنما هو اختيار قائم على الانتقاء ، والإعجاب ، والرغبة فى أحد الرجال . . .

(و) وفيه تترك الأنثى المولودة للضياع ، أو القتل ، أو الوأد ، . . .

وفى جميع ما تقدم ما فيه :

من ذهاب النخوة ؛ وضياع الكرامة ، وعدم ضبط الأنساب ، وترك الأمور للهوى المُرْدى ، والضَّلاَل البعيد . . .

وإن المجتمعات التى تقوم على مثل ذلك : لا تضمن نموًّا ، أو تنمية ، أو استقراراً ، أو عزَّة فى مستقبل أيامها . . .

أما النوع الثالث من النكاح الشائع فى الجاهلية :

فإنه نكاح البغايا ، اللاتى ينصبن على أبوابهن رايات ؛ لتكون الرايات علما لمن أراد البغاء ، وجرى خلف البغايا . . . وطلب المتعة الحرام . . .

وعند الولادة من الماء المشترك بين الرجال يدعى الْقَافَة ، الذين يعرفون شبه الوالد بالولد بالآثار الخفية ، وألحقوا الولد بمن يلحقونه به ، ولا يمتنع الباغى من ذلك ، ويدعى ابنه . . . (١) .

---

(١) ١٩ / ٢٢١ ، ٢٢٢ فتح البارى . . . .

وتقْوِيمنا لهذا النوع من النكاح :

– أنه إن شابه ما تقدم فى الاستهتار ، والجرأة ، والتسيب ، ومجافاة النواميس الشرعية فإنه يختلف عنها فى أنه أوسع دائرة فى انتشار السوء ، وتشتت الرجال .

– أنه لا ضبط فيه من ناحية البُغَاة . . .

فالبغىّ لا ترد أحداً يطلب المتعة الحرام ، ولو كان ابن سبيل ، ولا يمكن مع ذلك أن تَحْصُرَ أعداد الذين تردَّدُوا عليها ، ولا أن تتعرف على مواطنهم . . .

وبذلك : تكون عملية إلصاق ثمرة البغاء إنما تقوم على حدس ، وتخمين . . .

والقافة : الذين يؤخذ برأيهم فى هذا الشأن لا يصدرون عن علم تجريبى ، معملى ، محقق ، وإنما يتم عملهم عن حدس ، وتخمين ، . . .

– ما يترتب على ما تقدم : إنما هو الشك ، والضياع ، والعلاقات التى تبنى على ما تقدم إنما هى علاقات بنيت على شفا جرف هار : فلا ثبات لها ، ولا بقاء ، ولا احترام . . .

ومما تقدم نحكم على أهل الجاهلية الجهلاء بأنَّهُم قد انحطوا عن دركات الحيوان فى أعز ما يحرص الشرع الحنيف على رعايته ، وتبيانه ، وأن هذا التشريع إنما هو حدود الله تعالى ، وإنما هى دعوة للحياة الحقة ، التى قننها الله تعالى لمن كرمه ، وفضله على كثير ممنّ خلق تفضيلا . . .

أما النوع الأوَّل من النكاح :

فقد تناوله الحديث الشريف ، وهو : « . . نكاح الناس اليوم : يخطب الرجل إلى الرجل وليته ، أو ابنته ، فيصدقها ، ثم ينكحها »[1] .

وهذا النوع من النكاح : هو الذى يساير الحياة الحقَّة ، النَّظيفة ،

---

(١) ١٩ / ٢٢٠ فتح البارى . . .

الطاهرة ، التى تبنى على طُهْر ، ويأتى ثمرة لها الطُّهْر ... وبه تتم العلاقات الحقَّة فى المجتمعات ، وتسير الحياة سيرها المنظم ، الطاهر ، الذى يوصل إلى سعادة الدنيا ، والآخرة ...

وهذا النوع مستمدٌّ من إثارة من علم ، وحكمة ، وتشريع من الرسل السابقين ، ومن الفطرة النقية ، التى فطر الله الناس عليها ، وجعلهم بها يبلغون رُشُدَهُم ...

وهذا النوع من النكاح ، وهو النوع ، الذى يبنى الأجيال البناء السليم ، ويقيم صُرُوح الحياة على قواعد صُلْبة ، ويعدل سلوك الأفراد ، والجماعات ، ويقيم النَّسب الصَّريح ، الصحيح ، غير المشكوك فيه ، ويقيم أواصَر الحُبّ ، والمودة على طهر ، وعفاف ، وسلامة ، ونقاء ...

وهذا النوع يحقق موازين الله تعالى العادلة فى الكون ، ويقيم نواميسهُ ، وسننه التى لا تتخلف ، ولا تتغير ، ولا تتبدل ...

فموازين الله (عز وجل) العادلة فى الكون تقوم على مزَاج من الخير، والشر ، والدَّنس ، والنظافة ، والإيمان ، والكفر ، والصلاح ، والطَّلاَح ، والظلمة ، والنور ، ... وغير ذلك .

من أجل أن يَبْلُونَا : أيُّنَا أَحْسَنُ عملاً ، وأقوم طريقًا ، وأنصح نقاءً ، وأقوم قِيلا ... ؟ ليكون الجزاء العادل فى يوم الدين ...

وهذا النوع من النكاح الطاهر : هو الذى تم بالنسبة للأنبياء ، والمرسلين جميعا (حاشاهم أن يولدوا من سفاح الجاهلية) ...

ولقد حفظ الله (عز وجل) نُطَفَ آبائهم ، وصان أرحام أمهاتهم ؛ لأنه يعلم : علم إحاطةٍ ، وانكشاف - أنهم المصطَفَوْن من الخلق ، والمختارون للوحى لهداية الخَلق ، بالتبليغ ، وبالقُدْوَة .

وما أعظم الله (عز وجل) حيث يقول : « الله أعْلَمْ حيْثَ يجعلُ رسَالَتَهُ ... »(١) .

---

(١) من الاية ١٢٤ من سورة الأنعام .

ولا يضعها إلا فى من نشأ على فراش طُهر ، وتربى على صدق ، وعفاف ...

ونحن لا نفرق بين أحد من رسله : فالعبرة فى هذا المقام بعموم اللفظ ... **وما أعظم** الرسول الأمين حيث يقول : « وُلِدْتُ من نكَاحٍ ، ولم أُولَدْ من سِفَاحٍ ... ولم يُصبْنى من سفاحِ الجاهلية شَىْءٌ ... » (زادهُ الله تشريفا ، وتعظيما ...)

وهناك ألوان من النكاح الجاهلى كانت موجودة ، لكنها لم تكن منتشرة انتشار الأنواع الأربعة المتقدمة .

وذلك ما يلى :

١ - **نكاح الخِذْن** ، وكانوا يقولون عنه : ما استتر فلا بأس به ، وما ظهر فهو لَوْم . وقد أبطله الإسلام بقوله تعالى : « ولا متَّخِذَاتِ أَخْدَان »(١) .

٢ - **الثانى : نكاح المتعة** ، وقد أُحِلَّ فِى وقت دعت إليه الحاجة ... ثم حُرِّمَ إلى يوم القيامة (٢) .

٣ - **نكاح البدل** : كان الرجل يطلب من الرجل ، أن ينزل له عن امرأته ، وأن ينزل له الثانى عن امرأته ، ويزيده الأول ...

وهذه الأنواع مجافية للأخلاق ، منافية للآداب ، بعيدة عن النواميس الإنسانية الطبيعية ...

وقد أبطل الإسلام جميع ما تقدم ، عدا نكاح المتعة ، التى أُحِلَّ ؛ لِرَواعٍ ، ثم حُرِّمَ إلى يوم القيامة .

وعلينا - بعد ما تقدم - أن نشير فى عُجَالة - إلى الزواج فى الإسلام، حتى يتبين الحق ، والباطل ، ويُمَاز الخبيث من الطيب ، وتعرف الظلمة، والنُّور، والحياة الفاضلة ، والحياة الماجنة إذ بضدها تتميز الأشياء ، وذلك فيما يلى :

---

(١) من الآية ٢٥ من سورة النساء .

(٢) انظر شتى الآراء فى ١٩ /٢٠٧، ٢٠٨، ٢٠٩ فتح البارى بشرح صحيح البخارى .

الْفَصْلُ الثَّاني
الزواج فى الإِسَلاَم

تمهيد :

الرجل نصف ، والمرأة نصف ، وهما معًا – فى ظل عُشٍّ طُهْرٍ سعيد – بكلمات الله ، وإذنه – يعمران الكون ، وتُعَاد مسيرة الحياة ، وتستمر إلى غايتها المنشودة ، وأجلها المُسَمَّى . . . ومنهما ، ومن ذريتهما يتم الاستخلاف فى الأرض ، وتكون عمارة الكون ، وسعادة الحياة . . .

من أجل ذلك : كانت الأسرة ، فى الجنَّة ، وهى الأسرة الأولى ، ثم هبطت إلى الأرض ، التى منها أصلِ الخلقة ، والجانب المادِّىّ منها ، وعليها الحياة ، وهى كِفَاتٌ للخلق : أحياءً ، وأمواتًا ، واليها يعود جميع الخلق ، ومنها نُخْرَج تارة ، أخرى ، ليكون الجزاء ، ولتستمر حياة النعمة ، أو حياة الشقاء . . .

ولما كان للأسرة هذا الدَّوْرُ الهامّ ، فقد أحاطها الله (عز وجل) بكامل الرعاية ، ولم تفارقها العناية ، ولم ينقطع عنها فيض السماء : الرّوحى ، والمادىّ . . . لقد تفرَّد رَبُّ العزة (جل ، وعز) بالوحدانية ، وخلق من كلٍّ زوجين اثنين ، وأعطى كل شيء خَلْقَهُ ، ثم هدَىَ : أى : أعطى كل جنس ، ثم هداه للتودد إليه ، والألفة معه حتى تتم دورة الحياة . . . وما به يكون استمرارها .

ما أعظم الله (عز وجل) ! فقد عرض الآمانة على السماوات ، والأرض ، والجبال فأبين أن يحملنها ، وحملها الإنسان إنه كان ظلاَّما لنفسه ، جَهُولاً بما يئول إليه أمره . . .

أما الأجرام العظيمة الأخرى ، والأحياء عليها ، وعلى ما يسكن فيه منها ، فإنها فوَّضت ، وسلَّمت الأمر لمن يعرج إليه الأمر ما بين السماء ، والأرض ، وتخلت عن تدبير أنفسها إلى تدبير الله (عز وجل لها) فدبَّر

لها أمرها أتمَّ تَدْبير ، ورعاها أكمل رعاية ... وهى دائمة الشكر بالتسبيح، والتعظيم ...

انظر إلى الماء مثلا ، والأحياء المائية به ، والماء أكبرُ مساحة ، وأحياؤه أعظم عَدَدًا، فإنك لن ترى من خلاف، وإنها لتعيش فى انسجام ، وألفة (فى إشباع ، وشِبَع . إلا ما جعل منها طعامًا لغيره ... وذلك تقدير العزيز العليم ...

وعلى الله (عز وجل) رِزْقُها ، وهى أمم أمثالُنَا ، ولها حياتها المنظمة الخاصة ، والله يعلم مستقرَّها ، ومستَوْدَعَها ...

وإنه (تبارك ، وتعالى) فى ذلك لينظم لها أمور التناسل : الأقوياء مع الأقوياء ، والضيعف يتنحى « سنّةَ الله ، فى الذين خلوا من قبل ، ولن تجد لسنة الله تَبْديلاً » (١) .

وخذ مثلا آخر :

غابة من غابات أرض الله ، وفَكِّر مَليًّا

فإنك تجد :

- كمَّ الماء النَّازِل على هذه الغابة من السماء ، وهو المطر بقَدَر معلوم، وبحساب معلوم ، وبوزن معلوم ، وذلك تقدير العزيز العليم .

- الأعشاب التى تنبت ، وتزدهر من هذا الماء على قدر معلوم ...

- أكلة الأعشاب التى تعيش على رعى تلك الغابة بتقدير مُحْكَم : فلا تجوع واحدة ، وإنما تطعم مما أنبته الله تعــالى ، وما فى الغابة من عشب ، وشجر .

- يعيش فى هذه الغابة من أكلة اللحوم ، ومن الضوارى ما به يتم التوازن بين الغابة ، وما تنبت ، وما يعيش على خير الله (عز وجل) فيها...

---

(١) من الآية ٦٢ من سورة الأحزاب .

- توزيع سباع الوحوش ، والطيور بوزن معلوم : حيث لا تجوع الوحوش ، والضوارى ، ولا تتزايد أكلة الأعشاب إلى حد لا يتيح لها الوفاء كاملا بمطالبها . . .

- توزيع القوىّ ، والقنص بين أسد ، وزوجته ، تقوم الزوجة بالصيد ؛ لخفتها ، وسرعة جريها ، وتدع المائدة لملك الغابة : زوجها يطعم منها ما يشتهى ، ثم تطعم ، وتطعم أشبالها ، ثم يَتْرَك الباقى لأكلة اللحوم ، والجيف ، من سباع الوحوش ، والطيور . . .

- ثم يأتى دور الضِّبَاع : حيث تأتى على العظم ، وتلحس الدم ، وتنظف المكان ، ويعود كل شيء لنظافته ، وقد شبعت أكلة اللحوم . . . وتم التوازن . . .

كل ذلك : بتقدير محكم ، ووزن دقيق من حيث : العدد ، والتوزيع . . . ونيل المطالب ، وبذلك يتحقق موعود الله (عز وجل) : «وَمَا منْ دابَةٍ فى الأرْضِ إلاَّ عَلَى الله رزْقْهَا ، وَيَعْلَمْ مُسْتَقَرْهَا ، ومستوْدَعَها» (١) .

وهنا نصل إلى نقطة تأمل :

فالتى تصطاد ، وتقتضى - فى الأعم الأغلب - هى أنثى الأسد ؛ لقوتها ، وخفتها ، وسرعة جريها . . .

وقد يتم ذلك : بزئير ، أو بحاسة شم قوية ، وبنذير ، أىّ : نذير ، يجعل أكلة الأعشاب تجرى ، هائمة على وجهها ، حيث تلتمس النجاة ، والرغبة فى الحياة غريزة تدفع أكلة الأعشاب إلى شيء من التجمع ، مع قوة الجرى ، وسرعته أملاً فى النجاء .

وهنا : يتخلف عن القطيع الهزيل ، والضيف ، والمريض ، فيقع فريسة لأكلة اللحوم ، وفى ذلك لطف من الرحمن الرحيم يتجلى فى :

---

(١) من الآية ٦ من سورة هود .

- هلاك الضعيف ، والضعيفة ، والهزيل ، والهزيلة . . .

- هنا : لا تفارقها رحمة الله (عز وجل) إذ نرى الوحش القانص يعمد إلى عُنقُ ما وقع فريسة ، ويعض العنق ، ويلوى الرقبة بقوة ، حيث تنكسر العظام، وينتهى الإحساس بالألم للفريسة، بعد قطع نخاع العظام.

- **وتكون النتيجة** : شبع الوحوش ، والضوارى ، والطيور الجارحة من اللحوم ، والقضاء على الضعيف ، والضعيفة ؛ ليبقى القوى ؛ لينتج جيل الأقوياء . . . وهذا تقدير العزيز العليم .

وإنك لتلمس ذلك : فى عوالم أخرى - فى فصل التزاوج ، حيث يتم التنازع على الإناث ، وتبدى الذكور قوتها ، ثم تتنازل للأقوى منها ، وتترك له الإناث ، وفى ذلك لون من ألوان زواج الأقوياء ؛ **لجيل الأقوياء .**

وتتمة لذلك نقول :

حينما قالت السماء ، والأرض لله (عز وجل) « أَتَيْنَا طَائِعِين » (١) دبَّر لها تدبيراً محكما ، هو تدبير الذى خلق كل شىء ، فأحسن خلقه « فَتَبَارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ » (٢) .

وحينما حمل البَشَر الأمانة ، « وحَمَلَها الإنسان إنه كَان ظَلُومًا ، جَهُولاً » (٣) كرمه الله تعالى بالعقل ، وهداه النجدين ، ومدّه بالشرائع المحكمة . . .

فمن قال لربه (عز وجل) « سمعتُ ، وأَطعْتُ » أعانَه ، ووَفَقَهُ ، وهدَاه إلى التى هى أقوَم ، فآمن ، واتبع الشرائع الحكيمة . . .

ومن قال : « سَمِعْنَا ، وعَصَيْنَا » (٤) وكَلَهُ إلى نفسه ، فتخبط ، وضلَّ سواء السبيل .

---

(١) من الآية ١١ من سورة فصلت .

(٢) من الآية ١١ من سورة المؤمنون .

(٣) من الآية ٧٢ من سورة الأحزاب .

(٤) من الآية ٩٣ من سورة البقرة .

وقد نظم الله (عز وجل) لعباده : الزواج الطاهر ، الذى تكون ثمرته الذرية الطيبة القوية ، التى يكون لها القدرة على خلافة الله تعالى فى الأرض . . . وحمل الأمانة ، وازدهار الحياة . . .

وهنا نأتى على مقصودنا الأسمى ، وهو :

الزَّوَاج

وفى هذا الصَّدَد – إن شاء الله تعالى – نلقى الأضواء على الجوانب الهامة الآتية : **أَوَّلاً : الزواج :**

عَقْد يُفيد حلّ العشرة بين الرجل ، والمرأة ، وتعاونهما ، ويحدّد ما لكل من حقوق ، وما عليه من واجبات .

ومن هذا التعريف : تظهر لنا ماهيَّة الزواج ، وأنه ، مع إباحة المتعة يشير إلى التبعات التى تترتب على العقد ، ويُشير إلى ما على كلٍّ منْ طَرَفى العقد قِبَلَ صاحبه ، وحمل أعباء الحياة المستقبلية ، وتربية الأجيال . . . وإعدادها للتفاعل المثمر مع الحياة ، ولأداء دورها فيما بعد . كما يشير إلى أن الزواج رابطة قوية ، ونظام اجتماعى ، يرقى بالإنسان عن دائرة الحيوانية إلى العَلاَقة الروحية . . .

ونجمل ، ونوجز مزايا الزواج ، ومقاصده فى الآتى :

(أ) الترويح عن النفس الكادحة ، المكدُودة فى البحث عن الرزق فى خبايا الأرض ، وتحويل ذلك إلى مطعوم ، ومشروب ، وملبوس ، ومسكون . . .

(ب) الأسرة : عماد النظام البشرى ، والأسرة الطيبة ، عماد المجتمع الفاضل ، الناجح ، . . .

(جـ) بالزواج تتكون الصفات السامية الراقية للإنسان ، كالإيثار ، والحب ، والمودة ، والرحمة ، والتعاون . . . كما تتوارى النزعات الخبيثة : كالأثَرَة ، والظلم ، والتباغض . .

(د) حفظ النوع الإنسانى – فى طُهْر ، وعفَّة – لينطلق هذا النوع

بالتناسل الشريف ، القوىّ إلى عمــارة الأرض ، والنهوض بالحياة ، والأحياء . . .

وذلك : لأن الزِّنَا لا يحفظ النوع الإنسانى من الانقراض ، وإن حفظه من حيث النوع ، فإنه يكون فى ظل حياة مفككة ، مضطربة ، تموج بالرذائل ، وتنذربا لشرور . . .

(هـ) فى الزواج المتعة ، والسكن ، والمودة ، والرحمة لكل من الزوجين . . . **فالزوج** مطمئن إلى من تمسح عنه عرقه ، وتزيل تعبه بياض نهاره فى دأب ، وعمل ، وعرق . . . **والزوجة** مستريحة إلى من يعنى بأمرها ، ويوفر لها السعادة ، والهناءة ، وهما معا ينسجان نسيج السكن . والمودة ، والرحمة فى عشٍّ الزوجية ، ويعنيان بصغار ، لا تعلم من أمر الحياة شيئا ، وإنما تتلقى اللغة ، والدين ، والقدوة ، وأساس السلوك ، وتكوين الضمير ، من هذا العش ، السعيد ، **وبهذا الزاد** : يدخل الناشىء وتدخل الناشئة إلى تفاعل أرْفع من المجتمع الصغير ، والكبير ، والأكبر ، مما يتيح التفاعل المثمر الخلاق مع المجتمعات . . .

(و) **الزواج** : يحقق دواعى العقل ، فى استمرار الذكر الصادق بعد الوفاة ، ببقاء نسله ، وامتداد عرفه ، كما يحقق دواعى الطبع من حيث : قضاء الْوَطَر ، والإشباع ، وشفاء الغُلَّة وراحة النفس للزوجين ، كما يحقق دواعى الشرع ، ويكون تطبيقا لما ورد فى الشرع الحنيف من آيات ، وآداب . . .

ومن ذلك كله :

جاء قول الرسول الأمين : « يَا مَعْشَرَ الشَّبَاب ، مَن اسْتَطَاعَ منكُمْ الْبَاءَةَ فليَتَزَوجْ ، فإنه أغضُّ للبصر ، وأَحْضَ للفرج ، فإنْ لم يَستطع فعلَيْهِ بالصَّوْم ، فإنه لَه وِجَاء » (١) .

وجاء الترغيب فى **ثمرة الزواج** ؛ لاستمرار العشرة ، وهناءتها ،

---

(١) ١٩/١٢٨ ، . . . ١٣٥ فتح البارى . . .

وامتداد مسيرة الحياة إلى غايتها فى قوله العظيم : « تَزَوَّجُوا الوَلُودَ ، الوَدُودَ فإنى مكاثِرٌ بكمُ الأُمَمَ . . . » وقوله العظيم الذى يعد دستور الحياة الراضية ، الهائنة . . .

« . . . لكنى أصوم ، وأفطر ، وأصلى ، وأرقد ، وأتزوَّج النسَاء ، فمن رغب عن سنتى ، فليس منى » [1] .

من ذلك ، ومن غيره : مما يرغب فى الحياة الزوجية الطاهرة ، القوية ، واستمرار القُوَّة فى النسل إلى يوم القيامة . . .

وهذا القَبَس الذى ينير ظلمات الحياة من الدستور السماوىّ ، فمَّن خَلَقَ ، ويعلم مَنْ خَلَق ، وهو اللطيف الخبير .

من قول ربنا (عز وجل) : « نَسَاؤُكُم حَرْثٌ لَكُمْ . . . » [2] :

وهذا التنزيل العظيم ، الذى يساير الفطرة التى فطر الله الناسَ عليها،ويريح النفس الراغبة فى جنسها ، ويوائم ما ركّب فى المخلوقات من شهوة ، هى أساس عمارة الأرض بمن يزيل عنها وحشتها،ويؤنسها بحركته عليها ، وانتشاره فوقها . . . مع بيان المقصود الأسمى ، والهدف الأعظم من الزواج ، وهو النسل ، الذى يعمر الأرض ، ويخرج منها ما خلق الله (عز وجل) لنا فيها ؛ لسعادتنا ، وإشباعنا ، ورمتنا – بالوفرة ، والثراء . .

فالزوجة حرثٌ ، والزوج حارث . والله (عز وجل) منْبتٌ ، ومصوِّر « يُصَوِّرُكُمْ فِى الأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ . . . » [3] .

وجميل ما جاء فى صفوة البيانْ : « . . . **والمراد** : أنهن مواضع حرث ، أى : هن مزرع لكم ، ومنبت للولد ، أعدهن الله لذلك » [4] وأنتم أيها الرجال تضعون البذرة .

---

(١) ١٩ / ١٢٦ فتح البارى . . .

(٢) من الآية ٢٢٣ من سورة البقرة .

(٣) من الآية ٦ من سورة آل عمران .

(٤) ص ٥٤ صفوة البيان . . .

ومما تقدم يمكننا أن نقرر – فى غير تحرج – :

أن المقصد الأسمى لكل من الزوجين – بعامة – وفى الجنس البشرى – بخاصة – : الإنجاب ، وجاء التدرج له : بالميل الفطرى بين الجنسين ، ثم بالرغبة العارمة مع المراهقة ، ثم استمرار الرغبة – بعد – ذلك كله : للإنجاب . . .

ثانيا :

الإسلام :يضع الدساتير ، والوصايا لزواج قوى لنشأة أجيال قوية :

شاءت حكمة الله (عز وجل) أن يخلق مَن استخلفه فى أرضه منها ، وأن يجعل حياته ، عليها ، وما به استمرار حياته من خيراتها ، ولم يجعل هذا المستخلف ملَكًا ، لا يحتاج إلى طعام ، أو شراب ، أو مسكن ، أو غير ذلك ، كما لم يجعله من الجنّ يعيش على حضارة غيره من الإنس ، وما يختطفهُ ، أو يختلسه من خيرات الأرض .

وإنما خلق البشر من أجل الحياة على الأرض ، واستخراج خيراتها ، وبَارَكَ فيها ، وقدَّر فيها أقواتَها ، كما بارك فى الماء الصاعد منها ، والنازل مطرًا عليها ، وما أودعه فى الشمس من سر الحياة ، **وربطَ الجزاءَ الأُخروىِّ** با لعمل الدُّنيوىّ الدءُوب على الأرض . . .

ومن ذلك : فإن الخلاَّق الرزَّاق أودع فى كونه فى الشمس ، والأرض ، والماء . . . ما يقوم عليه أمر الأحياء ، والحياة . . .

وجميع ذلك : يحتاج إلى عمل من الإنسان أوجبه ربّ العزة حيث قال : « . . . أنْشَأَكُمْ مِنَ الأرْضِ ، واستعمركُم فِيهَا » [١] أى : أوجب عليكم عمارتها ، حتى يتحقق موعود الله (عز وجل) فى الرزق « ومَا مِنْ دَابَّةٍ فِى الأرْضِ إلاَّ عَلَى اللهِ رِزْقُهَا . . . » [٢] .

وجعل الكون متكافلا ، يخدم بعضه بعضا ، ويُعين بعضُه بعضًا

---

(١) من الآية ٦١ من سورة هود .

(٢) من الآية ٦ من سورة هود .

... ويطعم بعضه بعضًا ... ما تقدم من عمارة الأرض ، والانتفاع بخيراتها إنما يقع على عاتق البشر ، وماعدا البشر مذلَّلٌ ، مسخَّر ، لخير البشر ، ولعمارة الكون ...

وذلك : إنما يحتاج إلى القوة : الذهنية ، والجسمية ، وذلك إنما يناط بالبشر ، وإنما يتأتى ذلك بالزواج الطاهر ، والتناسل العفيف ، القوىّ ...

فالكون قوىّ ، وتحويل ما فيه إلى منافع يحتاج إلى القوة الجسمية ، والعقلية ...

من أجل ذلك : جاءت جميع الشرائع تنشد القوَّة ، وتكْسبْهَا ، وتُوصِي بهَا ، وتُظْهِر أسبابها ، وجماع الشرائع كلها قد اشتملت عليها شريعة الإسلام السَّمْحَاء .

ومن ذلك : تأتى مفاضلة الرسول الأمين : « المؤْمنُ القوىُّ خيرٌ ، وأَحَبُّ إِلَى اللهِ مَن المؤمنِ الضَّعِيف ، وَفِي كلٍّ خَيْرٌ ... » .

فكلا المؤمنينْ فيه الخير ، والتفاضل بينهما بالقوَّة فى جميع مجالاتها، فهى مرغوبة لعمارة الكون ، وإخراج خبرات الأرض ، وركازها، ووجوه الإفادة مما خلق لنا الله (عز وجل) فيها ... والمواءمة بين شتى العناصر ، والرقى بشتى نواحى الحياة ...

ولقد عنى الإسلام بالأسرة ، التى يأتى منها التناسل : إذ فى قوتها تكون قوة المجتمعات ، والأناسىّ ، وبضعفها يكون العكس .

ونوجز ذلك فى الآتى :

(أ) الأسرة قبل التكوين :

كما أحاطت عناية الله تعالى أبا البشر ؛ آدم ، عماد أول أسرة : إذ خلقه بيديه ، ونفخ فيه من روحه ، وعلمه الأسماء كلها ، وأحاطه برعايته الحانية الأم الأولى : حوّاء ...

فقد امتدت قوامة قيُّوم السماء ، والأرض ، وشملت رحمته كل

الأسر إلى يوم القيامة ... وجاء الإسلام ، وفيه خبر من قبلنا ، ونبأُ من بعدنا ، وجاءت معه العناية - كل العناية - بالأسرة ، التى هى أساس المجتمع ، والمجتمعات ، والوجود البشرىّ ...

وقد وضع الإسلام أساس اختيار : موضع الحرث ، والإنبات : الزوجة الصالحة ، الطيبة ... قال (عز من قائل) : « ... ولأمَةٌ مؤْمِنةٌ خيرٌ منْ مشركَةٍ ، ولَوْ أعْجبتْهُ » (١) .

وهذا توجيه علاَّم الغيوب : وقد جعل أساس العشرة الطيبة ، والأسرة الفاضلة أن يكون الأساس ، مبنيا على الإيمان بالله (عز وجل) إذا الخير كله ينبثق من هذا الإيمان ... والإيمان الحق أساس الصلاح الحق ، ويأتى الأمر الإلهى بتزويج الصالحين ، والصالحات ، ويكون أساس الاختيار الصلاح ، ويأتى الوعد الكريم من رب كريم بالغنى للصالحين ، والصالحات فى قوله العظيم : « وأنكحُوا الأيامَى منكُمْ ، والصَّالحينَ من عبادكُم ، وإمائِكم إنْ يكُونُوا فُقرَاءَ يُغْنِيهِمُ اللهُ من فَضْلِه ، والله وَاسِعٌ عَليمٌ » (٢) .

وفى صفوة البيان : « الأيامى : جمع أيِّم ، وهو كل ذكر لا أنثى معه ، وكل أنثى لا ذكر معها : بكرًا ، أو ثيبًا ، والأمر للأولياء ، والسادة ... أى : زوجوا من لا زوج له من الأحرار ، والحرائر ، ومن كان فيه صلاح ، وخير ، من عبيدكم ، وإمائكم .

والمراد من الإنكاح : المعاونة ، والتوسط فى النكاح ، والتمكين منه »(٣) .

ومن ذلك نقول :

الإيمان أساس كل خير ، والصلاح عمل بموجب الإيمان ، وتثبيت له فى القلب ، وصلاح الزوج يتبعه صلاح الزوجة بالقدوة ، والعشرة ،

---

(١) من الآية ٢٢١ من سورة البقرة .

(٢) الآية ٣٢ من سورة النور .

(٣) ص ٤٥٢ صفوة البيان ...

وصلاحهما معا يأتى تبعا له تكوين الضمير الحى ، وغرس الإيمان ، وتنمية الصلاح فى الأولاد ، والبنات ، وذلك : الأساس الحق للأسرة الفاضلة ، وتربية الضمير ، وتوجيه السلوك ،وتكوين الاتجاهات ..

ويأتى قانون السماء المحكم لمن **أراد الزوجة الصالحة** ، ولمن **أرادت الزوج الصالح** ... وذلك فى قوله تعالى : « الخبيثَاتُ للخبيثينَ ، والخبيثُون للخبيثات ، والطَّيبَاتُ للطَّيبِّينَ ، والطيبُون للطَّيِّبَات » [1] .

وجميل قول جار الله : « ... الخبائثُ يتزوجْنَ الخِبَاث ، والخِبَاث : الخبائث ، وكذلك أهل الطيب ... » [2] .

وذلك إنما يتأتى من جهة القَصْد ، فالشبيه ينجذب إلى الشَّبيه ، كما قيل : « وشبْهُ الشيءِ منجذبٌ إليه » فكلٌّ يختار الملائم له ، كما يتأتى من ناحية عون الله تعالى لكُلّ أن يختار شبهه ، وأن يوفق إليه ، إذا القلوب بين إصبعين من أصابع الرحمن يقلبها حيث شاء ...

فمن أراد طيبة ، فليكن طيبًا ، ومن أرادت فاضلاً فلتكن فاضلةً ، كما يتأتى العكس ... **ويأتى برهانا** ، وشرحا لما تقدم قول الله تعالى : « الزَّانى لا يَنكُحُ إلاَّ زَانيةً ، أوْ مُشْركَةٌ ، والزانيةُ لا ينكحُها إلاَّ زَانٍ ، أوْ مشْرِكٌ ، وحرِّم ذَلِكَ عَلَى المؤْمنين » [3] .

ونقل صاحب الصفوة عن الآلوسى قوله فى ذلك : « ... الآية لتقبيح أمر الزَّانى أشد تقبيح : ببيان أنه بعد أن رضى بالزنا لا يليق به من حيث الزنا أن ينكح العفيفة ، المؤمنة ، وإنما يليق به أن ينكح زانية مثله ، أو مشركة هى أسوأ حالا ، وأقبح أفعالا منه، وكذلك الزانية بعد أن رضيت بالزنا ، والتَقَحُّب ، لا يليق أن ينكحها من حيث إنها زانية إلا من هو على شاكلتها ، وهو الزانى ، أومن هو أسوأ حالاً منها ،وهو المشرك ».

---

(١) من الآية ٢٦ من سورة النور .

(٢) ٣/٢٢٥ الكشاف .

(٣) الآية ٣ من سورة النور .

ولصاحب الصفوة : « ... الفاسق الخبيث ، الذى من شأنه الزنا لا يرغب غالبًا فى نكاح الصوالح من النساء اللاتى على خلاف صفته وانما يرغب فى نكاح فاسقة خبيثة مثله أو مشركة (١) ، والفاسقة الخبيثة المسافحة كذلك لا ترغب غالبًا فى نكاح الصلحاء من الرجال ، بل تنفر منهم ، وإنما ترغب فيمن هو من شكلها من الفسقة ، والمشركين ؛ لأن المشاكلة علة الألفة ، والمخالفة سبب للنفرة ... » (٢) .

والنصوص المتقدمة تهدينا إلى التى هى أقوم فى اختيار الصالح ، والصالحة ...

وإن سلوك أى شخص ، وعمق إيمانه ، وصلاح أعماله ، وحياته بين خوف من الله تعالى ، ورجاء لما عنده ، وظن الخير فيه ، ... كل ذلك : يجعل التوفيق حليفه فى اختيار الله تعالى الشريكة له ، وكذلك بالنسبة للصالحة ، يختار لها الله (عز وجل) الصالح ، إذ لا يقع فى ملكه تعالى إلاّ ما يريد ...

ويأتى بيان الرسول العظيم ، وهديه ، متضمنا الهدى المتقدم ، كما يأتى - فى فطنة ، ووحى ، وطبرة - بما يرغب فيه الناس ، وما يقبلون عليه - فى الأعم ، الأغلب - ويوصى بما فيه سعادة الأجيال ، وقوتها ، ويدعو على من يخالف هديه ، وذلك فى قوله الكريم :

« ... تنكَحُ المرأة لأَربعٍ : لِما لها ، ولحَسَبِها ، وجَمَالها ، ولِدينهَا . فَاخطَرْ بذاتِ الدِّين تَربَتْ يَدَاكَ » (٣) .

ويطيب لنا أن نشرح الحديث الشريف شرحًا تُسْتَبَانُ منه المقاصد الشريفة ؛ لأهميته فى حياة الشباب ، والشابّات ، وأولياء أمورهن : أملاً فى سعادة زوجية ، وعشرة طيبة ، وفى حياة قوية فى مستقبل الأيام ...

« **تُنكح** » : **المراد** : بيان العادة ، التى يجرى عليها راغبوا الزواج .

---

(١) ص ٤٤٧ صفوة البيان .

(٢) ص ٤٤٦ صفوة البيان .

(٣) ١٩ / ١٦٢ فتح البارى .

« **لأربع** » أى : لأجل أربع ، مما سيأتى بيانه . .

« **لمالها** » : إذ المال مرغوب فيه جبلّة ، وطبعًا ، « وتُحبُّونَ المَالَ حُبًّا جمًّا » (١) والمال قِوَام الحياة ، وعَصَبُها . . .

والرغبة فى المال منبعثة من :

– الرغبة فى المكاثرة به « وتَكَاثرٌ فى الأموال ، والأولادِ . . » (٢) .

– الرغبة فى قضاء المآرب،والإشباع ،والأثاث ، والرياش ، والرفة . . .

– استغناء المرأة بمالها ، لقضاء ما تحتاج إليه ، دون مطالبة الزوج بذلك .

– مال المال لأولادهما إرثًا . . . وأنه حسب من لا حسب له .

– الوصول به إلى الجاه ، والسلطة ، ونيل الاحترام ، والتقدير من المجتمع مع أن المال **سلاح ذو حدين** : فمع الطباع السليمة ، والتربية الحكيمة يكون ما تقدم ، أو بعضه ، ومع انحراف السلوك عن الجادة الطيبة يكون المال مطية التكبر ، والطغيان ، وبه تكون الغلبة عند اشتجار الشر ، والتقاضى . . . وقد يفضى كل ذلك إلى دمار ، وبوار .

« **ولحسبها** » :

الحسَب : فى معجم مقاييس اللغة : « الحاء ، والسين والباء : أصول أربعة :

فالأول : العدّ ، تقول : حسبتُ الشىء أَحسُبُه حسبًا ، وحُسْبَانًا ، قال الله تعالى : « الشمسُ ، والقمرُ بحُسْبَانٍ » (٣) .

ويقول شيخ الإسلام ابن حجر : « والحسب : فى الأصل : الشرف بالآباء ، وبالأقارب مأخوذ من الحِسَاب ، لأنهم كانوا إذا تفاخروا عدوا

---

(١) الآية ٢٠ من سورة الفجر .

(٢) من الآية ٢٠ من سورة الحديد .

(٣) الآية ٥ من سورة الرحمن .

مناقبهم ، ومآثر آبائهم ، وقومهم ، وحسبوها ، فيحكم لمن زاد عدده على غيره ..

وقيل : ... الفِعَال الحسنة ، وقيل : المال (1) .

وفى رواية فى مرسل يحيى ذكر الحسب ، والنسب .

وفى معجم مقاييس اللغة مادة (نسب) : « النون ، والسين ، والباء : كلمة واحدة قياسها اتصال شيء بشيء : منه النسب ، سمى لاتصاله ، وللاتصال به ... » .

وفى المختار ، مادة (ح س ب) : « ... والحسب - أيضًا - : ما بعده الإنسان من مفاخر آبائه ، وقيل : حسبه : دينه ، وقيل : ماله ، والرجل حسيب ، وبابه ظَرُف : قال ابن السكيت : الحَسَبَ ، والكرم : يكونان بدون الآباء ، والشرف ، والمجد لا يكونان إلا بالآباء » .

وتفرقة ابن السكيت فى قمة الوجاهة .

والمراد بما تقدم : أن المرأة تنكح لمقام الآباء ، والأجداد ، وما يحسب لهم من الكرامة ، وجميل الفِعَال .

وذلك : فَرغِّب فى الزواج ممن اتصف آباؤها ، وأجدادها بما تقدم .

« **وجَمَالها** » :

فى المختار ، مادة (ج م ل) : « ... الجَمَال : الحُسْن ، وقد جُمل الرجل - بالضم - جمالا فهو جميل ، والمرأة جميلة ، وجَمْلاَء - أيضًا بالفتح ، والمد » .

والجمال : محبوب ، ومرغوب فيه فى كل شيء ، والله تعالى جميلٌ يحبُّ الجمال ، أى : جمال الفعال ، والأقوال ، والاعتقاد ...

والزواج من الجميلة مرغوب فيه ، وتتم النعمة إذا صاحب الجمال الدين القويم .

---

(1) ١٩ / ١٦٢ فتح البارى ...

« **ولدينها** » :

وذلك : لأن الدين عصمة الأمر كله ، والدين أساس الخير ، ومجمل الدين : الاعتقاد السليم ، والاستقامة على منهج الله (عز وجل) أى : التديَّن ، والاستقامة فى كل شىء .

وفى حديث جابر : « فَعَلَيْكَ بِذَاتِ الدِّينِ » :

ويقول شيخ الإسلام : « والمعنى اللائق بذى الدين ، والمروءة أن يكون الدين مطمح نظره فى كل شىء ، لا سيما فيما تطول صحبته ، فأمر النبى (ﷺ) بتحصيل صاحبة الدين ، الذى هو غاية البغية » [(١)].

« **فاظْفَر بذات الدِّين** » .

فى المصباح المنير ، مادة (ظفر) : « ... وظَفِرَ ظفَرًا : من باب تَعِبَ ، وأصله بالفوز . والفَلاح ... » .

وفى القاموس المحيط ، مادة (الظّفر) : « ... وبالتحريك : المطمئن من الأرض ، والفوز بالمطلوب » .

وفى معجم مقاييس اللغة ، مادة (ظفر) : « الظاء ، والفاء ، والراء : أصلان صحيحان ، يدل أحدهما على القهر ، والفوز ، والغلبة ، والآخر على قوة فى الشىء ...

فالأول : الظَفَر ، وهو الفَلْج ، والفَوْز بالشَّىْءِ ، يقال : ظفر بظفَرُ ظفرًا ، والله تعالى أظْفَرَه ، وقال تعالى « منْ بَعْدِ أنْ أظْفَرَكُم عَلَيْهِمْ » [(٢)] ورجلٌ مظَفَّرْ » .

والمراد بوَضْع ، واختيار « فاظْفَر » :

مما يدل على سباق ، وصراع ، وتنافس من أجل شىء نبيل ، فائق ، وإنما يظفر بهذا الهدف من حالفه التوفيق ، وظاهره السَّدَاد ، والرشاد .

---

(١) ١٩ / ١٦٢ فتح البارى ...

(٢) من الآية ٢٤ من سورة الفتح .

وإن الراغب فى الزواج لكذلك ؛ لأنه يعمل فكره ، ويجهد نفسه ، ويستشير غيره .. حتى يفوز برغبته ؛ لأن الأمر جدّ خطير ، ولأن حياة الزوجية ممتدة الأثر ...

وذات الدين : هى التى ولدت ، ونشأت بين أبوين أخذت عنهما - بالوراثة - صفات ضاربة فى الأعماق ، وبالقدوة ، والتربية ، والتعهد ، صفات تبقى ، وتورث فى أجيال قادمة ...

وذات الدين : تَرَبَّى ضميرها تربية سليمة ، غير معكوسة ، وأخذت قدوة ، وعملا وسلوكا طيبا وأدبًا رفيعا ، والظفر بمثلها نعم الظفر ... ومثلها يتطلع إليها كثيرون ، ويتم الظفر بها لمن أرادها الله له ، وأراده لها .

ولعل ترتيب هذا لكلام ، الذى هو فى قمة السموّ ، البلاغى : تنكح المرأة لأربع : لمالها ، ولحسبها ، وجمالها ، ولدينها ، فإذا تحققت أيها المسترشد ما فصلت لك تفصيلا بينًا ، واضحا ، وحقًا ، فاظفر بذات الدين لخيْرَى الدنيا ، والآخرة : ولخيرك ، وخير عقبك ...

فالفاء : واقعة فى جواب شرط مقدر ؛ لأن جواب الشرط الموجود طلبىّ (أمر) يجب معه اقترانه بالفاء ، لإعادة الاتصال بين الشرط المقدر ، والجواب الموجود ... « **تَرِبَتْ يَدَاك** » :

فى المختار ، مادة (ت ر ب) : « ... وتَرِب الشىء : أصابه التُّرَاب ، وبابه طَرِبَ ، ومنه : **تَرِبَ الرجل** ، أى : افتقر ، كأنه لصق بالتراب ، وتربت يداه : دعاء عليه ، أى : لا أصاب خيرًا ... (كما يقال) ... **أترب الرجل** : استغنى ، كأنه صار له من المال بقدر التراب ... » .

ويقول الفيومى فى المصباح المنير ، مادة (الترب) : « ... تَرِب الرجل يترَب ، من باب تعب : افتقر ، كأنه لصق بالتراب ، فهو تَرِب ، وأَتْرَب . بالألف - لغة فيهما ، وقوله (عليه الصلاة والسلام) : « تَرِبَتْ يَدَاك » : هذه من الكلمات ، التى جاءت عن العرب ، صورتها دعاء ، ولا يراد بها الدعاء ، بل المراد : الحث ، والتحريض ، وأتْرَب - بالألف ،

استغنى . . . » والفيومى : يجعل أترب ، لغة فى ترب : ويكونان بمعنى واحد .

وفى معجم مقاييس اللغة ، مادة (**ترب**) : « التاء ، والراء ، والباء : أصلان : **أحدهما التُّرَاب** ، وما يشتق منه ، **والآخر** : تساوى الشيئين. . . ، ويقال : تَرِبَ الرجل : إذا افتقر ، كأنه لصق بالتراب ، **وأَتْرَبَ** : إذا استغنى ، كأنه صار له من المال بقدر التراب . . » وفى القاموس المحيط ، مادة (**التُّرَب**) :

« . . . **وتَرِب** – كفَرِح – : **كثر ترابه** ، وصار فى يده التَّراب ، ولزق بالتراب ، وخسر ، وافتقر ، تَرَبًا ، وَمَتْرَبًا ، ويَدَاه : لا أصاب خيراً ، **وأتْرَب : قلْ ماله ، وكثُر** : ضد ، كَتَرَّب فيهما . . . » وفى لسان العرب ، مادة (تَرِب) :

« . . . **وتَرِب** الرجل : صار فى يده التراب ، وتَرِب تَرَبًا : لزق بالتراب ، **وقيل** : لصق بالتراب من الفقر . . . **وتَرِب تَرَبًا** ، ومترَبةً : خَسِرَ، وافتقر ، فلزق بالتراب ، **وأتْرَبَ** : استغنى ، وكثر ماله ، فصار كالتراب : **هذا الأعْرَف** .

وقيل : قلَّ ماله ، قال اللّحيانى :

قال بعضهم : التَّرِب : المحتاج : وكله من التراب ، والمُتْرب : الغنّى – على السلب – وإما على أن ماله مثل التُّرَاب ، **والتَّتْريب : كثرة المال** ، **والتتريب** : **قلة المال** – أيضًا – ويقال : **تربت يداه** ، وهو على الدعاء ، أى : لا أصاب خيراً . . .

(وقد ساق ابن منظور الحديث ، ونقل قول أبى عُبَيْد ، فقال) :

قال أبو عُبَيْد : قوله « **تَرِبت** يَدَاك » : يقال للرجل إذا قل ماله : قد تَرِب ، أى : افتقر ، حتى لصق بالتراب ، وفى التنزيل العزيز « أوْ مسْكيناً ذَا مَتْرَبِه »(١) قال – والله أعلم – إن النبى (ﷺ) لم يتعمد الدعاء عليه

(١) الآية ١٦ من سورة البلد .

بالفقر ، لكنها كلمة جارية على ألسن العرب ، يقولونها وهم لا يريدون بها الدعاء على المخاطب ، ولا وقوع الأمر بها .

وقيل معناها : لله درُّك ، **وقيل** : أراد به المثل ليرى المأمور بذلك الجدّ ، وأنه إن خالفه فقد أساء ، رقيل هو دعاء على الحقيقة . . . »

وإنما طلنا فى عرض آراء علماء اللغة ، وصولا إلى فهم هذا التعبير ، الذى كثر الاختلاف فيه . . .

ونستنبط من آراء علماء اللغة ما يلى : المادة الأصلية (ت رب) :

« **ترِب** » **المادة** : **أتت بمعنى** : أصابه التراب ، وافتقر ، ودعاء على من دعى عليه . .

« وَتَرِبَ » : **كثر ترابه – على الضد** ، أى : من المتضاد فى اللغة ، ولصق بالتراب من الفقر ، وخسر ، وافتقر ، ولا أصاب خيراً ، وقل ماله ، وللتعجب كليلّه دَرّك ، أو المثل ، واستغنى .

و« **أتْرَب** » – بالهمزة فى أوله : **استغنى** ، وتكون الهمزة للسَّلْب ، والإزالة : فترب : الفعل البسيط ، وأترب : الفعل المركب ، والهمزة أزالت الفقر ، فبقى الغنى . . . مثل : قسط ، وأقْسط ، وفَذِي ، وَأقْذَى ، . . . وتأتى المادة : **للحث ، والتحضيض .**

ويرى ابن منظور أن الأعرف فى « **ترِب** » : ما دل على فقر ، وخسر . . . وفى « أَتْرَبَ » استغنى : فالهمزة للسلب ، والإزالة – كما ذكرنا – كما قيل : « . . . **أترَب : قلَّ ماله** ».

ونخرج من ذلك : بأن كلمة « **ترِب** »تصلح للدعاء بالفقر ، أو بالغنى . . قليلا . .

وتتمة الحديث الشريف مّمن أُوتى جوامع الكلم « ترِبت يَدَاك » **تصلح لما يلى :**

أولا : للدعاء على من اتضحت له الحقائق ، وبانت له المقاصد ،

وعرف الخير، والشر، ثم سلك سبيل الغواية، وترك طريق الرشاد : بالفقر ، والخيبة ، والخسران ، وأنه لا يُصيب خيراً فى مستقبل أيامه ، إذ « يداه أوْكَتَا ، وفُوهُ نَفَخ » كما جاء فى المثل ...

وثانيا : الدعاء لمن امتثل أمر رسوله الكريم ، بعد أن أخذ بيده من طريق الضلال ، وسار به إلي النور الأبلج ، فقال للرسول الأمين : سمعت ، وأطعت ، وطلبَ يَدَ ذات الدين ، فإن الرسول الأمين يقول له : متَّعك الله بالغنى ، مع زوجة تملأ بيتك طُهْراً ، وعَفَافًا ، وبركة ، وسعدت بذرية نجيبة طيبة ...

ونزيد الأمر فضل إيضاح ، فنقول :

– **الراغبون فى الزواج** : كل منهم على حسب ما يهديه الله إليه ، ويشرح صدره له ، مع أهداف كل منهم ، التى ينشدونها ، وذلك مَنْ يلى من الزوجات :

١ – صاحبة المال .

٢ – ربة الحسب ، والنسب .

٣ – ذات الجمال .

٤ – ذات الدين .

والرسول الأمين : يوصى بذات الدين ، ويدعو بالغنى لمن امتثل أمره، ليفوز بالحسنيين : الدين ، وهو عصمة أمر الحياة ، والغنى المرتقب... الذى به تحصل مطالب العيش السعيد ... وقد فطن شيخ الإسلام للمعنى الذى قررناه ، ونقل عن ابن العربى : « أن معناه : استغنت »[١] يريد : يديه ، ويعضد ما ذهبنا إليه ما نقله شيخ الإسلام عن ابن العربى وإن كان قد تعقب .

ويعضد المعنى – أيضًا – ما سجله ابن منظور فى نفس المادة

---

(١) ١٩/ ١٦٢ فتح البارى ...

(ترب) : ، « .. ويعضده قوله في حديث خزيمة (رضى الله عنه) : أنعم صَبَاحًا ، ثم عقبه بتربت يداك ، فإن **هذا دعاء** « **له** » .

وهذا مناسب لنهج الرسول الأمين ، فإنه بالمؤمنين رَءُوفٌ رحيمٌ ..

والتقدير على المعنى الثانى : بعد أن بينت لك أيها المسترشد ، وأخذت بيدك إلى التى هى أقوم ... فإن خالفت هَدِيى بعد ذلك تربت يداك ... دعاء عليه بما تقدم ...

ونقول : إن من خالف الرسول الأمين فإنه يستحق مثل هذا الدعاء...

ونقول بعد ما تقدم :

من خصائص اللغة العربية : « مخالفة ظاهر اللفظ معناه » :

يقولون عند المدح : قاتَلَه الله ، ما أشْعَره ! وهذا مدح للشاعر ، وإعجاب بشعره .

كما يقولون : « هَبِلَتْهُ أمُّه ، وثِكلُته أمُّه ... » وليس المراد الدعاء على من قيل فيه ذلك .

وإنما المراد المدح ، والإعجاب من قول متْقَنٍ ، أو فعل عظيم ...

كما يقولون : « قَاتلة الله ما أشْجَعَه ! » ولا يريدون الدعاء عليه بالقتل ، وإنما يريدون الإعجاب منه ، والدعاء له .

وهذا النوع من الأسلوب يدعو إلى تفكّر، وتدبر فيما يناسب المقام ، حتى يأتى التعبير ملائمًا ؛ لإعجاب المتكلم ، ومزيد انفعاله بمن أعجب به[1] .

ومن الجدير بالمقام ، وبما يناسب الرسول العظيم من الرأفة ، والرحمة بالمؤمنين : أن يكون التعبير « تَرِبَتْ يَدَاكَ » من هذا القبيل ..

---

(١) انظر كتابنا : المهذب : فى محاسن اللغة ، وخصائصها ، وما فى القرآن الكريم من المعرّب ص ٦٢ ، ٦٣ .

فإنه (عليه الصلاة والسلام) يعجب بمن يأخذ بهديه ، ويتمنى الهداية للجانح عنه .

فالتعبير الحقيقي يئول إلى ما يناسب المقام ، فإذا حمل على الكنائيّ كان على الحث ، والحصن ، والمثل ، والإعجاب ... إلى غير ذلك مما يناسب المقام ...

وذات الدين ليست لها خَلْفِيَّةٌ ضَارَّة ...

أما رَبة الحَسَب :

فإنه يحتمل إذا سارت الأمور سيرها المأمول فإن الخير يكون متحققا منه ، لقوله تعالى : « ... فجعَلَهُ نسبًا ، وصِهْرًا » [1] إذ تنصهر الأسرتان في بوتقة الحب ، فتقوى الروابط ، ويجيء التعاون ، متى كان ذلك على إثارة من دين .

ويحتمل أن تسير الآمور سيراً غير طبيعي ، وعلى منهج خاسر ، فينقلب ذلك همًا ، وألمًا ، وعداء ممّن لا تحتمل عداوته ، أو الاختلاف معه ...

أما ذات الجمال :

فإنها مرغوبة ، مطلوبة ؛ لأن الجمال مطلوب في كل شيء ، ولا سيما المرأة التي تكون قرينة ، وضجيعة ، وصاحبة بالجنب ،وقد تطول عشرتها .

وعند الحاكم حديث : « خَيرٌ النّساء مَنْ تسرٌّ إذا نُظِرتْ ، وتُطِيعُ إذَا أُمَرتْ » .

لكن الجمال - إن لم يستند إلى خلق قويم ، ودين مستقيم كان شراً، وألمًا ...

ومن ذلك : جاءَّت كراهة الزواج يذات الجمال الباهر ؛ لأنها تزهى بجمالها ...

---

(١) من الآية ٥٤ من سورة الفرقان .

وإن لم يستند إلى حسن تربية ، وسلامة دين جاء قول القائل :
« المرعَى الخصيب ليْسَ لكَ وحْدَك » وفى ذلك الشر المستطير . . .

وكما حث الرسول العظيم على الزواج من ذات الدين فإنه نهى عن الاقتران بغيرها من ذوات الصفات السابقة ، فقال (ﷺ) : « لا تَزَوَّجُوا النساءَ لِحُسنهنَّ فَعَسى حُسْنُهُنَّ أن يُرويَهنَّ ، أى : يَهلكهنَّ ، ولا تزوجوهنَّ لأموالهنَّ ، فَعَسَى أموالهُنَّ أن تَطغيهنّ ، ولكن تزوجوهنَّ على الدين ، ولأمة سَوْداءَ ، ذاتُ دينٍ أفْضَل » (١) .

وهذا الحديث الشريف يعزز الحديث المتقدم ، ويوردُ التعليل المقنع لمن أراد خَيْرَ الدنيا ، وسعادة الآخرة .

وهنا يرد سؤال :

هل يمكن أن تكون ذات الدين متصفة بصفات أخرى مما ورد فى الحديث الشريف ؟

والجواب عن هذا :

نعم : يمكن أن تكون الزوجة ذات دين ، مع اتصافها بجميع الصفات الأخرى ، أو بعضها . . .

ونقول فى ذلك : الله يزيد فى الخَلْق ما يشاء ، وهو فضل الله يؤتيه من يشاء .

وسؤال آخر : هل تُطْلَق يد الزوج فى مال زوجته بلا قيود ، أو ضوابط ؟ والجواب عن هذا فى قوله تعالى : ﴿ فَإِنْ طِبْنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْسًا ، فَكُلُوهُ هَنيئًا مريئًا ﴾ (٢) .

ونخلص مما تقدم بوصايا :

---

(١) انظر ١٩ / ١٦٢ فتح البارى . . .

(٢) من الآية ٤ من سورة النساء . . .

وانظر كتابنا : المرأة عبر العصور . . . وما يتعلق بالذمة المالية لها . . .

وانظر ١٩ / ١٦٣ فتح البارى . . . آراء العلماء فى تلك القضية .

- **نقول للشاب** ، الراغب فى الزواج : كن طيّب السلوك ، قويم الدين ، سليم التوجّه؛ ليختار لك ربُّك ذات الدين ، التى على شاكلتك ، فمردُّ الأمر إليك ، بعد فضل ربك ، وكن حريصًا على انتقاء ذات الدين ؛ لأن الخير كله فى يومك ، وغدك ، ومستقبل أسرتك فى الاقتران بها .

- **ونقول للشابة** ، الراغبة فى الزواج ، طبعًا ، وجبلّة ، واتجاهًا : كونى سليمة الاعتقاد، قويمة السلوك ، عفّة فى كل شىء ، سليمة الاتجاه ؛ لتكون خِيَرةُ الله لك فى مشاكلك ، الذى يسعدك فى كل الأحوال ، وتكونان معًا فى دار الكرامة ، والرضوان ... فى دار النعيم ...

- **ونقول لوالد الفتاة** ،أو القائم على أمرها : اتق الله فمن استرعاك ، اختر لفتاتك ، وليكن اختيارك على الدين ، والخلق ، وسلامة الاتجاهات .

- **ونقول لمن يُسْتَشَار** فى أمور الزَّوَاج : ارْعَ وجه ربك ، وكن حكيما فى مشورتك لَبيبًا فى عَرْضِك ، ورأيك ، وليكن على الدين ، والخلق ؛ فإنك مسئول عن كل كلمة تقولها ، أو مشورة تُبْديهَا .

ثالثًا : دَسَاتير الإسلام فى فترة الخِطبَة ، وما قبل البناء بالزوجة :

الإسلام : الدين الخاتَم ، وشريعته خاتمة الشرائع ، والقرآن : فيه نبأ من قبلنا ، وخبر من بعدنا ، وهو القول الفصل ، ليس بالهزل ، ورسوله خاتم الأنبياء ، والمرسلين ...

من أجل ذلك : كانت شريعته ، الصالحة لكل زمان ، ومكان تقرّر ما فيه خير البشرية لها ، مع جبر خواطر من ظُلموا ، ومن ظلِمْنَ فى عصور الجاهلية الجهلاء ، مع الموازنة الحقة ، والوزن الدقيق لكل ما قررته الشريعة السمحاء ، ولأن المشرع الأعظم يعلم من خلق ، وهو أحكم الحاكمين .

وإذا **كانت طبيعة المرأة** ، وجِبِلّها : أنه زيد فى عاطفتها عن أخيها الرجل ، وزيد فى عقله عن أخته المرأة ، **وذلك** وزن الله (عز وجل) الدقيق ... لخير البشرية جمعاء .

من أجل ذلك : جعلت الولاية للأب ، أو من يقوم مقامه ، حتى لا

تُظْلَم الفتاة بزواج تحكمهُ العاطفة ، ولا يدبّره العقل ، فينالها بذلك الزواج شرٌّ ، جرَّت إليه نظرة عَجْلَى ، وهوًى متَّبَع ... ، أو تغرير متعمّد .

لكن ليس للولى أن يجبرها ، وإنما يستأذنها إن كانت بكرًا ، ويستأمرها إن كانت غير بكر ، لقول الرسول العظيم : « ... لا تُنْكَح الأيّم حتَّى تُستَأْمَر ، ولا تُنكَحَ البكرُ حتَّى تُستأْذَن ، قالوا يا رسول الله ، وكيف إذنُها ؟ قال : أن تَسْكُتْ » (١) .

والتعبير « للثيب بالاستئمار ، وللبكر بالاستئذان : فيؤخذ منه فرق بينهما من جهة أن الاستئمار يدل على تأكيد المشاورة ، وجعل الأمر إلى المستأمرة .

ولهذا : يحتاج الولى إلى صريح إذنها فى العقد ، فإذا صرحت بمنعه اتفاقا ، والبكر بخلاف ذلك ، والإذن دائر بين القول ، والسكوت ، بخلاف الأمر ، فإنه صريح فى القول .

وإنما جُعِل السكوت إذنًا فى حق البكر ، لأنها قد تستحى أن تفصح » (٢) وفى هذا التشريع المحكم جبر لخاطر من أُضيَرت ، وأَجْبرت فى عصور سالفة ، وأهدرت كرامتها فى ظل الجاهلية الجهلاء ، غير الظليل ... وفيه – أيضا – توقع استدامة العشرة ، وقوة الأسرة ، واستقامة أمر الأولاد ...

والأمر يزْداد قوة ، ومتانة إذا تمت رؤية كل من طرفى الزواج بالنظر المباح ، لقول الرسول العظيم لمن خطب امرأة « ... فقال له النبى (ﷺ) انظر إليها فإنه أحرى أن يَدُوم بَيْنكُمَا » أخرجه الترمذى ، والنّسائى (٣) .

ولما كانت المرأة تقف فى الجانب ، الذى سلبت منه حقوقه فى عصور

---

(١) ١٩ / ٢٣٠ فتح البارى ...

(٢) انظر ١٩ / ٢٣٠ ، ٢٣١ شرح ابن حجر ، فتح البارى ...

(٣) انظر ١٩ / ٢١٧ ابن حجر : فتح البارى ...

ضاربة فى القدم ، فإن الإسلام رفع مكانة المرأة ، ووضعها فى درجة طيبة إذ جعلها مطلوبة ، يسعى إليها ، ويبذل لها ..

وذلك فى الآتى :

١ – **الخِطْبَة** : حيث جعلت مطلوبة ، لا طالبة ، مرغوب فيها يُسْعَى إليها ، وتطلب يدها من وليها ، أو والدها ...

٢ – صان الإسلام أمر الخِطبة ، وراعى عاطفة المرأة ، فإذا تقدم للخطبة من يبغى الزواج ؛ وجاء الاختيار على ما تقدم ، وروعيت الكفاءة المقررة ، فإنه لا يجوز لخاطب آخر أن يتقدم لأسباب زائلة ، أو عرض متغير، زائل ، وذلك : إذا تم ركون من الطرفين ، حتى لا يكون هناك تلاعب بعواطف فتاة ركنت إلى زوج المستقبل ، وبنت أحلامها على الحياة معه فى ظل زواج مبارك سعيد ، وحتى تدوم العلاقات الطيبة بين الناس .

ومن ذلك يقول الرسول الأمين : « ... نَهَى النبىُّ (ﷺ) أنْ يبيعَ بعضكُم عَلَى بيع بعضٍ ، ولا يخطبُ الرجلُ على خِطبَة أخيه ، حتى يتركَ الخاطبُ قَبَلَه ، أوْ يأْذَنَ لَه الخاطبُ » (١) .

٣ – **المهر ، ويسمَّى بالصدَّاق** : دلالة على صدق الزَّوج فى الحياة الزوجية ...

والمهر : نحْلَة من الله تعالى ، وعطيّة ؛ ليرفع من شأنها ، ويرد لها كرامتها المفقودة ، فلا تكون كَسَقَط المتاع ...

والسؤال هنا : الزواج مصلحة مشتركة ، ومتعة متبادلة ، واشتراك فى الأولاد ... فلم يكون على الزوج المهر ؟ مع الانتفاع المتبادل بين الزوجين ؟

والجواب عن ذلك : أن هذا الصداق إنما هو عطية من الله تعالى ، وتكريم للمرأة ، تجد ذلك فى قوله تعالى : « وَآتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتهنَّ نحْلَةً » (٢) .

---

(١) ١٩/٢٣٨ فتح البارى .

(٢) من الآية ٤ من سورة النساء .

وفى **صفوة البيان** : « . . . أَعطوهن مهورهن عطية من طيبة نفس منكم ، والخطاب للأزواج ، والصَّدُقات : جمع صدُقَة – بفتح ، فضم – وهى كالصَّدَاق : ما يعطى للزوجة من المهر ، ويُسمَّى أجراً ، وفريضة .

والنحلة – فى الأصل – : العطية علىٰ سبيل التبرع ، يقال : نحله كذا نحْلَةً ، ونُحْلاً : إذا أعطاه إياه عن طيب نفس ، بلا مقابلة عوض »(١).

وقد بان لنا مما تقدم تكريم المرأة بالصداق ، ومسح غبار الجاهلية عنها، وتجفيف دموعها لما أصابها ، وظهور الابتسامة على وجهها بما يمهرها به الزوج ، وما يقدّمه تودُّداً لها ، ورفعا من شأنها . . .

٣ – الكفاءة :

يراد بالكفاءة : المساواة ، ومن ذلك قول الرسول الأمين : « المؤمنون تتكافأ دماؤُهم ، ويَسْعَى بذمَّتهم أَدْنَاهم . . . »

ويفسر الفقهاء الكفاءة فى الزواج : بالمساواة بين الزوجين فى أمور خاصة ، يُعتبر الإخلال بها مفسدة للحياة الزوجية . . .

كما يروى أنها مطلوبة فى الزوج إذ أن الزوجة تتضرر من عدم الكفاءة ، وتُعيّر بخسة الزوج ، أو دناءته ، أو احترافه . . .

أما الزوجة : فإن الزوج لا يتضرر بعدم كفاءتها ، إذ أنه يستطيع أن يرفع مكانتها ، ويعلى شأنها ، ويسمو بها . . .

وقد روى جابر (رضى الله عنه) أن الرسول الأمين قال : « إلاّ لا يزوج النساء إلا الأَوْلِيَاءُ ، ولا يُزَوجْنَ إلاَّ من الأَكْفَاء » .

والكفاءة عند المالكية تكون فى : « التديُّن ، والسلامة من العيوب ، الموجبة للرد .

– لا بمعنى الحسب ، والنَّسب ، والحرية »(٢) .

---

(١) ص ١٠٧ صفوة البيان .

(٢) انظر ١ / ٣٧٠ الشرح الصغير للإمام الدوير .

والسادة المالكية فى ذلك : يولون التدين ، والتمتع بالسلامة من العيوب ، والتساوى فى الحرية ، وهى الثوابت ، والكفاءة فيها موضع الاعتبار ، ولا يولون الأعراض المتغيرة كبير اهتمام . . .

ويستند السادة المالكية إلى ما ذهبوا إليه بقوله تعالى : « إِنَّ أَكرَمكُمْ عنَد الله أتْقَاكُم » [1] .

ويقول الرسول الأمين « الناسُ سَواسيةٌ ، كأَسْنَان المشط ، لا فضل لعربىّ على عجمىٍّ إلا بالتقْوَى » .

رأى السادة الأحناف :

يعتبرون الكفاءة فى ستة أشياء :

١ - **النسب** : لجريان التنافر بالأنساب فيما بينهم ، ومحافظتهم عليها . . .

٢ - **الإسلام** : لأن الإسلام مناط الشرف ، والتفاخر ، فالإسلام أب كل مسلم . . .

٣ - **الحرية** : وهم فى ذلك يتفقون مع المالكية . . .

٣ - **الديانة : والمراد** : التديّن ، والتقوى ، والصلاح ، . . . وهم كالمالكية فى ذلك .

٥ - **الحرفة** : والمراد تساوى الزوج مع أبى الزوجة فى الحرفة الشريفة .

٦ - **المال** : لأنه حسب من لا حسب له ، **والمراد** : قدرة الزوج على المهر ، والنفقة . . .

والسادة الشافعية :

يتفقون مع السادة الحنفية ، ما عدا المال ، فإنهم لا يعولون عليه . .

---

(١) من الآية ١٣ من سورة الحجرات .

ويشارك السادة الشافعية المالكية فى اشتراط السلامة من العيوب[1].

ولعل اشتراط الأئمة هذه الشروط فى الكفاء يعود إلى :

- أن الحياة الزوجية حياة ممتدة ، وتحتاج إلى تعاون مثمر خلاق من الزوجين ، وتضحية بالغة لتربية الأولاد على الفضيلة ، والمكارم .

وذلك : يحتاج إلى تكافؤ ، وتقارب بين الشريكين ، لدوام العشرة ، ولخير الأجيال ...

ولعل تخفيف شروط الكفاءة عند السادة المالكية يعود إلى أصول مذهبهم ، وفى المقدمة : عمل أهل المدنية ؛ لقربهم من متنزل الوحى السماوىّ ...

ولعل السادة الأحناف زادوا فى شروط الكفاءة ، نظرا للبلاد المفتوحة، واتساع رقعة الإسلام . واختلاط الأنساب ، ... ولشيوع ما ابتدعته الدولة الأموية ...

والكفاءة : تعتبر فى وقت العقد ، وفترة الخِطُبَة :

فإذا زالت بعد ذلك : لا يترتب على زوالها ضرر ، ولا إخلال بالعقد...

فإن زالت إلى أفضل فذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ، وإن كان الأمر على العكس لزم الصَّبر الجميل ، والالتجاء إلى الله (عز وجل) فهو الذى بيده الخير ، وهو على كل شيء قدير ...

٤ - الابتعاد عن زواج الأقارب : للأضرار الناجمة عنه ...

ومما تنبغى مراعاته الاتجاه **إلى زواج الغريبات** :

والوصية بذلك :

- **لراغب** الزواج ، فراراً من التعويق ... ، ولامتثال أمر الرسول الأمين ...

---

(١) انظر ص ٣٨ إلى ٤٠ من محاضرات فى الفقة الإسلامى للأستاذ الحسينى .

– وللزوجة المرغوب فى الزواج منها ، للعلة المتقدمة ، . . .

– ولوالد الزوجة ، أو وليها ، لما تقدمْ . . .

وسيأتى لذلك بحث تام – إن شاء الله تعالى – ؛ **لأن التعويق المقصود الأهم لنا** فى هذا الكتاب ، وصولا إلى نَسّلٍ قوىّ ، ومجتمع قوىّ، وأمة قوية – بعون من الله تعالى ، وتوفيق . . .

ولم يوص الفقهاء بذلك – فى اجتهاداتهم – التى تناولت كل شيء، حتى قيل : إن الفقه الإسلامى نضج حتى احترق . . .

ولأن الفقهاء (رحمهم الله جميعا) لم يكتفوا بتبيان أحكام الواقع الملموس ، المشاهد ، وإنما ارتقوا منه إلى الأمثلة الفرضية ، التى افترضوها ، وأصدروا أحكامهم الصائبة فيها : إعمالاً للفعل ، وردًّا إلى القياس ، ولن يتهموا بقصور ، أو تفريط (حاشاهم من ذلك) .

ولعلهم رأوا أن وصية الرسول الأمين ، وأمره فى ذلك . . . يسدّ هذه الثغرة ، التى تنفذ منها سموم التعويق لفلذات الأكباد مما يضعف الأسَر ، والمجتمعات ، والأمم .

مع ترك هذا الأمر للتجربة المشاهدة ، والواقع الملموس . . .

ولقد اكتشف العلم – بآخرة – التهجين ، واستخدموا ذلك بالتجارب الناجحة فى الحيوان ، والنبات ، والأشجار . . .

والدول التى عنيت بذلك ، واتجهت إليه ، وجربته أفادت الغنى فى كل شىء .

ونتيجة لذلك : غزارة الإنتاج ، والإنتاجية ، ووصلت تلك الدول إلى الإشباع ، ثم اعرفه ، ثم فرض السيطرة على الأمم الأخرى ، بما هديت إليه من التمسك بأساليب العلم ، وتطبيقه ، لجنى أطيب الثمار . . .

ونخلص مما تقدم إلى تبيان ما جرت عليه عادة الناس ، وهو **قراءة الفاتحة** بعد إعلان الخطبة للتأكيد ، وبيان الحكم الشرعى ، **فنقول** .

الحكم الشرعى فى ذلك :

إن كانت قراءة الفاتحة للتبرُّك بها ، أو للوعد إلى وقت إنشاء عقد الزواج ، فإن هذا العمل لا يُعَدُّ عقداً ، والرجوع فيه **رجوع عن وعد فقط . . .**

أما إذا صاحب قراءة الفاتحة **إيجاب من ولى النكاح ، وقبول من الراغب** فيه ، مع شاهدين فإنه يكون عقداً نافذاً شرعا ، ولها مهر المثل ، وتترتب على هذا العقد جميع الآثار الشرعية ، وإن كان لا ينفذ قانونا حيث إنه لم يثبت فى الوثيقة الرسمية لدى الموظف المنوط به ذلك . . .

والحكم الشرعى إذا **عدل** أحد العاقدين عن الخطبة بعد إعلانها :

فإن كان قد دفع الزوج المهر ، أو بعضه فله استرداد ما دفع – باتفاق الفقهاء – لأن ما دفع نظير عقد لم يتم .

أما الهدايا التى تقدم عادة فإن الحكم فيها هو الحكم فى الهبة ، للزوج أن يرجع فيه ما لم يكن هناك مانع من موانع الرجوع فى الهبات ، كالهلال ، وخروج الموهوب عن ملك الموهوبة لها . .

وقد ألفت لمثل ذلك لجنة من كبار العلماء برئاسة وزير العدل عام ١٩١٥ وقد جاء فى المادة (٢) :

« إذا كان العدول من جهة الزوج فليس له أن يسترد شيئاً مما أهداه ، ولا أن يرجع بشىء مما أنفق .

وإن كان من جهة الزوجة : فللزوج أن يرجع بما أنفق ، وأن يسترد الهدية – إن كانت قائمة ، وقيمتها إن استهلكت ، أو هلكت ، ما لم يكن شرط ، أو عرف يغير ذلك فيتبع » .

وذلك : مقتبس من مذهب المالكية فى حكم هدايا الزوج . . .

ولكن هذا المشروع المقترح لم يأخذ صبغته القانونية ، (١) .

---

(١) انظر محاضرات فى الفقه الاسلامى الإستاذ الحسينى ص ١١ ، ١٢ .

وحبذا : لو عمل به ، فإنه مساير للعقل ، والمنطق ، ويقضى على كثير من المنازعات . . .

والحكم الشرعى : إذا تم العقد ترتبت عليه جميع الآثار التى تترتب على العقد . . .

وأما إذا طلق الزوج قبل الدخول ، أو الخلوة الشرعية ، فإن للزوجة نصف الصداق ، لقوله تعالى : « . . . فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُم ، إِلاَّ أَنْ يَعْفُونَ ، أَوْ يَعْفُوَا الَّذِى بِيدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ » (١) .

وفى صفوة البيان : « . . . وإن طلقتموهُنَّ قبل الدخول ، وقد سميتم لهن مهراً فلهن **نصف المهر** ، **ولا متعة لهن** » .

أما المطلقات بعد الدخــول،ولهن مهر مسمًّى فيجب لهن المهر كاملاً ، وإن لم يسم لهن مهر وجب لهن مهر المثل ، ولا متعة لهن فى الحالتين ، وقيل : تجب فيهما مع المهر . إلاَّ أن يعفون » أى : إلا أن تترك المطلقات نصيبهنّ من الصداق للأزواج ، أو يترك الأزواج ما يعود إليهم من نصف المهر ، الذى ساقوه كاملاً إلى زوجاتهم » (٢) .

ولا عدة للمطلقة قبل الدخول ، أو الخلوة الشرعية لقوله تعالى : « يأيُّها الَّذينَ آمَنُوا إِذَا نكَحْتُهُمْ المؤْمِنَات ، ثم طلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمسُّوهُنَّ ، فَمَالكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا ، فمتِّعُوهَنَّ ، وسرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلاً » (٣) .

وهنا نقول :

المتعة : تعطى إن لم يسم مهر ، ويستحب الإعطاء مع التسمية مع نصفه ، وتسرح الزوجات من المنازل ، لعدم وجوب العدة لهن ، إخراجا من المنازل عاريا عن أذى ، ومنع(٤) .

---

(١) من الآية ٢٣٧ من سورة البقرة .

(٢) من ٥٨ صفوة البيان .

(٣) الآية ٤٩ من سورة الأحزاب .

(٤) انظر ص ٥٣٤ صفوة البيان .

وصحة عقد النكاح تكون بما يلي :

بولى ، وشاهدى عدل ، لقول الرسول الأمين « لاَ نِكَاحَ إِلاَّ بِوَلِىّ ، وشَاهِدَىْ عَدْلٍ » .

ولابد من أن يتمتع الولى ، والشاهدان **بالشروط الآتية** :

١ - **الإسلام** : فلا يكون ولى المرأة كافرا ، إلا إذا كانت الزوجة ذمية .

٢ - **البلوغ** : فلا ولاية ، ولا شهادة لصبى .

٣ - **العقل** : فلا ولاية ، ولا شهادة لمجنون . . .

٤ - **الذكورة** : وخرجت بذلك الأنثى ، كما يخرج الخنثى المشكل . . .

٥ - **الحرية** : فلا يكون ولى المرأة عبداً فى النكاح . . .

٦ - **العدالة** : فلا يكون الولى فاسقًا . . . [١] .

رابعا : قَوَانِينُ الإِسلامِ ، وآدابُه ، بَعْد البِنَاء بالزَّوجَة ، وتكْوين الأُسْرَة :

إذا تم عقدُ الزوج ، واستكمل شروطه ، ترتبت عليه آثارهُ ، وإذا بنى الزوج بزوجته ، وضمهُمَا بيتُ طهر ، وعَفَافٍ ، ترتبت على ذلك البناء الآثارُ الطيبة الاتية :

١ - زِيدَتْ على مجتمع الإسلام - المجتمع الأمثل - أُسْرَةٌ ، تحمل أمانتها ، وتعنى بأمرها ، وتقوم على إصلاح شُئُونِهَا . . .

وجاء توزيع الأدوار على الزوجين - كما وزع على الأسرة الأولى - : أسرة آدم ، وحواء وجاء ذلك فى قوله تعالى : « فَلاَ يُخْرِجَنَّكُمَا منْهَا ، فَتَشْقَى » [٢] :

---

(١) انظر ص ٤١ ، ٤٢ شرح التقريب وكتاب تيسيره لنا ص ٧٣ ، ٧٤ .

(٢) من الآية ١١٧ من سورة طه .

الخطاب : لآدم ، وحوَّاء ، **والمحذَّر منه** : إبليس اللعين : بالوسوسة ، والتزيين ، والقسم الباطل . . .

والشقاء : لآدم .

والمراد به : شَقَاء العمل فى خارج البيت ، وتحويل أنْعَمُ الله تعالى على أرضه ، الحافلة بما تشتهيه الأنفس ، وتلذ الأعين . . . وتحويل ذلك : إلى ما به قِوَام الحياةِ على الأَرْضِ من مطْعُومٍ ، ومَشْرُوبٍ ، وملْبُوسٍ ، وسُكْنَى . . .

وقد كانا فى الجنة ينعمان دون عمل بكل مُشْتهىً ، ومرغُوب فيه من خير ، ونعَم ، لا دخل لعمل الفرد فيه « إنَّ لَكَ ألاَّ تَجُوع فيهَا ، وَلاَ تَعْرَى ، وأنَّكَ لاَ تَظْمأُ فيهَا ، وَلاَ تَضْحَى » [١] .

وعند الهبوط إلى الأرض حُدِّد مَجَالَ عمل آدم . . .

أما حواء : فإن رسالتها لا تقلِ عن رسالة آدم فى العمل ، ولكن لا شقاء فيها ، ولا تركَبُ أخُطَارًا جِسَامًا كآدم ، ولا تواجه عَوادِىَ الطبيعة ، وضَوارىَ الكون . . .

فرسالتها فى المنزل : تمسحُ عرق آدم ، وتخفف عنه متاعب يومه ، وتكون له سكنا ، ومأوى ، يأوى إليها ، وهو متعب مكدُود فيجد الراحة، والهناءة ، والبسمة ، وحسن الاستقبال ، والمؤانسة ، وكرم العشرة . . . وقضاء الوَطَر .

وهى تقوم على أمره كلّه : تنضج طعامه ، وتنظف بيته ، وترتب أثاثه ، وتعنى بكل شئونه ، وتكون لأولادها المعلمة الأولى ، والمربية الفُضْلَى ، والحفيظة على تعاليم آدمَ ، وتقوم على غرسها فى الناشئة ، وهى التى تعلم أولادها اللغة ، التى علمها الله (عز وجل) آدم ، وأخذتها عنه حوَّاء ، وسمعها منها بَنُوها ، وبناتُها ، فحاكوها ونطقوا بمثل ما تنطق به ، وتُرَبِّى ضمائرهم منذ نعومة أظفارهم ، وتغرس فيهم الإيمان السليم ، والسلوك المستقيمَ ، والعادات الفاضلة . . .

---

(١) الآيتان ١١٨ ، ١١٩ من سورة طه .

وإذا كانت الزوجة السكن فإن عَلاقة الزوجية ، والمعاشرة على تقوى الله تعالى ، تغرس المودة ، والرحمة بين الزوجين ، وتظل الزوجة تْروى شجرة المودة ، والرحمة بماء الحنان ، ويظل الزوج يتعهدها ، ويذود عنها كل ضارّ حتى تؤتى ثمارها الطيبة : هناءة عيش ، وطيب عشرة ، ونجابة أولاد [١] .

٢ - **هذا بالنسبة للزوجين** ، فقد نشأت بينهما بالبناء بالزوجة ، وفى عش الزوجية أكرم علاقة اجتماعية ، هى : **علاقة الزوجية** ، وما يترتب عليها من آثار طيبة . . .

أما بالنسبة للأسرتين : أسرة الزوج ، وأسرة الزوجة فإن علاقة تنشأ بينهما ، هى علاقة العَزْو ، والنَّسَب ، إذ تعتز كل أسرة بالأخرى ، وقد تعد ذلك من مفاخرها ، وتباهى كل أسرة بما وصلت إليه بالزواج السعيد .

هذه الآصرة القوية فى المجتمعات ، وتلك العُرْوة الوُثْقَى بين العائلات قد ينشأ عنها حب ، وتعاون فى كل مجالات الحياة . . .

وهذه العلاقات : وهى علاقة النسب قد تترقى - بصلاح الأسرتين ، وتقواهما - إلى مرتبة اجتماعية أرْفَع ، **وعلاقة أقوى هى : الصّهْر** ، **والمَزْج** فى بوتقة الحُبّ . والتعاون ، فتكون الأسرتان أسرة واحدة : فى الحب ، والتعاون ، والتناصر ، والتناصح ، ونقل الخبرات ، وفى شتى مجالات الحياة . . .

وكلما كان ذلك فى اغتراب كانت الثمار أشهى ، وكان الأَكُل طيبًا، . . وآية ذلك : قول الله تعالى : « وَهوَ الَّذى خَلَق مَنِ الْمَاءِ بَشَرًا ، فَجَعَلَهُ نَسَبًا ، وَصِهْرًا » [٢] .

وعلينا أن نفسر كلمة « صِهْر » : حتى تظاهر اللغة ما ذهبنا إليه

---

(١) انظر كتابنا المرأة عبر العصور بين هوان الجاهلية ، وعزة الإسلام فيما يتعلق بالسّكن ، والمودة ، والرحمة .

(٢) من الآية ٥٤ من سورة الفرقان . . .

من المزج ، والصهر بين الأسرتين : فى معجم مقاييس اللغة ، مادة (صَهَر):

« الصاد ، والهاء ، والراء : أصلان : أحدهما يدل على قُرْبى ، والآخر على إذابة شىء ، **فالأوَّل** : الصِّهْر : وهو الختنَ ، قال الخليل ، لا يقال لأهل بيت الرجل إلا أختان ، ولا لأهل بيت المرأة إلا أصهار .

ومن العرب من يجعلهم **أصْهَارًا كلَّهم** ، قال ابن الأعرابىّ : الإصهار الحَرّم ، بجوار ، **أو نسب** ، **أو تزوج** » .

وذلك : كله يدل على ما ذهبنا إليه من الصهر فى بوتقه الحب ، والتعاون ، . . .

وفى المعجم الوسيط ، مادة (صهر) :

« . . . صَاهَر القوم ، وفيهم ، وإليهم أصْهَر » .

وفى القاموس المحيط ، مادة (الصِّهْر) :

« . . . وقد صَاهَرهم ، وفيهم ، وأصَهَر بهم ، وإليهم صار فيهم صِهرًا . . . » .

وجميل قول القرطبى : « فجعله نَسبًا ، وصِهرًا) : النسب ، والصهر معنيان ، يعمان كل قُرْبَى بين آدميَّيْن . . . لأنَ الله أمْتَنَّ بالنسب ، والصهر على عباده ، ورفع قدرهما ، وعلق الأحكام فى الحلِّ ، والحرمة عليهما ، فلا يلحق الباطل بهما ، ولا يساويهما » [1] .

وإن كتاب الكون المفتوحُ لنقرأ فيه أسَرًا صهرها الزواج ، فصارت أسرة واحدة فى كل شىء ، يرفرف عليها الحب ، ويظللها التعاون على البر، والتقوى . . .

ونخلص من ذلك ، ونقول :

إن الله تعالى جعل أساس الحياة السعيدة يكمن فى الحب ،

---

(١) ٦/ ٤٧٧٥ الجامع لأحكام القرآن . . .

والتعاون، فإذا فرّقت المطامع الناس ، وزرعت بينهم حقول البغضاء ، وقَصَّروا عن التعاون فإن الله (عز وجل) يردُّهم بحكمته ، وقدرته إلى الحب ، والتعاون مرة أخرى ، وذلك بالزواج ، والنسب والمصاهرة . . .

٣ - الأسرة مملكة صغيرة :

الأسرة كيان اجتماعيّ ، تتربى فى ظله أسمى العواطف ، الإنسانية ، والصفات السامية ، والإعلاء بالدوافع الفطرية ؛ ليسمو الإنسان إلى درجته فى الوجود ، التى كرمه الله ، وفضله على كثير ممن خلق تفضيلا . . . لأجلها . . .

فالعَلاَقات الاجتماعية تولد فى الأسرة الأولى ، وإنها كشجرة أصلُها ثابتٌ فى عُشّ الزوجية ، والتى تتعهدها بالرعاية ، والرى ، حتى تسمن ، وتمتد الغصون ، والفروع ، وتؤتى الظل الظليل ، والجنى الطيب للأسرة ، وللمجتمعات . . .

فعلاقة الزوجية : تولد فى الأسرة . . .

وعلاقة الأمومة : تنشأ فيها - أيضا . . .

وعلاقة الأبوة : تتنفس أول نفس لها فى الأسرة . . .

وعلاقة الأخوة : ثمرة من ثمار الأسرة . . .

ثم تمتد العلاقات فى المجتمع الصغير ، والمجتمع الكبير ، والمجتمع الأكبر ، الذى يشمل الإنسانية جمعاء . . .

وعلاقة العمومة ، والخئولة ، والأجداد ، والجدات ، وأولى الأرحام. . . كل وتلك فروع تحمل أشهى الثمار للمجتمعات الإنسانية. . .

وفى الأسرة تولد ، وتتعهد الصفات السامية ، والخصال الراقية : فالمودة ، والرحمة ، والإيثار ، والتعاون ، وحب الخير للغير ، والعمل الجماعيّ ، والعمل من أجل الجماعة ، والفريق . . . وما إلى ذلك من

الصفات الراقية ... وأساس كل ذلك الإيمان العميق ، والاعتقاد السليم .

جميع ما تقدم : مما ذكرنا ، ومما لم نذكر ... ثمرة من ثمار الزواج السعيد ، الذى أسِّس على التقوى ، وعلى رضوان الله تعالى ...

والأسرة بهذا : مملكة ، وإدارة ، ولابد لكل إدارة مهما صغرت أن يكون لها من يديرها ، فالسفينة لابد لها من سكان ، ولابد للسكان من مدير ، والأسرة قِطار ، ولابد له من سائق .

وهذا أمر رأيناه فى الطبيعة ، وفى الكون ، ونبه إليه الرسول العظيم من تأمير واحد على الجماعة الصغيرة [1] فإذا رأيت سرباً من الطير ، يطير فى جو السماء لمحت له قيادة لا تتخلى عنها البقية ...

ومثل ذلك : تشاهده فى النمل ، والنحل ، وفى كثير من أكلة الأعشاب فى حياة البرارى ، عند ارتياد الماء ، أو الحرص على الصغار ...

وإذا كان ذلك فى كائنات ، هى أمم أمثالنا ، كما جاء فى الذكر الحكيم ، والتى تصرفها غرائزها التى ركبها الله (عز وجل) فيها ...

فليكن الأمر أوضح ، وأوجب ، وألزم فى الإنسان ، الذى فُضِّل بالعقل ، وخص به ، وتعهدته السماء بالوحى المتصل على المعصومين من الرسل ، وعلى العظماء من الأنبياء ...

والله (عز وجل) العليم بِمَنْ خَلَقَ ، وهو اللطيف الخبير قد زاد فى عقل الرجل ، وقابل ذلك زيادة فى عاطفة المرأة ... وذلك بموازين الله (عز وجل) الدقيقة ...

والعقل أقدر على تصريف الأمور ، والموازنة بينها ، وعلى قياس

---

(١) والرسول الأمين حريص – كل الحرص – على سلامة الريادة ، وأمور الجماعات ...

فطلب منا إذا كنا ثلاثة فى سفر فإن اختيار أحد الثلاثة للقيادة أمر مطلوب لمصلحة الجماعة ... ويزداد الطلب قوة إذا كان العدد أكثر من ذلك ، حتى لا ينفرط عقد المجتمعات ...

الأشباه ، والنظائر ، واستخدام الخبرات النامية التى تعدل السلوك : ما استند كل ذلك إلى إيمان يجعله يرى بنور الله (عز وجل) والذى يظن الظن فى الشىء كأنه قد رأى وقد سمع صوابه ، وسداد الأمر فيه . . .

لهذا كله : جاء توجيه علام الغيوب ، بأن تكون القوَامة بين الزوجين للرجل لما قدمنا ، ولما جاء التعليل له فى الآية الكريمة فى قوله تعالى : « الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ ، بِمَا فَضَّلَ اللهُ بَعْضَهُم عَلَى بَعْضٍ ، وبِمَا أنْفَقُوا مِنْ أمْوَالِهِمْ . . . » (١) .

ويقول جار الله الزمخشرى :

« يقومون عليهن آمرين ناهين ، كما يقوم الولاة على الرعايا ، وسُمُّوا قُوَّامًا لذلك . . . **يعنى** : إنما كانوا مسيطرين عليهن بسبب تفضيل الله بعضهم ، وهم الرجال على بعض ، وهم النساء . . . **وقد ذكروا فى فضل الرجال** : العقل ، والحَزم ، والعزم ، والقوة ، والكتابة – فى الغالب، والفروسية ، والرمى ، وأن منهم الأنبياء ، والعلماء ، وفيهم الإمامة الكبرى، والصغرى ، والجهاد ، والأذان ، والخطبة ، والاعتكاف ، وتكبيرات التشريق عند أبى حنيفة ، والشهادة فى الحدود ، والقصاص ، وزيادة السهم ، والتعصيب فى الميراث ، والحمالة ، والقسامة ، والولاية فى النكاح ، والطلاق ، والرجعة ، وعدد الأزواج ، وإليهم الانتساب ، وهم أصحاب اللِّحى ، والعَمَائم . . . » (٢) .

مع بذل النفقات فى المهر ، والطعام ، والشراب ، والكسوة ، والسكنى . . .

والنفس البشرية راغبة إذا رغِّبت كما يقال :

فإن **الرجال** رَنَوْا إلى رتبة أعظم : هى : أن يُعْطَوا على الأعمال من الثواب مثل حظِّى النساء ، كالميراث . . .

---

(١) من الآية ٣٤ من سورة النساء .

(٢) ١ / ٥٠٥ الكشاف . . .

والنساء تطلعن إلى أكثر مما أعطاهن الإسلام [١] . . . ولكن : ليت الله كتب علينا الجهاد . . .

فجاء قول الله تعالى ناهيًا كلاً من الرجال ، والنساء عن التطلع إلى قسمة لم يقسمها مَنْ خَلَقَ وهو يعلم من خلق ، فقال (عز وجل) :

« ولا تَتَمنَّوا ما فَضَّل الله به بعضَكُم عَلَى بَعْضٍ : للرِّجَال نصيبٌ مما اكْتَسَبُوا ، وللنِّسَاءِ نَصيبٌ مَمَا اكْتَسَبْنَ ، واسأَلُوا الله مِنْ فَضلِه : إنَّ الله كانَ بكلِّ شيءٍ عَليماً » [٢] ويقول جار الله :

« نُهُوا عن التحاسُد ، وعن تمنى ما فضل الله به بعض الناس على بعض من الجاه ، والمال ؛ لأن ذلك التفضيل قسمة من الله صادرة عن حكمة ، وتدبير ، وعلم بأحوال العباد ، وبما يصلح المقوم له من بسط فى الرزق ، أو قبض . . . فعلى كل أحد أن يرضى بما قسم له ، علما بأن ما قسم له هو مصلحته ، ولو كان خلافه لكان مفسدة له . . .

ولا تتمنوا أنصباء غيركم من الفضل ، ولكن سلوا الله من خزائنه التى لا تنفذ » [٣] .

ومن ذلك : ينبغى أن يكون الرضا بالمقسوم خليقة كل رجل ، وكل امرأة . . .

٤ - الحقُوق المقدَّسَة ، التى تمكن الأسرة من أداء دورها الاجتماعىّ ، والإنسانىّ :

وعلينا أن نضع الخطوط التى يبْتَغِى مراعاتها ، والحرص عليها حتى تكون الأسرة أسرة مثاليَّة يعتز بها الأهل ، والأقارب ، ويسعد بها المجتمع ، وتكون نموذجا للأسرة التى ترعى آداب الإسلام ، وتقوم على دستوره ،

---

(١) انظر المزايا التى كرم الله تعالى بها المرأة فى الإسلام ، وهى خمس وعشرون مزية فى كتابنا : المرأة عبر العصور .

(٢) الآية ٣٢ من سورة النساء .

(٣) ١ / ٥٠٤ الكشاف .

والتى تكون لبنة قوية فى صَرْح المجتمع الإنسانى ، الذى يسعى إلى الكمال فى كلٍّ النواحى ، ويحقق الأمن ، والأمان ، والغنى ، والسلام العام **فنقول :**

أولا :

حقوق مشْتَركَةٌ بين الزَّوجين : منها ما يلى :

١ – **صدق القصد** ، والنية فى استمرار الحياة الزوجية ، وقيامها على الإيمان الصادق ، والسلوك السليم ، والرضا الذى يهوِّن أمر الحياة ، والقناعة – كل القناعة – التى تكسب الرضا ، وتقتنع بالقليل ، حتى يأتى وعْدُ الله (عز وجل) بالسَّعة ، والخير الوفير ... وما سمىّ الصَّداق صداقًا إلا لصدق الزوج فى الرغبة الصادقة فى إقامة عش الزوجية السعيد ، والإستمرار فى الحياة إلى أجلها المسمى .

٢ – **تحقيق السكن** : الذى يحقق للزوج سكنَه بعد بياض يوم حافل بالعمل ، وبعد السكون إلى زوجة جعلها الله (عز وجل) سكنًا فى لَيْل جعله الله سكنًا أيضًا ولبَاسا ...

فإذا جاء الصباح توجه كل من الزوجين لأداء رسالته فى عمارة الكون ، وجلب الرزق ، وتحويله إلى غذاء ، وكساء ، وشبع ، ورَفَة ... فى إطار ما رسم لعمل كل من الزوجين على حسب قدراته ، وطاقاته ، وملكاته ... ، وفى مجال عمله : فى البيت ، أو فى خارجه ...

٣ – **تأكيد** المودة المتبادلة ، والرَّحمة المتداَولة بين عمودى الأسرة .

٤ – تكوين العواطف السامية ، وفى مقدمتها الحب ، الذى هو أساس الحياة كلها ...

٦ – حرص كل من الزوجين على كتمان سرهما ، وعلى عدم إفشاء ذلك لأحد ، وصدق الله العظيم : « ... وأَفْضَى بعْضُكُم إلَى بَعْضٍ »[1] .

---

(١) من الآية ٢١ من سورة النساء .

ويقول جار الله : « ... والميثاقُ الغليظ : حقّ الصحبة ، والمضاجعة، كأنه قيل » وأخذن به منكم ميثاقا غليظا ، أى : بإفضاء بعضكم إلى بعض ، ووَصَفَه بالغلَظ : لقوته ، فقد قالوا : صحبة عشرين يوما قرابة ، فكيف بما يجرى بين الزوجين من الاتِّحاد، والامتزاج »[١] ؟

وفى صفوة البيان : « ... (أَفْضَى بعضكُم إِلى بَعْضٍ) : وصل بالوقاع ، أو الخلوة ،الصحيحة (ميثاقًا غَليظًا) : عهداً وثيقًا »[٢] .

وجاء فى صحيح مسلم : « ... إنّ منْ أشَرِّ النَّاسِ منزلةً يَوْم القِيَامَةِ : الرجُّل يُفْضِى إِلى امرأته ، وتُفْضِى إِلَيْه ، ثُمَّ ينشُر سِرَّهَا »[٣] .

ويقول الإمام النَّوَوِىّ فى الشرح : « ... فى هذا الحديث تحريم إفشاء الرجل ما بينه ، وبين امرأته من أمور الاستمتاع ، ووصف تفاصيل ذلك ، وما يجرى من المرأة فيه ، من قول ، أو فعل ، أو نحوه .

فأما مجرد ذكر الجماع : فإن لم تكن فيه فائدة ، ولا إليه حاجة فمكروه ؛ لأنه خلاف المروءة »[٤] .

ونقول :

إنما جاء النهى ، والتحريم عما تقدم ؛ لأنه خلاف الأصل ، إذ الأصل فى مثل ذلك الكِتْمَان ، فالذيوع خلاف الأصل ، ولما يجرٌ إليه ذلك الإفشاء من توقع المفاسد ، وأقلها تعلق أخريات بالرجل ، وآخرين بالمرأة ، فى حالة الفحولة ، والصحة ، وفى حالة الضعف لما يجر إليه هذا الإفضاء من تقويض الحياة الزوجية ، وإلحاق الأضرار ببناء الأسرة ... وفطنة السوء .

ونقيس على ذلك : إفشاء الأسرار الأخرى المتعلقة بالرزق ، ونظام حياة البيت ، والأسرار التى يودعها من الزوجين للطرف الآخر ... لما

---

(١) ١/٤٩٢ الكشاف .

(٢) ص ١١١ صفوة البيان .

(٣) ٣/٦١١ صحيح مسلم ...

(٤) ٣/٦١١ صحيح مسلم بشرح النووى .

يجره ذلك من تفكك الحياة الزوجية ، وينعكس الأثر ، والضرر على حياة الأسرة ، والمجتمع ...

فالعلة تدور مع المعلول وجوداً ، وعدمًا ، والأصل الذى تجب رعايته: أنه لا ضرر ، ولا ضرار ...

وكلما حافظ الزوجان على أسرارهما ازدادت قوة الروابط ، وقوِى الحرصُ على استمرار الحياة ، وسعادتها ...

٧ – الغيرة المحمودة :

والغيرة : فضيلة بين رذ يلتين : التسيّب ، والمغالاة .

والغيرة المحمودة : هى أن يحرص كل من الزوجين على صاحبه – فى إطار ما جاء به الشرع الحنيف ، دون مبالغة تنقلب إلى شكوك مدمِّرة ، وإلى حياة متصدعة ، وإلى عش زوجية يتهاوى بمعاوِل الغيرة ، ولا تنقلب إلى تسيب ، وتفريط ، ينزل بمن فضله الله على غيره عن دركات الحيوان .

وفى معجم مقاييس اللغة : مادة (غير) : « الغين ، والياء ، والراء أصلان صحيحان : يدل أحدهما على صلاح ، وإصلاح ، ومنفعة ... ومن هذا الباب : الغيرة : غيرة الرجل على أهله ، تقول : غِرْتُ على أهلى غيرةً ، وهذا عندنا من الباب ؛ لأنه صلاح ، ومنفعة ... »

فالغيرة – على ذلك – تعنى أكثر من المعنى الشائع بيننا ...

وفى اللسان ، مادة (غير) :

« ... وغَارَ الرجُل على امرأته ، والمراد على بعلها تغار غيره ، وغيرا ، وغاراً ، وغياراً ... وغيور : فَعُول من الغيرة وهى : الحِمْيَة ، والأنفة .... » .

وفى كلام ابن منظور ما تصلح إضافته إلى ما ذكر ابن فارس فى معجم مقاييس اللغة ... ونخلص من ذلك :

إلى أن غيرة الرجل أنفة من النظر إلى حِمَاه ، وإصلاح لأهله ، وقيام بما يجب القيام به ...

وغيرة المرأة : حرص على زوجها ، وإبقاء لما يملكه لها ، ولأسرتهما، وغيرة المرأة – فى الأعم الأغلب – تنكسر حدتها ، بل تختفى أمام سلوك الزوج القويم .

وفى ذلك : تماسك الأسرة ، وخير الأجيال . . .

وأساس ما تقدم كله الدستور السماوىّ « الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بما فضَّلَ اللّهُ به بعْضَهُم عَلَى بَعْضٍ . . . » [1] .

وقد تقدم تفسير ذلك . . . وأغراضه . . .

وروى البخارى عن رُواته إلى سيدنا ، ومولانا رسول الله (ﷺ) :

« . . . قال سَعدْ بنُ عبُادَة : لو رأيتُ رجلا مع امرأتى لضربته بالسيف ، غير مُصْفح . فقال النبى (ﷺ) : أتَعْجَبُون من غَيْرَة سَعْدٍ ؟ لأنَا أَغْيرُ منْهُ ، والله أغَيَرُ منِّى » [2] .

والغيرة : « . . . مشتقة من تغير القلب ، وهيجان الغضب بسبب المشاركة فيما به الاختصاص ، وأشد ما يكون ذلك بين الزوجين » [3] .

ولقد كان سيّد الخزرج : سعد بن عُبَادة غيوراً شَديدَ الغَيْرَة ، ولقد صدر منه هذا الكلام بسبب غيرته الشديدة ، وأنه لا يستطيع أن يأتى بإشهاد ، يثبت به الواقعة ، وإنما تطيش يده بالسيف فيضرب رقبة من يأتى الفاحشة بحَد السيف ، للقتل ، لا بصفحته للتأديب ، والرسول الأمين : جعل غيرته أقل خطرًا ، وشأْنًا من غيرة الرسول الأمين ، ومن غيرة الله (عز وجل) .

والأسَاس النفسى للغَيْرة ينبع من دافع السيطرة ، ومن دافع حب التملُّك . . .

---

(١) من الآية ٣٤ من سورة النساء .

(٢) ١٩ / ٣٨١ ، ٣٨٢ فتح البارى . . .

(٣) ١٩ / ٣٨٠ فتح البارى . . .

والدافعان – مع الإعلاء بهما ، ورياضتهما على قواعد الشريعة السمحاء يدعوان لعمارة الكون ، وللعمل الدءوب لتحقيق التطلعات ، والأهداف . . .

وعند التجاوز ، أو التسيب يأتى عكس ما تقدم . . .

والذى نؤصى به: وصايا نابعة من الشرع الحنيف، وقواعد السلوك ، والأخلاق الحميدة ؛ لتسير الحياة إلى أجلها المسمَّى ، وترقى الأسر ، والمجتمعات ما يلى :

– عفة لسان الزوج ، وفرجة ، وكل ما يتعلق بقواعد السلوك السليم : فلا يذكر بلسانه ما يمكن أن تطلّ منه قرون الغيرة . . . فلا يذكر بلسانه اسم أنثى فى أسرته إلا المحارم ، ولا يعلق على منظر يشاهده ، ولا يوازن بين جمال ، وجمال ، مع إظهار الرضا التام بما منحه الله تعالى من الزوجة .

– أن يكون قدوة فى اعتقاده ، وقوله العفّ ، ولسانه البرئ من عقارب الغيبة . . . وفى سلوكه الخاص ، والعام ؛ ليبعد عن نفسه الشكوك ، ويكون القدوة العملية للزوجة ، والأولاد . . .

– أن يكون حليمًا ، رحيمًا ، رءوفا يوجه بقدوته أكثر من قوله ، وأن يتحلى بفاضل الأخلاق لتشيع الصفات الحميدة فى زوجته ، وأسرته ، ومن يحيطون بهما . . .

– أن يؤدى واجب الزوجية ، حتى لا يقع فى حظيرة الاتهام ، وتنتشر سموم الغيرة . . .

– أن يقى نفسه ، وأهله النار : بالقدوة ، وكريم التوجيه . . .

– ألا يرفع سوطه عن أهله : بمعنى المتابعة الدقيقة ، والنقد الذاتى ، والتوجيه المستقيم . . .

– أن يعطى بيته بعض وقته ، وأن يكون مُتَوَازنا فى شئونه ، وازِنًا بموازين الله (عز وجل) ، صَادِعًا بأمر الرسول الأمين لعبد الله بن عمرو

(رضى الله عنهما) « . . . صُمْ ، وأَفْطر ، وقُمْ ، ونَمْ ، فإن لجسدك عليك حقًّا ، وإن لعينِكَ عَلَيْكَ حقًّا ، وإِنَّ لزَوْرِكَ عَلَيّكَ حقا . . . »[1] .

وما جرى في قصة سلمان ، وأبى الدرداء (رضى الله عنهما) فقد قال سلمان لأبى الدرداء ، ناصحا له لعنايته ببعض الجوانب ، وتفريطه في بعضها : « إن لربك عليك حقا ، ولأهلك عليك حقا ، فأعط كل ذى حق حقه ، فأتى النبى (ﷺ) فذكر ذلك له ، فقال النبى (ﷺ) صدق سلمان »[2] وذلك لما رآه سلمان من تبذُّل أُم الدَّرْدَاء ، وعدم عنايتها بنفسها .

وخلاصة القول :

فإنَّ السعيد - كلَّ السَّعيد - في الدنيا ، والآخرة مَنْ كانت موازينه عادلةً ، ووظَّف وقته في أداء العبادة على وجهها الصحيح ، وفي أداء واجبه في أسرته ، ورعاية أولاده ، والقيام بأمر أرحامه ، وأصلح معاشه ، وأدَّى عمله المنُوط به على خير وجه ، وأدى واجبه الاجتماعى خير أداء ، وحقق آماله بالأعمال المثمرة الخلاّقة ، ولم يجعل ناحية تقوى على حساب ضعف أخرى ، ولم يفرط في أداء حق وجب ، ولم يُضِعْ وقته فيما يعود عليه ، وعلى أسرته ، ومجتمعه بالضرر . . .

ذلك هو الزوج المثالىّ ، الذى عَمِل ليومه ، ولغده ، ولدنياه وآخرته .

٨ - اتجاه الزوجين اتجاها بنَّاءً لخيرهما ، وخير أولادهما . . .

وفى ذلك نقول :

الزَّوَاج رباطٌ مُقَدَّس ، وظلٌّ ظليل ، وفى ظلّه ينبغى أن يكون الزوجان

---

(١) ٩ / ٥٢ ، ٥٣ فتح البارى . . . وانظر قول الرسول الأمين لابن عمرو - أيضًا - « صم ، وأفطر ، وقم ، ونم ، كان لجسدك عليك حقًّا ، وإن لعينك عليك حقا ، وإن لزوجك عليك حقًّا » ١٩ / ٣٥٧ / ١٩ فتح البارى .

(٢) ٩ / ٣٩ ، ٤٠ ، ٤١ ، ٤٢ فتح البارى . . .

على قلب رجل واحد ، ويتجهان اتجاها واحداً ، ويصدران عن توافق ، وإقناع ، واقتناع ...

ونكلّف الأيام ضد طباعها إذا قلنا ببلوغ تلك المرتبة بسهولة ، وذلك : لاختلاف الأمزجة ، وتباين الرغبات ...

وهنا يأتى دور الزوجة التى اختيرت على الدين ... إذ أنها فى هذه الحالة تؤمن بطاعة زوجها طاعةً لربَّها ، وأملاً فى مستقبل سعيد ، وفى عيشة راضية ...

وتحقق فى ذلك قول الأعرابية التى أوصت ابنتها ليلة زفافها ...

ومما جاء فى الوصية : أنها قالت لابنتها : واعْلَمى أنَّك لَنْ تبلغى مَا تُريدِيَن حتَّى تؤْثرى رضَاهُ على رِضَاك ، وهَوَاهُ عَلَى هَوَاكِ فيما أحْبَبْت ، وكَرِهْتِ ... فالزوجة التى تؤثر رضا زوجها على رضاها ، وهواه على هواها ، وتكون لزوجها أمة يكون لها عبداً – كما قالت الأعرابية [١] .

وفى ذلك : ازدهار حياة الأسرة ، وأمانها فى يومها ، وغدها ، وسعادتها الوارفة الظلال .

وفى هذا الشأن :

– نوصى بأن يتحسَّس كل من الزوجين رغبة الطرف الآخر ، فيعمل عليها ، وينفِرَ مما يكدِّر صفو الحياة ويعمل على ذيوع تفرق الرأى .

وعلى كل من الزوجين العمل الدءُوب على تحقيق رغبات الطرف الآخر ...

– **ثبت بالتجربة** : أن الزوج الذى يطرح فكرته على زوجته ، ويتجاذبان أطراف الحديث ، وصولاً إلى رأى أنفع ، ومسلك أجدى ، ومذهب أنفع ... أن هذا الزوج يحيا حياة حقَّة ، ينعم فيها بالهناءة ، وينجابة الأولاد ...

---

(١) انظر الوصية وشرحها فى كتابنا « المرأة عبر العصور بين هوان الجاهلية وعزة الإسلام » .

– ومن الناحية الأخرى : ينبغى أن يكون الزوج كاسبًا ، مقتَّصدًا ، يسعى للخير الحلال ما أمكنه ذلك ، ويحقق فى الإنفاق الدُّسْتَور السماوى « . . . وكانَ بَيْنَ ذَلكَ قَوَامًا » (١) .

– على الزوجين : أن يدْرُسا موارد ميزانية الأسرة ، ووجوه الإنفاق معًا ، وأن يعملا – ما وسعهما الجهد – إلى الإنفاق المعتدل ، والاقتصاد المثمر للغد الذى يكون لهما فيه أولاد : مع تقدير الحاجات المتنامية : فى مجالات النفقة ، والتعليم ، ومتطلبات الزواج . . . وما إلى ذلك : مما ينبغى أن تُعدَّله العدة ، حتى لا تعترض سير الأسرة مفاجآت ، غير مسحوبة لها ، تعوق مسيرة حياة الأسرة .

وعلى الزوجة : ألا تكون طُلَعَة : تتطلع إلى ما متَّع الله به أَزْواجًا من الناس ، وتلح فى طلب مثل ذلك ، مما يُرهق الزوج ، ويوقع الأسرة فى براثن الدَّين ، وقد يقود ذلك إلى انحراف الزوج عن جادة الصواب ، وفى ذلك خسران الدنيا ، والآخرة ، وهدم الأسرة ، وتشريد الأطفال ، وجر البلاء على المجتمع . . .

– على الزوج أن يحقق فى أسرته وصايا الفضلاء من السابقين ، فقد كانوا يقولون لأسرهم : صلاتكم ، صيامكم ، صدقاتكم ، جيرانكم . . . وكان الأولاد يقولون : يا آبانا :إننا نصبر على الجوع ، ولا نقوى على النار ، فلا تطعمنا حرامًا . . .

– على الزوج ، والزوجة – متعاونَيْن – تربية الضمير فى النشىء ؛ لأن تربية الضمير تبدأ من منتصف السنة الثانية من العمر ؛ لأن الطفل ، أو الطفلة ، يكونان كما قال الذكر الحكيم « والله أَخْرَجَكُم منْ بُطُون أمهاتكُم لا تَعْلَمُونَ شَيْئًا ، وجَعَلَ لكُم السمعَ ،والأبْصَارَ ، والأفئِدَةَ »(٢).

---

(١) من الآية ٦٧ من سورة الفرقان .

(٢) من الآية ٧٨ من سورة النحل .

وهى منافذ على الحياة ، والطفل لا يدرك الخير والشر . . .

فإذا أتى سلوكا محموداً ، وشُجِّع عليه جعل ذلك فى حقيبة ما ينبغى أن يُفْعَل ، وإذا أتى عملاً على العكس ، ونُهِرَ عليه وضع ذلك فى حقيبة مالا ينبغى أن يُفْعَل ، وأخذ التربية السليمة ، وتربى ضميره على الحق ، والخير . . .

وعلى العكس من ذلك : يتربى ضميره تربية معكوسة ، وتنقلب لديه الموازين فى مستقبل حياته ، والوالدان معا : يهوّدان المولود ، أو ينصرانه ، أو يمجسانه ، أو يجعلانه مؤمنا قوى الإيمان ، سليم العمل ، مستقيم السلوك . . .

– على الزوجين معا أن يحققا مضمون المثل القائل الساير : « إذا عزَّ أخُوك فُهْن » .

– عليهما معا أن يعلما أن الحياة الزوجية حقوق ، وواجبات ، وأن يعملا لذلك . . .

وفى هذا الشأن نفرد لكل منهما حقوقه قبل الطرف الآخر ، فنقول :

أوَّلاً : حقوق الزوج على زوجته :

١ – السّمع ، والطاعة :

وذلك لما قدمنا من القِوَامَة ، التى جعلها الله (عز وجل) للرجل ، لما زيد فى عقله ، للتوازن لما زيد فى عاطفة المرأة ، ودلك : لقيام كل منهما بدوره المنوط به ، شرعا ، وعرفا ، وعادة .

وقد تكلمنا عن أسباب قوامة الرجل فيما سبق ، وبينا أن الأسرة مملكة ، أو إمارة ، ولابد لمثل ذلك من أمير ، يدير دفة الأمور . . .

ونضيف إلى ما سبق : أنه لا ينبغى أن تكون هذه الإمارة فى صورة أو امر تلقى ، وإنما تكون فى طرح الأفكار ، وما تتطلبه الحياة ، ويتم

---

(١) ١ / ٢٤ المثل السابر .

التشاور بصورة طيبة فيها إقناع ، واقتناع ، وفيها بنيان مصلحة الأسرة فى الأمر الذى يرتضى ... فإذا ما تم ذلك فَعَلى الزوجة أن تسمع ، وتطيع ، وأن تنفذ تنفيذا أمينًا ، وواعيا ، ودقيقا ... لتسير سفينة الحياة إلى بر الأمان ، وشاطىء الاطمئنان ...

وهنا يعن للباحث سؤال :

متى يكون السمع ، والطاعة ؟

ولقد تقرر فى أصول الشرائع، وخاتمتها شريعة الإسلام : أن السمع ، والطاعة فيما فيه لله (عز وجل) رضا ، وفيما لا يضر مصالح الآخرين ، إذ لا ضرر ، ولا ضرار ، وفيما لا يكون معصية ، أو يجر إليها ...

فإذا كان الأمر فيه شائبة مما تقدم ذكره ، فلا سمع ، ولا طاعة ، وقد جاء التشريع بذلك فى قوله (ﷺ) : للمرأة التى أمر زوجها أن تصل فى شعر ابنتها فقال (ﷺ) : « لا ؛ إنه قد لعن الموَصلاتُ »[(١)] .

ويترجم لذلك شيخ الإسلام ابن حجر ، فيقول « باب : لا تطيع المرأة زوجها فى معصية » . ومما جاء فى شرح الترجمة : « ... فلو دَعَاهَا الزوج إلى معصية فعليها أن تمتنع ، فإن أدبها على ذلك كان الإثم عليه »[(٢)] .

وهنا نقول : إن ذات الدين تعمل – فى اقتناع ، ويسر – ما أباحه الشرع الحنيف ، فإن لم تكن إباحة ، وكان الخطر ، استطاعت بوحى من دينها ، وسماحة نفسها أن تقنع زوجها ، وتبين له مغبّة العاقبة ، وقد يأتى الاقتناع منه ، وتسير الأمور سيرها الموفّق .

٢ – عدم إذن الزوجة لآحد فى بيت زوجها ، إلا بإذنه :

وذلك لقوله (ﷺ) : « ... وَلاَ تَأْذَن فى بَيْته إلاَّ بإِذْنِه »[(٣)]

---

(١) ١٩/٣٦٣ فتح البارى .

(٢) ١٩/٣٦٣ فتح البارى ...

(٣) ١٩/٣٥٤ فتح البارى .

ويراد بالإذن الإذن الصريح - كما ذكر ابن حجر .

وفي صحيح مسلم : « ... ولا تَأْذَنْ في بيته وهو شَاهْد - إلاَّ بإذنه » [1] .

ويقول النووىّ : « ... فيه إشارة إلى أنه لا يفتات على الزوج ، وغيره من ما لكى البُيُوت ، وغيرها بالإذن فى أملاكهم إلا بإذنهم » [2] .

ولعلَّ سبب المنع فى ذلك : أن البيت إمارة ، وإدارة ، وذلك : لأمير البيت ، وهو البعل ، محافظة على سلامة العشرة ؛ ولأن المرأة قد لا تدرى أحوال الناس ، وأخلاقهم فربما أذنت لمن لا تُرْتَضَى خلائقه ، وفى ذلك ما فيه من الظنُون ، ولأنها - أيضًا - قد لا تعلم أهل الخير ، وأهل السَّوْء ؛ لعدم اختلاطها بالمجتمع ، ولأن دخول غير المأذون له قد ينقل أسرار البيت ، وعوراته إلى خارج البيت ... وغير ذلك .

مما يمثل السُّوس الذى ينخر فى عظام الحياة الزوجية الآمنة ، ويعرضها للهزات والضياع ، وسوء العشرة .

٣ - استئذان الزوج فى صوم التطوع ، إذا كان حاضراً :

وذلك لقول الرسول الأمين : « لا يحلُّ للمرأة أن تصومَ ، وزوجها شَاهِدٌ ، إلاَّ بإذنه ... » [3] .

ويقول النوَوِىّ : « ... هذا محمول على صوم التطوع ، والمندوب ، الذى ليس له زمن معيَّن ، وهذا النهى للتحريم - صرح به أصحابنا .

وسببه أن الزوج له حق الاستمتاع بها فى كل الأيام ، وحقه فيه واجب على الفور ، فلا يفوته ، بتطوع ، ولا بواجب على التراخى .

فإن قيل : فينبغى أن يجوز لها الصوم بغير إذنه ، فإن أراد الإستمتاع بها كان ذلك له ، ويفسد صومها .

---

(١) ٣/٦٥ صحيح مسلم .

(٢) ٣/٦٥ شرح صحيح مسلم .

(٣) ٣/٦٥ صحيح مسلم .

فالجواب : أن صومها يمنعه من الاستمتاع فى العادة ؛ لأنه يهاب انتهاك الصوم بالإفساد »[١] .

ما أعظم شرع الله (عز وجل) : فإنه بميزان محكم ، وفى تقدير مقنَّن ، (تعالى الله عما يقول الظالمون عُلُوًّا كبيراً) :

إذ أنه عند ما يتعارض أمران : أحدهما يُفَوِّت الآخر ... فإن الشرع الحنيف يختار ما فيه مصلحة العباد،وما يجعل العُرَى بينهم وثيقة ؛ لأن الله تعالى غنى عن العالَمين .

وهنا : لله (عز وجل) فى صوم التطوع رِضًا ، وتقرب منه ، وطريق إلى حب الله تعالى ، وصَعُود فى سلّم الولاية الكسبية ...

ولكن إذا تعارض هذا مع رغبة الرجل الملحة ، وشبقه المتسلط ، ودافعه الملحّ . فهنا : تأتى رحمة الرحمن الرحيم ، وغافر الذنب ، وقابل التوب ، فيسامح الله (عز وجل) أَمَتَه ، ويَرْضَى لها طاعة زوجها ، لما فى ذلك : من كسر حدّة الرغبة ، واستدامة العشرة ...

٤ - على المرأة أن تستأذن زوجها فيما تنفقه صدقةً :

لقول الرسول الأمين : « إذَا أنْفَقَتِ المرأةُ من طعَام بيْتِهَا - غَيْرَ مُفْسدةٍ - كانَ لها أجرُها بما أنفقت ، ولزَوْجها أجرُه بما كَسَب ، وللخازِنِ مثلُ ذلكَ . لا يَنْقُصُ بعضُهُم أجْرَ بَعْضٍ شَيئًا »[٢] .

وتقول : إن ذلك يكون عند الإذن الصريح ، وسماحة النفس ... أو عند جريان العرف ، وبعد الزوج عن الشح .

وقد فصل الإمام النووى القضية تفصيلا طيِّبًا ، فقال :

« واعلم أنه لابد للعامل ، وهو الخازن ، وللزوجة ، وللمملوك من

---

(١) ٣/٦٥ شرح صحيح مسلم .
(٢) ٣/٦٢ صحيح مسلم .

إذن المالك فى ذلك : فإن لم يكن إذنٌ أصلاً فلا أجر لأحد من هؤلاء الثلاثة ، بل عليهم وزر بتصرفهم فى مال غيرهم بغير إذنه .

والإذن ضربان :

أحدهما الاذن الصريح فى النفقة ، والصدقة .

والثانى : الإذن المفهوم من اطراد العرف ، والعادة ، كإعطاء السائل كسرة ، ونحوها مما جرت العادة به ، واطرد العرف فيه ، وعلم بالعرف رضاء الزوج ، والمالك به .

فإذنه فى ذلك حاصل ، وإن لم يتكلم .

وهذا إذا علم رضاه ؛ لا طراد العرف ، وعلم أن نفسه كنفوس غالب الناس فى السماحة بذلك ، والرضا به .

فإن اضطرب العرف ، وشك فى رضاه ، أو كان شخصا يشح بذلك، وعلم من حاله ذلك ، أو شك فيه لم يجز للمرأة ، وغيرها التصدّق من ماله ، إلا بصريح إذنه » (١) .

والتفصيل المتقدم فى غاية من الدقة ، والوضوح .

وإذا كان إذن الزوج غير صريح فى قدر معين ، وللزوجة إذن عام سابق ، متناول لهذا القدر ، وغيره ... فللزوجة نصف الأجر ...

والمراد : أجر مماثل ...

٥ - على المرأة أن تطيع زوجها إذا دعيت للفراش :

لقول الرسول الأمين (ﷺ) : « إذا دعَا الرجلُ امرأتَه إلى فِراشِه ، فأبت أن تجىءَ لَعَنتْهَا الملائكة حتى تصبح » (٢) .

وقوله (ﷺ) : « إذَا باتَتِ المرأةُ مُهَاجِرَةً فِرَاشَ زَوْجِهَا لعْنتَها الملائكةُ حَتَّى تَرْجعَ » (٣) .

---

(١) ٣/ ٦٢ ، ٦٣ النووى شرح صحيح مسلم .

(٢) ١٩/ ٣٥١ فتح البارى .

(٣) ١٩/ ٣٥١، ٣٥٢ فتح البارى .

ويؤخذ من كلام شيخ الإسلام ابن حجر فى الشرح ما يلى :

– **المراد بالفراش** : الكناية عن الجماع . . .

– الدعوة صادرة من زوج تجب طاعته ، وبخاصة فى مثل ذلك . . . إذا لعلّ الدافع له يكون قويًّا ، تصعب مغالبته ، وقد يكون الزوج قد تعرض لمثير ولابد من إطفاء الغلّة ، وكسر حدة الشبق

– الإباء صادر من المرأة ، والتى عليها الطاعة ، ولها مصلحة مشتركة .

– **غضب الزوج لما تقدم** : مسئوليته على المرأة ، وقد يجر ذلك إلى هجر ، هى سببه ، أو إلى ما هو أشد إثماً من ذلك .

– غضب الزوج يسبب لعنة الملائكة ، وتستمر حتى ترجع إلى زوجها – وهى رواية أكثر فائدة من رواية « تُصْبِح » لعدم زوال السبب ، الذى جاء من أجله اللعن ، وإنما يزول بزوال سببه ، وهو العودة إلى حظيرة طاعة الزوج .

– **فى إباء المرأة** : السير على عكس الفطرة ، ومنع مابه التناسل ، وهو المقصد الأسمى للزواج ، وعدم مساعدة الزوج على عفته ، وإكراه الرجل على صبر قد لا يحتمله ، وعصيان لله تعالى ، يستمطر اللعنات(١) .

٦ – رِعَايَةالمرأة بَيْتَ زَوْجها ، وَولِده :

فى إطار توزيع المسئوليات الحياتية التى بها تنهض الأسر ، وتسعد المجتمعات ، جاء الدستور السماوىّ يوزع الأدوار فى الأسرة الصغيرة التى نَوَاة المجتمع الكبير ، والمجتمعات الكبرى . . .

والنص فى ذلك : قول الرسول الأمين : « كلكُم رَاعٍ ، وكلُّكُم مَسْئُولٌ عنْ رَعِيَّته : والأميرُ راعٍ والرَّجُلُ رَاعٍ عَلَى أهْل بيتِهِ ، والمرأةُ رَاعيةٌ عَلَى بَيْتَ زَوْجِهَا ، وَوَلَده . . .

(١) انظر ١٩/ ٣٥١ ، ٣٥٢ فتح البارى .

فكلكُّم رَاعٍ وكلكم مَسْئُولٌ عَنْ رَعيَّتهِ »[١] .

وتفسير كلمة « رَاعٍ » :

جاء فى معجم مقاييس اللغة ، مادة (رَعى) :

« الراء ، والعين ، والحرف المعتل : أصلان : أحدهما : المراقبة ، والحفظ ، والآخر الرجوع .

فالأول : رَعَيْت الشيءَ : رقبته ، ورعيته : إذا لاحظته ، والراعى : الوالى ...

وراعيت الأمْرَ : نظرت إلامَ يَصير ... والإرعاء : الإبقاء ، وهو من ذاك الأصل ؛ لأنه يحافظ على ما يحافظ عليه ، ورجُل تُرْعيَّة ، وتْرعَاية : حسن الرعية بالإبل ومن الباب : أرْعَيْتَهُ سَمْعِى : أَصغيت إليه ...

فالمادة : تدور فى الأصل الأول حول : المراقبة ، والولاية ، وإلى صيرورة الأمر ، والإبقاء ، وحسن الرعاية .

والمعانى كلها لازمة لنا ، ومناسبة لما يرمى إليه الحديث الشريف ، وإنها لمختارة من بين الكلمات لذلك كله ...

وجاء توزيع الرعاية ، وما يلزم لها فى المجتمعات من الأعلى مسئولية إلى ما هودونه فى المسئولية :

فمسئولية الأمير واسعة ، تشمل جميع من يعيش ، وما يحيا فى إمارته ، والمسئولية تعنى جميع المعانى ، التى شملتها المادة ...

ومسئولية الرجل فى أسرته أضيق دائرة ، وأقل عدداً ، ولكنها مسئولية ضخمة ، فعلى قدر ما يوفر الرجل من الرعاية لأسرته ، تكون راحة الأمير ، وسعادته ؛ لأنه يربى له أفراداً أسْوِيَاء ، يتفاعلون تفاعلا سويًّا فى مجتمعاتهم ، وينهضون بتبعاتهم ، ويَؤدون حقوقهم خير أداء ، ويأخذون حقوقهم فى أدب ، واستحياء ...

---

(١) ١٩/ ٣٥٨ فتح البارى ...

ومسئولية المرأة : أقل عدادًا ، ولكنها أبقى أَثَرًا ، وأعظم خطرًا ؛ إذ هى المعلمة الأولى ، والمربِّية الأولى ، وعلى قدر ما تبذل ، تكون سعادة الرجل ، ونباهة المجتمع ...والرُّعَاة كثيرُون : رَاعى الإبل ، والغنم ، والبقر... وغير ذلك .

ونختار من بين الرعاة راعى الغنم ، وذلك ؛ لأن جميع الرسل قد رَاعَوا الغنم ، تمهيداً وتدريبًا على رَعْىِ الأُمَم ....

وذلك : لأن رعى الغنم يدرِّب على الصبر الجميل ؛ لما فى طبع الغنم من الجنوح ، وعدم الضبط ، ... ،والصبر عليها لردّها إلى حظيرة الصواب ، والجماعة ، وعدم ترك الجانح للافتراس ، والقنص فيه ما فيه من المشقة ، والعُسْر ....

ويتجلى عمل الراعى فى أَمْرَيْن هَامَّيْن :

أولهما : حفظ ما يرعى من الذئب ، وسباع الوحش ، والطير ، ورعاية الصغير ، والضعيف ، وبذل الطاقة ، والجهد ، ليكون قويًّا ، وكبيراً ... وما إلى ذلك ، كالصَوْن من الحرِّ المؤْذى ، والبرد المهلك ...

وثانيهما : توفير المرعى الطيب ، والكلأ الناضر ، والماء العذب ، وغير ذلك مما يسمن ، ويغنى من جوع ، ويروى من ظَمَأ ...

ونجمل ما تقدم فى : توفير الحماية من كل سوء ، وتقديم الزاد ، والماء ، ورعاية الصغير ، والضعيف ...

ونخلص مما تقدم إلى رعاية المرأة لأسرتها **فى المجالات الآتية** :

– رعاية الزوج رعاية كاملة : بما يحقق السكن ، ويوفر المودة ، والرحمة ؛ لتنشط لما يلى :

– الإبقاء على طيب العشرة الزوجية – مع تحقيق ما قدمناه فى ذلك –

– رعاية الطفولة: أثناء الحمل ، وعند الولادة ، وما بعدها ، وذلك : باتباع النصائح النافعة فى ذلك، واستشارة أهل الذكر ، والخبرة فى ذلك ، والسمع والطاعة لنصائحهم ...

– تربية الضمير ، **وذلك** : من منتصف السنة الثانية من العمر ، بتكوين العادات الطيِّبَة ، وتهجين العادات غير المستقيمة ؛ لينشأ الطفل ، وتنشأ الطفلة على تربية سليمة ، ونفس طيبة ، تربت تربية غير معكوسة...

– غرس الإيمان الحق ، والصادق فى كيان الطفل ، والطفلة منذ نعومة الأظفار ، ودور الأبوين فى ذلك ، وبخاصة الأم واضح مشهور ...

– التربية على حبِّ الله (عز وجل) وربط جميع ما يحب الطفل ، وما يرغب فيه بأنه هدية ، ومنحة ، وعطية من الله ... وكذلك دفع الضُّرِر ؛ إذ هو القادر وحده ، والحول ، والقوة منه ...

– تعليم الطفل ، والطفلة اللغة ، إذ يكون ذلك بالمحاكاة لما يسمع منها ، وعليها أن ترعى ذلك ، وأن تقوم بهذا الدور فى اقتدار ... مع عفة اللسان حتى لا يكون النشىء فاحشا بذيئًا ...

– غرس الصفات الإنسانية العليا فى نفوس الناشئة ، والناشىء منذ الصغر ، كالحّب ، والإيثار ، والرحمة ، والعطف ، والمؤاخاة ، ومعرفة الحق، والواجب ، واحترام ملكيته ، وتقديس ملكية الآخرين ... وغير ذلك مما تمتاز به البشرية عن غيرها من العوالم الأخرى ...

– رعاية ، وغرس العواطف السامية ، والقيام بما يجب نحوها : كالأُبوَّة ، والأمومة ، والأخوة ، والعُمُومة ، والخئولة ، والجيران ، وأولى الأرحام ، وإخوة المُوَاطَنة ..

– تعهد الناشىء ، والناشئة بأداء الصلاة لسبع ، والضرب على التقصير فيها لعشر ، مع التفريق بينهم فى المضاجع : بين البنات ، حتى لا تحدث مساحقة يهود ، وبين الولَدَيْنْ للإبعاد عن عمل سَدُوم ، والمؤتَفِكَات ، وبين الولد ، والبنت ، لما تُخْشى مغَبَّته ، وذلك فى حدود المتاح ، والممكن ، والتوصل إلى المرغوب فيه بالحيلة ، إذ أنْ المرء يعجز ، لا المَحَالَة » أى : الحيلة ...

– تقديم الناشىء ، والناشئة إلى دور حضانة الأطفال ، ومجتمع المدرسة ، وقد سلك كل منهما سلوكا سَوِيًا ، واتجه اتجاها سليما . . .

وإنما يعين على ما تقدم ، ويجعل التبعات سهلة :

– دين المرأة ، وتديُّنها ، المكتسب من أسرتها ، ومجتمعها الذى تربت فيه . . .

– إدراك دورها فى الأسرة ، وفى الحياة . .

– طاعتها لزوجها المتدين ؛ ليحمل معها ، ويبنى على بنائها . . .

– التفاهم بين عَمُودَىْ الأسْرَة ، حتى لا يُصْدِر كلٌّ منها أوامر متناقضة مع الآخر ، مما يترتب عليه اضطراب الأسرة ، وعدم تكوين شخصية الذرية ، التكوين السّوىّ . . .

– قيام الحياة على الإقناع ، والاقتناع بين رب الأسرة ، وربتها ، لسعادة الأسرة ، وجعلها لبنة قوية فى صرح الحياة الشامخ .

أما من ناحية **المال** ، الذى هو عصب الحياة ، فقد تكلمنا عنه فيما تقدم . . .

ونجمل المطلوب لنا الآن فى شأنه فى الآتى :

– يكون الأبُ كاسبًا مقتصداً . . .

– تكون الأم : مدبرة فى كل شىء بالمعنى الواسع لما تعنيه كلمة التدبير من أبعاد . . . وتحقق بذلك الاقتداء بنساء « قريش » ، فهن « أحناء على ولد فى صغره ، وأرعاء على زوج فى ذات يده » [١] .

– لا تأذن فى بيته ، ولا بماله إلا بإذن خاص ، أو إذن عام ، جرى العرف بمثله . . .

– يُعدَّ ان معًا ميزانية الأسرة على حسب المتاح من أرزاق الله (عز

---

(١) انظر الحديث الشريف ١٩ / ١٥٠ ، ١٥١ فتح البارى . . .

وجل) وتوزيع ذلك على أبواب الإنفاق ، بحيث يكون ذلك فى قانون « وكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا » .

- **الادخار** : لما يطرأ من أمور ، ولتنامى مطالب الحياة من : تعليم ، وتعهّد ، وزواج ، وعلاج ، وغيره ذلك : مما تتطلبه مطالب الحياة التى لا تنتهى مادام الناس أحياء . . .

بمراعاة ما تقدم ، وما يشبهه ، مما لم نذكر تكون المرأة قد أدت واجبها فى الرعاية ، ونالت السعادة ، فى الدنيا ، والآخرة . . . مع الحفاظ على بيت الزوجية ، وإشاعة الطهر ، والعفاف فيه . . .

وبذلك : نكون قد رسمنا صورة طيبة لما ينبغى أن تكون عليه الأسرة ؛ لسعادتها ، وسعادة الأجيال ، وبناء المجتمعات على القُوَّة ، والوصول إلى الغنى ، والشبع ، والرفه ، والاستثمار النافع . . .

٧ - حُقوقُ الزَّوْجَةِ عَلَى زَوْجِهَا :

مفتاح ذلك قول الله (عز وجل) : « ولَهُنَّ مِثْلُ الَّذِى عَلَيْهِنَّ بالمَعْرُوفِ . . . »(١) .

ويقول جار الله : « . . . ويجب لهن من الحقّ على الرجال مثل الذى يجب لهم عليهن (بالمعروف) بالوجه الذى لا ينكر فى الشرع ، وعادات الناس ، فلا يكلفنهم ما ليس لهن ، ولا يكلفونهن ما ليس لهم ، ولا يعنف أحد الزوجين صاحبه .

والمراد بالمماثلة : مماثلة الواجب الواجب فى كونه حسنة ، لا فى جنس الفعل ، فلا يجب عليه إذا غسلت ثيابه ، أو خبزت له أن يفعل نحو ذلك ، ولكن يقابله بما يليق بالرجال . . . »(٢) .

يريد **الزمخشرى** أن يقول :

---

(١) من الآية ٢٢٨ من سورة البقرة .

(٢) ١ / ٢٧٢ الكشاف .

تقابل الحسنة بحسنة ، والواجب بواجب ، والنعمة بنعمة . . .
فيما يعود على كل بالنفع ، وفى حدود اختصاصه . . .

ويسجل القرطبى بعض ما قرره ابن عباس (رضى الله عنهما) :
« . . . لهنَّ من حُسْن الصحبة ، والعشرة بالمعروف على أزواجهن مثل الذى عليهن من الطاعة فيما أوجبه عليهن لأزواجهن » [1] **من الحقوق الواجبة الرعاية ما يلى :**

- **المعاشرة بالمعروف** ، لقوله تعالى : « وعاشِرُوهُنَّ بالمَعْرُوفِ . . . »[2] .

ويقول جار الله مفَسراً المعروف بقوله : « . . . وهو النصَفَة فى المبيت ، والنفقة ، والإجمال فى القول » [3] .

والمراد : ما تعارفت عليه الشرائع ، وخاتمتها شريعة الإسلام ، وما تعارف عليه العقلاء مستمداً من مناهج الدين ، فهو عصمة الحياة ، مع تنفيذ وصايا الرسول العظيم فى ذلك ، ومع تلمس الأعذار ، والتسامح ، حتى تعود الجانحة إلى حظيرة الصواب . . .

- **الرِّعايَة ، والحمَاية :**

الأسرة مملكة صغيرة ، أو إمارة صغيرة :

فربّ الأسرة : هو ملكها ، وأميرها ، وعلى هذا المملَّك ، والمستَأْمَر أن يوفر الرعاية اللازمة ، والحماية المطلوبة لمن فى إمارته ، أو مملكته .

والأحق بالرعاية ، والحماية المرأة ، وذلك ؛ لأنها تقيم فى بيته ، وتخرج بإذنه ، وتدير المملكة من الداخل فهى الأجْدَرُ بالرعاية فى الداخل، والخارج ، ودورها يحتاج إلى رعاية الزوج ، وحمايته من جميع المؤثرات الأخرى . . .

---

(١) ٢ / ٩٣١ ، ٩٣٢ الجامع لأحكام القرآن .
(٢) من الآية ١٩ من سورة النساء .
(٣) ١ / ٤٩٠ ، ٤٩١ الكشاف .

وتمتدُّ الرعاية إلى النصح الدائم ، وفى المقدمة القدوة الحسنة من الزوج ، والمتابعة الجادة ، والتوجبه السديد من الزوج ، الذى من جبلَّته ، وطبعه الحَزْم ، والعَزْم ، والسداد ، والرشاد ، إلى زوجته التى من خليقتها النِّسْيَان ، أو العناد – أحيانًا .

ومن هنا : جاءت وصايا الرسول الأمين المتكررة ، كقوله (ﷺ) : « خُيرُكم خيرُكُمُ لأهْله ، وأنَا خَيركُم لأهْلِى » وقوله الشريف : « هُنَّ يغْلَبَن الكَرام ، ويَغْلبهنَّ اللِّئَام » .

وجعل الرسول الأمين الرجلَ رَاعيًا فى بيته ، ومسئولاً عن رعيته ، وذلك فى قوله الكريم « ... والرَّجُلُ رَاعٍ أهْلٍ بيْته ... » وتتويج ما تقدم: « ... فكُلكُم رَاعٍ ، وكُلكُم مَسْئُولٌ عن رعيَّته » [١] .

وفى الذِّروة ، والسّنام من الوصايا قوله (ﷺ : « ... واسْتَوْصُوا بالنِّسَاءِ خَيْرًا ، فإنهنَّ خُلقْنَ من ضِلَع ، وإنَّ أعْوَجَ شىء فى الضلَعِ أعلاه ، فإنْ ذهبتَ تقيمُه كسرتَه ، وإن تركتَه لم يَزَلْ أعْوَجَ ، فاسَتْوصُوا بالنِّسَاءِ خَيْرًا » [٢] .

ومعنى « استَوْصُوا » أى : تَوَاصَوْا بهن ، أى : ليُوص بعضكُم بعضًا بالرفق بالنساء ، وسياستهن على خير الأعمال ، والتجرد عن مرذول الخصال ... والباء للتعدية .

وقيل : استَوصُوا » أى : اطلبوا الوصية بهن من أنفسكم ، أو اطلبوا الوصية بهن من غيركم ، مع محافظتكم أنتم ، وتكون الهمزة ، والسين ، والتاء للطلب ، والمراد الأمر ، الواجب الرعاية ، والتنفيذ » [٣] .

وقيل : اقبلوا وصيتى فيهن ، واعملوا بها ، وارفقوا بهنّ ..

فالهمزة ، والسين ، والتاء للقبول ، والمطاوعة ، كما تقول : أحكمت الأمر فاستحكم ، وأقمت الشىء فاستقام ...

---

(١) ١٩ / ٣٥٨ فتح البارى ...

(٢) ١٩ / ٣٠٣ فتح البارى ...

(٣) ٤ / ٤٢ ، ٤٣ شرح صفوة صحيح البخارى .

والمعنى مستقيم على جميع الاحتمالات ، وفي قمتها الاحتمال الأخير [١] .

ففيه مراعاة رعاية الضعيف ، إذ المرأة لضعفها تحتاج إلى من يقوم بأمرها ، ويلزم لذلك : الرفق ، وحسن العشرة ، والأناة في إصدار الأمر . .

- تلمُّس الأعذار للمرأة من أجل ما خلقت له :

إذا تلمسنا المعاذير لجنس الإنسان في تسرعه ، وتعجّله في الأمور ؛ لأنَّه مجبول على العجلة في أموره كما قال ربُّ العزة (جل ، وعز) : « خُلِقَ الإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ » [٢] . أو العجل : الطين لغة حميرية .

والمراد : « أنَّ الإنسان مَجْبُول على العجلة ؛ إذ كيانه منها ، وأنه لا يتخلى عن العجلة [٣] وفي صفوة البيان : « . . . والمراد : أن جنس الإنسان خلق مجْبُولاً ، مطبوعا ، على العجلة ، والتسرع ، فيستعجل كثيراً من الأشياء ، وقد تكون مضرة به . . . » [٤] .

فإذا كان جنس الإنسان قد خلق من عجل ، فإن المرأة تزيد عن هذا ، وهي أنها خلقت من **عِوج** . . .

وبذلك : تكون قد جمعت في كيانها ، وجبلتها العَجَلَ ، مشاركة الرجل في ذلك ، لكنها تزيد عليه في أن العجل فيها مشوب باعْوِجَاج .

وبهذا : تكون قد جمعت شيئين ، لا تطاق العشرة معها إلا بالصبر الجميل ، والإحسان إليهن ، والترفع عن إيذائهن . . .

فلو أراد الرجل صفة الكمال معها لكان كمن يطلبُ في الماء جَذْوَة نَارٍ ، ولكان كمن يكلف الأيَّام ضدَّ طبَاعها ، ويطلب من المرأة ما لا تقوى على مثله خِلْقةً ، وتكوينًا ، ولكان كالسِّباحة ضد التيار . . .

---

(١) انظر كتابنا « تصريف الأفعال » : ص ٢٥٥ ، ٢٥٦ .

(٢) من الآية ٣٧ من سورة الأنبياء .

(٣) انظر ٣/١١٧ الكشاف . . .

(٤) ص ٤١٦ صفوة البيان .

لهذا كله : وصَّى الرسول العظيم بالنساء خيراً ، وطلب من الرجال احتمال جنوحهن عما يتمناه الرجال ، وما تتطلبه حياة الأسرة ، ونظام الكون . . .

ولعلَّنى لا أكون مجاوزاً جادة الصواب : إذا قلت : إن المرأة نصف الرجل ، وفيها سعادته ، وفى اجتماعهما - على طُهْرٍ - سعادة الدنيا ، والآخرة ، واستمرار مسيرة الحياة ، وفى جبِلَّتِها جُنُوح ، وعناد ، ومخالفة .

وهى من هذه الزاوية : من مواضع الاختبار للإنسان : الرجل : فإذا أخذ منها على عوجها وأعطاها - على سماحته - فَازَ بسعادة دُنْوية ، ونَعِمَ بسعادة أخْرَوية . . .

ولعلَّ سائلا يسأل فيقول : لم خلقت المرأة من عوج ، إلى جانب العجلة . . . ؟

وفى الإجابة عن هذا السؤال نقول :

خُلِقْنا : للعبادة ، والمعرفة ، وخلق الله تعالى لنا كل شىء ، ومنه :ما خلق لنا من أزواجنا ، وذلك : لنستحق الخلافة فى الأرض ، ولنسعد بالجنة فى دار النعيم . . .

والعاقل - كل العاقل - من يكون مع ربه ، الذى خلق له كل شىء طيلة وقته : فقد خلقه لعبادته ، وسخَّر له كل شىء ، والسَّعَادَة فى الذكر الدائم ، والشكر المتتابع . . . والطاعة المطلقة . . .

والمرأة : بتكوينها ، وبكونها السكن الهادىء ، وتقوم على العشّ المريح ، وهى لباس فىَ الليل الذى جعله الله لباساً ، وبما تقدمه من جليل الخدمات للزوج ، وللأسرة . . .

بهذا كله : وبأكثر منه لو خلقت من طبيعة مستقيمة ، وكانت وَرْداً، لا شَوْكَ فيه ، وشَهْداً ، بعيداً عن إبر النَّحْل لكانت صارفة للرجل عن

الذكر ، والشكر اللذين خلق لهما ، ولتعلّق بها الرجل تعلقًا على حساب صلته بربه ، وعبادته له . . .

وذلك : يناقض ما خلق الإنسان له ، ويُجَافِي سنة الوجود ، ولن تجد لسنة الله تبديلاً . . . وفى ذلك من الضرر للإنسان ما فيه : فحياته ينبغى أن تكون تجارة مع ربه رابحة .

من أجل ذلك : جاءت الحكمة الإلهية البارعة فى خلقة النسّاء على الصفة المتقدمة حتى يشكر الرجل ربه على ما أعطت من طاعة ، وإطاعَةَ ، وإطَاعَة ، ويصبر على ما تبديه من عَنَتَ ، والصَّابر ، والشاكر فى الجنة .

وكلا الصابر ، **والشاكر** متعلق بربه لزيادة النعمة ، ودوامها ، ودفع ما يكره ، وإبعاده . . . وفى ذلك الخير العميم . . .

ومع أنها السكن ، وبالمعاشرة تأتى المودة ، والرحمة . . .

لكنها فى الجانب المقابل : عُدَّت من أعداء الرجل ، فقد قال الله تعالى : « . . . إنَّ مِنْ أَزْوَاجَكُمْ ، وأَوْلادكُم عَدُوًّا لكُم فَاحْذَرُوهُمْ ، وَإِنْ تَعفُوا ، وتَصْفَحُوا ، وتَغْفِروا فإِنَّ الله غَفُورٌ رَحِيمٌ » (١) .

ويقول جار الله فى التفسير : « إن من الأزواج أزواجا يعادين بعولتهن ، ويخاصمنهم ، ويجلبن عليهن ، ومن الأولاد وأولادًا يعادون آباءهم ، ويعقونهم ، ويجرعونهم الغُصَص ،والأذى (فاحذروهم) : الضمير : للعدو ، أو للأزواج ، والأولاد ، أى : لما علمتم : أن هؤلاء لا يخلون من عدو ، فكونوا منهم على حذر ، ولا تأمنوا غوائلهم ، وشرهم . . . » (٢) .

ما أعظم ما أمرنا الله (عز وجل) به ، ونبهنا إليه ، ووعدنا الخير عليه !

وذلك واضح كلّ الوضوح فى ذكر العَفْو ، والصَّفْح ، والغَفْر . . .

وجاء فى صفوة البيان : « (وإِنْ تَعْفُوا) عما يقبَلُ العفوَ من

---

(١) من الآية ١٤ من سورة التغابن . . .

(١) ٤ / ٥٥٠ الكشاف .

ذنوبهم، (وتَصْفَحُوا) بترك التثَريب ، والتعبير لهم (وتغفروا) تستروا عيوبهم ، وتمهدوا لهم الاعتذار (فإن الله غفور رحيم)[1] .

ونلحظ من وراء تتابيع الألفاظ على هذا النسق ما يلى :

- **العداوة** حاصلةٌ من الأزواج ، والأولاد ، على عكس ما تقضى به العشرة ، وتحتمه الأبوة ، وتفرضه المخالطة . . .

- لكن الذى حدث عكس ما يُرْجى ، ويُؤَمَّل ، من جر المتاعب ، وإثارة المشكلات ، والتعاون على الإثم ، والعدوان ، والنشوز ، والعقوق ، وتيسير الأذى للآخرين . . .

- **فيما تقدم تهيج** العداوة ، وامتلاء الحفائظ بالغيظ ، والتربّص للانتقام ، ومقابلة السوء بالسوء ، والأذى بالأذى ، وذلك : يتأتى بأكثر من الجانب الأقوى : الرجل .

وفى ذلك : خراب الدور ، وتشريد الأسر ، وتوزيع الأذى على المجتمعات من أهل السَّوْء ، وصانعيه .

هنا : يحبب الله (عز وجل) إلى الآباء العفو ، والصفحَ ، والمغفرة . ويعد فى مقابل ذلك المغفرة ، والرحمة منه . . .

وتأتى الألفاظ يأخذ بعضها بحجز بعض فى ترتيب هو تقدير العزيز العليم .

فالعفو : تَرْك الذنب ، دون معاقبة عليه . . .

ولما كان الإنسان قد يعفو ، ولكن يسرّ ذلك فى نفسه تحفزاً للأخذ ، والمعاقبة بالمثل . . .

وهنا جاءت كلمة : **الصفح** : **والمراد بها** : الإعراض عن الذنب ، كمن يعرض ، وينرك ، ويعطى صفحة وجهه تسامحاً . . .

وتأتى فى القمة ، والسنّام كلمة : **الغفر** : ويراد بها : التغطية على الذنب . . .

---

(١) ص ٧٢٨ صفوة البيان . . .

فترتيب الألفاظ يتناسب مع قوة غضب النفس البشرية ، وتسليها عن الذنب والجرم ... **والتناسى** ، حتى لا يبقى أثر ... وذلك : فضل الله يؤتيه من يشاء ...

فالذنب واقع : وستره مرغَّب فيه ، وترك المعاقبة مطلوب ، وإعطاء الأمر صفحة الوجه ، والإعراض مرتبة أسمى ، وفوقهما مرتبة السَّتَر ، والتغطية بحيث لا يبقى أَثر للذنب ، ولا إثارة للجرم ...

وفى ذلك : راحة النفس ، وبقاء البيْن ، وعدم قطع عُرَى المودَّة ، وبقاء الأسرة فى ظل التسامح ، الذى قد يجر إلى طاعة من الزوجة ، وبرٍّ من الأولاد ، كما ينال فاعله ثواب الآخرة .

- **من حقوق الزوجة على زوجها النَّفَقة** :

وقد جاء ذلك فى قوله تعالى : « فَلاَ يُخرجنكُمَا منهَا ، فَتَشْقَى »(١).

وخُصَّ آدم بشقاء السَّعْى على أمور المعاش ؛ لأن نفقة حواء يجلبها لها الرجل ، وعليه ...

ويقول القرطبى : « ... لما كان الكادّ عليها ، والكاسب لها كان بالشقاء أخصّ ...

ويقول : « ... يعلمنا أن نفقة الزوجة على الزوج فمن يومئذ جرت نفقة النساء على الأزواج ، فلما كانت نفقة حوَّاء على آدم ، كذلك نفقات بناتها على بنى آدم بحق الزوجية ... **وبين أن النفقة تتناول** :

« الطعام ، والشراب ، والكسوة ، والمسكن ، فإذا أعطاها هذه الأربعة فقد خرج إليها من نفقتها ، فإن تفضل بعد ذلك فهو مأجُورٌ .

فأما هذه الأربعة فلابدَّ منها ؛ لأن بها إقامة المهجة ... » (٢)

---

(١) من الآية ١١٧ من سورة طه .

(٢) ٥/٤٢٩٣ الجامع لأحكام القرآن .

والضابط العام للنفقة : يكون فى إطار القانون الكونى العام ، والسماوىّ ، الملزم ، وذلك فى قوله تعالى « والَّذينَ إِذَا أَنفَقُوا لم يُسْرِفُوا ، ولم يَقْتَرُوا ، وكَانَ بَيْنَ ذلِك قَواما »[1] .

إذ صفة عباد الرحمن المحمودة : أنهم إذا أنفقوا جَرَوْا على فضيلة ، هى : الاعتدال وهو فضيلة بين رذيلتين ، هما : الإسراف ، والتقتير . . .

فجاءت الإشادة بهم لذلك ؛ لأنهم حققوا القانون العام ، وجروا على منهج الله (عز وجل) وعلى ما تتطلبه الحياة الكريمة من كسب ، واعتدال إنفاق ، وادخار للتنمية . . .

والاعتدال : هو القانون العام فى كل نواحى الحياة .

ويقول جار الله عن صفة عباد الرَّحمن : « . . . وصفهم بالقَصْد ، الذى هو بين الغُلوّ ، والتقصير . . . »[2] .

والقانون الأُسْرى للنفقة جاء فى قوله تعالى : « . . . لِيُنْفِقْ ذُو سَعَة من سَعَتِه ، وَمَنْ قُدِرَ عليه رزقُهُ فلْيُنْفق ممَّا آتَاهُ اللهُ ، لا يكلفُ اللهُ نَفْسًا ، إلاَّ مَا آتَاهَا ، سَيَجْعَلُ اللهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسراً »[3] .

والقصد :

أن ينفق المؤمن مما وسع الله تعالى عليه ، موسِّعًا فى النفقة ، كما وُسِّع عليه فى العَطَاء ، فى الإطار العام المتقدم . . .

أما المَعْسِر : فإن عليه أن ينفق ما بَلَغَه وسُعُه ، على قدر ما منحه ربه (عز وجل) وفى الطاعة فى الإنفاق زوال العسر ، وذهاب الضِّيق ، والوعد الكريم من رب كريم جاء بذلك : « . . . سَيَجْعَلُ اللهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْراً » .

وجميل قول جار الله : فى الذى يمتثل أمر ربه ، وينفق ، فإن الجزاء

---

(١) الآية ٦٧ من سورة الفرقان .

(٢) ٣ / ٢٩٢ الكشاف .

(٣) الآية ٧ من سورة الطلاق .

سيكون « ... بفتح أبواب الرزق عليهم ، أو الفقراء الأزواج ، إن أنفقوا ما قدروا عليه ، ولم يقصروا ... » [١] .

والقرطبيّ يقنِّن ما تقدم فى عبارة رشيقة ، وفى تفصيل ، فيقول :

« ... لينفق الزوج على زوجته ، وعلى ولده الصغير على قدر وسعه ، حتى يوسع عليها ، إذا كان موسَّعًا عليه ، ومن كان فقيراً ، فعلى قدر ذلك .

فتقدر « النفقة بحسب الحالة من المنفق ، والحاجة من المنفق عليه بالاجتهاد على مجرى العادة ... » [٢] .

وجاء القانون رقم (٢٥) لسنة ١٩٢٠ ، والمادة (١٦) منه تقُول :

« تقدر نفقة الزوجة على زوجها بحسب حال الزوج يسراً ، وعسراً مهما كانت حال الزوجة » [٣] .

وكانت النفقة واجبة على الزوج للوصايا المؤكدة فى كتاب الله تعالى ، وسنة رسوله (ﷺ) :

ومن ذلك قول الله تعالى : « وعَا شِرُوهُنَّ بالمَعْرُوفٍ » [٤] .

وقول الرسول الأمين : « خَيُركم خيركُم لأَهله ، وأنَا خيركم لأَهْلِى » .

وقوله (ﷺ) : « ... واستَوْصُوا بالنِّسَاءِ خَيْراً ... » [٥] .

وقد تقدم ذلك .

والمسلم **لا** يسعه إلا السمّع ، والطاعة :

---

(١) ٤ / ٥٦٠ الكشاف .

(٢) ٨ / ٦٦٤٩ الجامع لأحكام القرآن .

(٣) انظر ص ١٠١ محاضرات فى الفقه الإسلامى للأستاذ الحسينى .

(٤) من الآية ١٩ من سورة النساء .

(٥) ١٩ / ٣٠٣ فتح البارى ...

فقد قدمت الزوجة لزوجها أعز ما **تملك** فلها فى عنقه أن ينفق عليه بحسب وجده ...

وقد قصرت نفسها على خدمة بيته ، وأولاده ... فلها فى مقابل ذلك النفقة بالمعروف ...

والسادة الأحناف يرون أن النفقة واجبة على الزوج لزوجته ؛ لبقائها فى بيته ؛ لخدمته وخدمة أولاده ...

والسادة المالكية : يرون وجوب النفقة على الزوج لزوجته نظير أستمتاعه بها : فتجب بالدعوة إلى الدخول لمطيقة ، أو بالدخول الفعلى[1] .

وعند السادة الشافعية : تجب نفقة الزوجة على زوجها بالتمكين من نفسها[2] ، وهم فى ذلك كالمالكية .

والقصد :

فإن نفقة الزوجة واجبة على زوجها ، وذلك : ضمن التكافل الاجتماعى ، الذى نادى به الإسلام ، وكفله ، ونظمه ، ووضع له الدستور المحكم ، المقنَن ...

وما أعظم ما جاء فى الحديث القدسىّ : « عَبْدِى أنْفِقْ أنْفِقْ عَلَيْك ... » .

والنفقة : هى الأساس للحياة الزوجية المستقرة ، القوية الدعائم ، وهى التى تجعل سكن الزوجية هانئا ، وتأتى بعد ذلك : المودّة ، والرحمة، وتنعم الحياة ...

ويجمل بنا – فى هذا الصدد – أن نذكر رأى ابن حزم الظاهرى ، أخذاً مما نقله عنه الفقيه الناضج الإمام : أبو زهرة ، وذلك : لأن رأى ابن حزم يمسُّ قضية ماثلة فى مجتمعاتنا .

---

(١) انظر ١ /٤٠٨ بلغة السالك ، لأقرب المسالك .

(٢) انظر ص ٤٧ فتح القريب المجيب ... وص ١٩ من كتابنا تيسير فتح القريب المجيب .

وخلاصة رأيه :

تجب النفقة على الزوجة إذا كان الزوج معسرًا ، وعجز عن الكسب، وهى غنية ، ذات مال ، ففى هذه الحالة تجب نفقته عليها .

ويعلل لذلك: بأنها وارثة ، وبمقتضى ظاهر النص ، فى قوله تعالى : « وَعَلَى الوارث مثْلُ ذَلك » (١) عند الكلام على النفقة ، والزوجة وارثة لزوجها ، فتجب عليها نفقته ، إذا عجز عن الكسب ، أو افتقر . . .

فإن عجز الزوج عن نفقة نفسه ، وامرأته غنية كلفت النفقة عليه ، ولا ترجع عليه بشىء ، إذَا أيْسَر » (٢) .

وما أحوجنا إلى فهم ابن حزم ! ؛ لأنه يعالج أمرًا واقعًا فى حياتنا الحاضرة ، والشريعة الإسلامية السمحاء صالحة لكل زمان ، ومكان ، ما كان الاجتهاد غير مجاف للأصول ، ويساير الفطَر السليمة ، والأعراف ، التى يرجع إليها فى حال المصالح العامة ، التى تحافظ على استقرار الأُسَر ، ونموّ المجتمعات . . .

ورأينا فى هذه القضية : كاجتهاد مذهب ، وترجيح ، لظهور القصد . . .

الأصل : أن ينفق الزوج على زوجته - كما تقدم - فى حالى عسره، ويسره . . .

وأن المرأة : تعمل فى المنزل ، فهو مملكتها الصغيرة ، وعملها فيه هام فى جميع النواحى . . .

أما الآن : فقد تعلمت المرأة ، ووضعتها قدراتها ، ومهاراتها فى الموضع الكريم اللائق بها ، وهى فى ذلك : **تنال أجرا** عن عملها الذى تؤديه فى النهوض بالحياة ، إذ المجتمع طائر : جَنَاحَاه : الرجل ، والمرأة ، و/

---

(١) من الآية ١٣٣ من سورة البقرة .

(٢) ص ٥١١ ابن حزم ، وانظر ٢٠/٢٠٥ فتح البارى : حديث زينب ابنه سلمة .

يقوى الطائر على الطيران إلا بجناحيه ... ومطالب الحياة قد تنامت ، وأبواب الإنفاق قد اتسعت ، والطموحات قد ترقّت ... والزوج : قد لا يستطيع أن يواجه كل ذلك ، وقد لا يقوى على توفير الحياة الراضية ... وقد تنازل عن جزء من حقه فى استقرار الزوجة فى البيت ، فعليها مثل ذلك .

والزوجة : وقد أذن لها الزوج فى العمل فى خارج البيت ، وأوتيت المال نظير العمل ، فعليها أن تمدَّ يد العون بشىء من مالها ؛ لخير الأسرة ، ودوام المودّة ، ومسايرة متطلبات الحياة ... والوفاء بمطالب أفراد الأسرة...

وأساس ذلك : التفاهم بين الزوجين ، والإقناع ، والاقتناع ، دون قَسْرٍ، أو إكراه ، بل ببذل بمعروف ، وطيبة نفس ، ورِضَا خَاطر ...

وذلك فى إطار قوله تعالى : « فإِنْ طِبْنَ لكُمْ عَنْ شَىْءٍ منْهُ نَفْسًا ، فكُلُوهُ هَنيئًا ، مَريئًا » (١) .

وأن يكون القدر الذى تطيب به نفس الزوجة غير كثير ، وذلك : لأن الكلمة « شيئًا » جاءً منكرة ، وذلك يدل على القلة ...

مع ارتباط ذلك بإعسار الرجل ، فإن كان موسراً فالأليق بحاله أن يَسْتَعفْ تأدبًا بقوله تعالى ، وقياسًا عليه : « فَمَنْ كَانَ غَنيًّا فلْيَسْتعْففْ ، ومَنْ كَانَ فَقيراً فليأْكُلْ بالْمعْرُوف » (٢) .

والقصد :

فإن الزوج إذا كان مُوسِراً فالأكرم له ، والأليق برجولته ، وقوامته أن يكون عَفِيفًا ، ويدع للزوجة عائد عملها ، وقد يعود على الأسرة آجلاً وعاجلا بعدم مطالبته ببعض ما تحتاج إليه ، وإن لم يكن كذلك فلا بأس بأخذ شىء من مالها عند طيب نفسها بذلك ، وليس له عليها قسرٌ ، أو إجبار ...

---

(١) من الآية ٤ من سورة النساء .

(٢) من الآية ٦ من سورة النساء .

تأدبا بقوله تعالى : « الرِّجَالَ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهَ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ ، وبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوالِهِم ... » (١) .

فالقاعدة : إنفاق الزوج على زوجته ، وأولاده – على حسب وُجْدِه–

والاستثناء منها : إنفاق الزوجة الموسرة بما يكمل احتياجات الأسرة ، أو بالإنفاق عليها عند عجز الزوج ، أو فقره ... فى إطار ما تقدم ...

– الذِّمَّة المالية للزَّوْجَة :

ما أعظمَ شريعة الإسلام : وما أجلَّ ما كرَّمت به المرأة ! ..

وعلينا أن نوجز ذلك فى النقاط التالية .

(أ) تبدأ الذمة المالية للمرأة من الحمل ...

فلو مات الأب ، وترك حملاً مستكنًا ، فإنه « يوقف للحمل من تركة المتوفى ، أَوْفَر النصيبين على تقدير أنه ذكر ، أو أنثى » (٢) .

وهذا التشريع المحكم من رب كريم رفع عن المرأة غَبْنَ الجاهلية ، وحرمانها من الميراث ...

(ب) وصايا الشريعة السمحاء باليتيمة ، واليتيم :

فقد وَقت اليتيمة ، واليتيم من خيْف الأوصياء ، وذلك فى قوله تعالى : « وَلْيَخْشْ الَّذينَ لو تركُوا من خَلفِهم ذُرِّيةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهم ، فَلْيتَّقُوا الله ، وليَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً » (٣) .

وفى الآية الكريمة تحذير لمن يجترئ على شيء من مال اليتيم ، أو اليتيمة وتبشير لمن سمع ، وأطاع ، وفى ذلك التأمين التام لذريّته من بعده...

---

(١) من الآية ٣٤ من سورة النساء .

(٢) انظر المادة ٤٣ ، ٤٤ من القانون ٧٧ لسنة ١٩٤٣ .

(٣) الآية ٩ من سورة النساء .

جـ – الوعيد بالثُّبُور ، وعظائم الأمور لَمَنْ يأكل أموال اليتامى ظلماً . . . وذلك في قوله تعالى : « إِنَّ الذينَ يأكُلُونَ أَمْوَالَ اليَتَامَى ظُلْماً إِنَّما يأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَاراً ، وسَيَصْلُوْنَ سَعِيراً » (١) .

د – أباح الشرع الحنيف للمرأة أن تستثمر مالها ، وأن تباشر جميع العقود المالية كالرجل سواء بسواء .

وخلاصة ما تقدم :

فقد حرص الشرع الحنيف على مال المرأة ، وتكوين ذمَّتها المالية ، وإباحة التصرف لها فيما تملك ، وأباح لها جميع العقود المالية في إطار ما أحلَّ الله تعالى من المعاملات . . .

ومن ذلك نقول : ما أسْعَد المرأةَ في ظلّ الشريعة السمحاء ! (٢) .

– **التغاضي عن هَنَات المرأة الهيِّنات** : استبقاءً للحياة الزوجية الطيِّبة :

وفي هذا الإطار جاءت السماحة – كلّ السماحة – من سيد الأولين، والآخرين (زاده الله تشريفاً ، وتعظيماً ، وجازاه عنا خير ما جازى نبيا عن أمته) .

وصف القرآن الكريم سلوكه الكريم مع أمّ المؤمنين حفصة (رضي الله عنها) .

وجاء في قوله تعالى : « وَإِذْأسرَّ النبيُّ إِلَى بَعْضِ أَزْواجه حديثاً ، فلمَّا نبأَتْ به ، وأَظهرهُ اللّهُ عليه عرَّفَ بَعْضَهُ ، وأَعْرَضَ عن بَعْضٍ . . . »(٣) .

ويقول جار الله :

المراد : « . . . حفصة ، والحديث الذى أسرَّ إليها حديث مارية ، وإمامة الشيخين (نبأت) : أفشته إلى عائشة . . .

---

(١) الآية ١٠ من سورة النساء . . .

(٢) انظر كتابنا « المرأة عبر العصور » بين هوان الجاهلية ، وعزة الإسلام . . .

(٣) من الآية ٣ من سورة التحريم . . .

وقد أطلعه الله عليه على لسان جبريل (عرّف بعضه) : أعلم ببعض الحديث تكرُّما . . . » [1] .

والخير - كل الخير - للأسرة في يومها ، وغدها أن يقتدى ربّ الأسرة بالرسول العظيم : يتغــاضى عن الهَنَات الهيِّنات ، ويوجّه بالقدوة ، وبالنصح أحيانا إلى التى هى أقوم . . .

فإن تطلب الأمر عتابا فينبغى أن يكون فى بعض الأمور ، لا فى كل الأمور ، كما يكون بالحكمة ، وحسن التوقيت لذلك ، وفى أوقات لا تثير حفائظ المرأة ، وعنادها ، حتى تسير الحياة إلى غايتها فى سهولة ، ويسر ، وتصل السفينة إلى برّ الأمان ، وشاطىء النجاة فى لُجَّة هادئة ، ورِيح رُخَاء . . .

ونكتقى بهذا القدر فى هذا المضمار ، طلبًا للإيجاز ، وقد يستدلُّ بالقُلِّ على الكُثْر ، وبالشبيه على الشبيه ، وبالنظير على النظير . . .

ونجعل مسك الختام فى هذه العُجَالة ما قرَّر الرسول العظيم ، ووجه إليه ، ونهى عن الحيَاد عنه ، وعن المخالفة فيه ، إذ يقول :

« لاَ يَفْرَكْ مؤْمنٌ مُؤْمِنةً : إِنْ عَابَ منها خُلُقًا رَضِىَ منْها آخَر » .

« **يَفْرُكْ** » :

فى معجم مقاييس اللغة ، مادة (فَرَكَ) :

« الفاء ، والراء ، والكاف : أصل يدل على استرخاء فى الشىء ، وتفتيل له ، . .

ومن الباب : فَرِكَت المرأة زوجها تَفَرْكُه : إذا أبغضته . . .

ورجلٌ مُفَرَك : يبغضه النساء ، وإنما سمىّ فِرْكا ؛ لأنها تلتوى ، وتنفتل عنه . . . » .

---

(١) انظر ٤ / ٥٦٥ ، ٥٦٦ الكشاف . . .

وفى المختار مادة (ع ى ب) :

« العَيْب ، والعَيْبَة - أيضًا - : والْعَاب بمعنى ... وما فيه مَعَابة ، ومَعَاب - بفتح ميمهما ، أى : عيب ، وقيل موضع عيب ... » .

والمعنى - فى إيجاز - : لا يبغض مؤمن مؤمنة ، لأن فى كل إنسانة من المحاسن ، والعيوب ما تظهره العشرة ... فإن عاب الزوج خلقًا ، رضى منها خلقًا آخر ...

والرسول الأمين (ﷺ) ينهانا أن نزن بموازيننا ، وهى موازين طيْشٍ، وهوى ...

ويطلب منا أن نزن بموازين الله (عز وجل) وهى موازين العدل - كل العدل - وموازين الله (عز وجل) وفيها الرحمة لنا : أن توضع الحسنات فى كفة ميزان ، وتوضع السيئات فى أخرى ... ليكون الرجحان ، أو الخسران ، وليكون ما يترتب على ذلك من السعادة ، أو الشقوة ...

وفيما قاله سيد الأولين ، والآخرين العدل - كل العدل -

وإذا كانت فلسفة الوجود تقوم على مزيج من الخير ، والشر ، والظلمة ، والنور ، وما يعجب ، وما لا يعجب ... وما الكمال المطلق إلا لله (عز وجل) ...

لذلك : ترى الرسول الأمين ينبه إلى هذه الحقيقة الكونية فى المرأة...

فيقول لنا :

- فى المرأة النعمة ، والنقمة ، وفيها النفع ، والضر ، والخير ، والشر... كسائر الموجودات فى الكون ، والعصمة من العيوب إنما تكون لرسول ، أو ملك ...

وعلى الزوج أن يكون عاقلا ، منصفا ، وقد عاش مع المرأة فى

حاليتها ، وخبر عن كثب أمرها ، وتعرف على مواطن القوة ، ونواحى الضعف فيها . . .

وعلى ذلك : فعلية أن يضع نواحى القوة ، والرضا فى كفة ميزان عادل ، ومواطنِ الضعف فى أخرى . . .

ومن ذلك : الوزنُ الدقيق يأتى رجحان الخير عندها ، وتتضاءل نواحى الضعف فيها . . .

وتكون نتيجة ذلك : أن يرجع الزوج الغاضب إلى حظيرة الصَّوَاب ، فلا يبغض زوجته ، وإنما يرضى عنها ، ويتجاوز عن هفواتها . . .

وفى ذلك : صلاح الأسر ، وقوة المجتمعات . . .

وإن من يقول للرسول الأمين سمعتُ ، وأطعت إنما يقبل على زوجته ، وبيته ، وأولاده ، ولا يقدم للمجتمع أهل التعويق ، ولا ذوى النفوس المريضة المعقدة ، وتختفى من قاموس المجتمع مادة (ط ل ق) وهى أبغض الحلال إلى الله تعالى ، أو تكاد تختفى .

وفى ذلك : سعادة الأسر ، والمجتمعات . . .

ما أرحم الله (عز وجل) بالأسرة : عند شحن النفوس بما يجر إلى شىء من الكُرْه ، إذ يقول (عز وجل) : « . . . فإنْ كَرِهتُموهُنَّ فَعَسَى أنْ تكَرَهُوا شيئًا ، ويجعلَ اللهُ فيه خيْرًا كثيرًا » (١) .

ويقول جار الله : « . . (فإن كرهتموهن) فلا تفارقوهن ؛ لكراهة الأنفس وحدها ، فربما كرهت النفس ما هو أصلح فى الدين ، وأحمد ، وأدنى إلى الخير ، وأحبت ما هو بضد ذلك ، ولكن للنظر فى أسباب الصلاح » (٢) .

---

(١) من الآية ١٩ من سورة النساء .

(٢) ١ / ٤٩١ الكشاف .

٨ - حمَاية الأسْرَة مِنَ الهزَّاتِ التى تَعُوقُ مَسيرَتَها ، ونماءَهَا :

التشريع السماوىّ تشريعُ مَنْ خَلَق ، وهو عَليمٌ بمَنْ خَلَقَ ، وهو اللّطيفُ الخبيرُ . . .

من ذلك : كان التشريع السماوىّ طبًّا لأدواءِ النفوس ، ولأمراض المجتمع ، لأن الله تعالى لا يريد ظُلمًا للعبَاد ، وهُو أرحم الراحمين ، وأرحم على عباده من أنفسهم . . .

وهو تعالى : يعلم من الرجل - كلِّ الرجل - إلا مَّنْ رَحِمَ أن حبّ الشهوات مسيطرٌ على نفسه وفى المقدمة من ذلك النِّسَاء : إذ يُحبُّ من المرأة الشباب الدائم ، والنشاط المتجدد ، والنضارة التى لا تذبل ، ونعومة الجلد ، التى لا تتجعَّد ، والحركة الدءوب التى لا تفتر . . .

وأنى له بذلك ؟

وسنة الله فى كونه : أننا خَلَقَنا من ضعف ، ثم جعَل لنا القوَّة بعد الضعف ، ثم جعل من بعد القوة شَيْبَةً ، وهرَمًا . . . والمرأة كالرجل خاضعة لذلك . . .

وإنه ليريد غِنىً مُتَزايدًا ، وصحة ، لا يعثورِها مَرضٌ ، ونِعَمًا تَتْرى ، وتَتَوالَى . . .

وأنى له بذلك ، والأيَامُ دُوَل ، ولابدَّ لنا من فتنة ، واختبار - كالأمم قبلنا . . .

ومن الرجال الذوّاقة ، الذى يتلمس شهواته إرضاء لدافع نفسىّ لا تحدّه حدُود ، ولا يعرف الشِّبَع . . .

ولا يصدر فى شهوته عن إرضاء ، وإشباع ، وإطفاء ، وإنما ليتذوق ، ومِثْلَه لا شبَع له ، ولا قنَاعة . . .

وفى الجانب الآخر : جانب حوَّاء :

حواء من طبعها أنه ملُولَة ، فَرولَة ، وأنها طُلَقة ، لا تقنع بما ساقه الله (عز وجل) إليها . وإنما تتطلع إلى ما متَّع الله به (عز وجل) أزْوَاجًا من

الناس ، وتطمح فيما ليس لها ، وهى كثيرة الموازنَة بين زوجها ، وآخرين ، وكثيراً ما تَنْدُب حظها ، إذ لم تسُقْ إليها المقادير ذَا القَسَامة ، والوَسَامَة ، والحيويَّة الدافقة ، والشباب الدائم ، وذا الخدم ، والحشم ، وذا المال ، وذا المواهب المتعددة . . .

وذات الدين يردها دينها بعون ربها إلى القناعة ، والرضا ، فتكمل مسيرة حياة أسرتها عن طيب خاطر ، كزى الدين من الرجال يفعل ذلك ، وإنه ليعلم أن الآخرة خير ، وأبقى ، وأن ما أُعِد للمؤمنين الصابرين من الحسنى ، وزيادة ما يرضى ، ويسعد ، ويغنى . . .

ومع رِقَّة الدين من كلا الرجلي ، والمرأة تأتى المشكلات التى تعترض سَيْرَ الحياة ، وتكدِّرها ، وتُرنِّق صَفْوَهَا . . .

والتشريع السماوىّ وضع الحلول لجميع المشكلات الطارئة ، وردَّ النفوس إلى خطيرة الصواب وإن الحياة الزوجية ، التى تمتَّ بعقد هو أشرف العقود – بعامة – واستبيح فيها التمتع بكلمات الله (عز وجل) وإذنه ، وحكمته ، ومنها استمرار مسيرة الحياة إلى غايتها المنشودة ، وأجلها المسمَّى ، وهى أساس المجتمعات إلى يوم الدين . . .

فقد وضعت له الشريعة السمحاء من النظام ، والقوانين ، والواجبات ما يضمن لها البقاء ، والاستمرار ؛ لأن الأسرة المتماسكة أساس المجتمع المتماسك القوى ، ولأنها لبنة فى صرح الحياة الشامخ . . .

وما سمىِّ الصداق بالصداق إلا للصِّدْق فى استمرار العشرة ، طلبا لثمارها من البنين ، والبنات . . . والسكن ، والمودة ، والرحمة ، والأنساب ، والأصهار . . . وجميع النواحى الاجتماعية الطيبة . . .

وما حرص الإسلام على الظفر بذات الدين إلا لأن دينها يحميها من الهزَّات التى تحدثنا عن بعضها . . .

وفيما يلى توضيح للنواحى الطيبة ، التى قررَّها الشرع الحنيف وجعلها دستوراً دائماً للحياة الزوجية الطيبة الناجحة ، الموفقة . . .

أولاً :

عند خوف النشوز ، والإعراض من الزوج :

يأتى التشريع الإلهىّ ، فيقول الله (عز وجل) : « وَإِن امْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزًا ، أو إِعْرَاضًا فلا جَنَاحَ عليهما أن يُصْلِحَها بَيْنَهُمَا صُلْحًا ، والصُّلْحُ خيرٌ . . . »(١) .

(**نشز**) : فى معجم مقاييس اللغة :

« النون، والشين ، والزاء : أصل صحيح ، يدل على ارتفاع ، وعُلُوّ ، والنَّشزَ : المكان العالى المرتفع ، والنَّشْز ، والنُّشُوز الارتفاع ، ثم استعير ، فقيل : نَشَزَت المرأة : استعصت على بعلها ، وكذلك نَشَزَ بعلها ، جَفَاها، وضَرَبَهَا » .

ومن ذلك نقول :

النُّشُوز : التعالى ، والتكبر ، والعِصْيَان . . .

(**إِعْرَاضًا**) :

فى معجم مقاييس اللغة (العين ، والراء ، والضاد » : بناء تكثر فروعه ، وهما مع كثرتها ترجع إلى أصل واحد ، وهو : العرض ، الذى يخالف الطول . . .

ومن الباب : أعرضْتُ عن فلان ، وأعرضت عن هذا الأمر ، وأعرض بوجهه . . .

. . . لأنه إذا كان كذا : ولاّه عرضه . . . » .

والمراد : بالإعراض " أن يولى المعرض وجهه ، تَعَاليًا ، وتكبُّرًا ، وامتعَاضًا . . .

ويقول جار الله : « خَافَتْ من بعْلِهَا) تَوقعت منه ذلك ، لما لاح لها من مخايله وأماراته : بأن يمنعها نفسه ، ونفقته ، والمودة والرحمة ، التى بين الرجل ، والمرأة ، وأن يؤذيها بسبٍّ ، أو ضربٍ .

---

(١) من الآية ١٢٨ من سورة النساء .

والإعراض : أن يعرض عنها : بأن يقل محادثتها ، ومؤانستها ، وذلك لبعض الأسباب من طعن فى سنٍّ ، أو دَمَامة ، أو شىء فى خَلْق ، أو خُلُقٍ ، أو مَلالٍ ، أو طموح عين إلى أخرى أو غير ذلك ، فلا بأس بهما فى أن يصلحا بينهما . . . أي : أن يصلح الزوجان بينهما . . .

ومعنى الصلح : أن يتصالحا على أن تطيب له نفسًا عن القسمة ، أو عن بعضها . . .

(والصُّلْحُ خيرٌ) من الفرقة ، أو من النشوز ، والإعراض ، وسوء العشرة ، أو هو خير من الخصومة فى كل شىء . . . » [١] .

والمتبادر إلى الذهن مما تقدَّم :

– أن المرأة إذا رأت تغيرًا فى سلوك زوجها ، أو طريقة كلامه ، أو إعراضه عنها ، أو عدم مجالستها ، ومؤانستها ، أو تطَاوُله عليها بيد ، أو بلسان ، وخشيت أن يكون ذلك مؤديًا إلى فرقة ، ونشوز ، وهدم أسرة ، وتشتيب أولاد . . . وغير ذلك . . .

وكان ذلك : بسبب شىء يتعلق بها من خَلْقٍ ، أو خُلُقٍ ، أو سُلَوك . . . ، أو بسبب شىء يتعلق به من مَلاَلٍ ، أو طموح إلى أخرى . . . أو غيرذلك . . .

– هنا نقول : الصلح خير . . .

والخطوة الإيجابية تأتى من قبيل الزوجة : بحسن التبعُّل ، والتودُّد ، والتغاضى عن الهفوات ، والتعاون الصادق ، أو بذل المال . . . إن وجد . . .

والمراد : التخطيط لما يعيد العلاقة إلى ما كانت عليه ، أو أقوى مما كانت عليه . . .

مع الموازنة بين حالتين :

---

(١) ١ / ٥٧١ الكشاف . . .

إحداهما : هدم الأسرة ، وتشريد الأطفال ، والإضرار بالمجتمع فى مستقبله . . .

وثانيتهما : دوام العشرة ، وهناءة البيت ، وتربية الأولاد على تقوى، ورضا من الله ، وحماية المجتمع من أطفال يكون نصيبهم التشريد ، وينتقمون من المجتمع بعد ذلك - على جريرة لم يرتكبها . . . وكل عاقل يفضل الحالة الثانية ، كما تحرص عليها كل ذات عقل . . . [١] .

- **وهنا نقول للرجل** : الصُّلْح خيرُ من الفرقة ، أو النشوز . والإعراض ، وسوء العشرة **كما نقول للرجال قُولُوا** للهِ (عز وجل) سمعنَا، وأطعنا ، وأمَّلْنَا فى الوعد الكريم ، الذى وعدتنا به فى قولك الكريم : « . . . وإِنْ تُحسِنُوا ،وتَتَّقُوا،فَإِنَّ اللّهَ كَانَ بمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً. »[٢] .

ويقول جار الله فى ذلك : « وإِنْ تحْسنُوا) بالإقامة على نسائكم ، وإن كرهتموهن ، وأحببتم غيرهن ، وتصبروا على ذلك مراعاة لحق الصحبة (وتَتَّقُوا) النشوز ، والإعراض ، وما يؤدى إلى الأذى . والخصومة (فإِنَّ اللهَ كَانَ بما تَعمَلُونَ خَبِيراً) وهو يثيبكم عليه . . . »[٣] .

ونقول لهم : « . . . وإِنْ كَرِهتموهَنَّ فَعَسَى أن تكرَهوا شيئًا ، ويجعلَ اللهُ فيه خيرًا كثيراً » [٤]-- وقد تقدم معنى ذلك . . .

ونتيجة لما تقدم :

- دَرْءُ مفسدة : هى نشوز الزوج ، وإعراضه .

- وجَلْبُ منفعة : هى صلاح حال الأسرة ، والمجتمع ، . . .

---

(١) انظر ٣ / ١٩٧٣ إلى ١٩٧٧ الجامع لأحكام القرآن ففيه إفاضة ، وإيضاح . . .

(٢) من الآية ١٢٨ من سورة النساء .

(٣) ١ / ٥٧١ الكشاف .

(٤) من الآية ١٩ من سورة النساء .

ثانيا : عند خوف النشوز من المرأة :

إذا بدا من حال المرأة نُفرْة ، أو ظهر عليها شيء من الصد ، أو بدا منها مِلاَل ، أو تطلع نحو شيء الحصول عليه يكلف ما فوق الطاقة أو يجر إلى انحراف الزوج عن الجادة المستقيمة ، والسلوك السَّوِيّ ...

وخيف من المرأة التعالى ، والنشوز فقد وضع الشرع الحنيف العلاج الشافى والتِّرياق الواقى لهذا الداء العَيَاء ، وجعله على مراحل قد تغنى المرحلة السابقة عن اللاحقة ، فقال (جل شأنه) : « ... واللَّاتى تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ : فَعِظُوهُنَّ ، واهجُروهُنْ فى المضَاجِعِ ، واضْرِبُوهُنَّ ، فإنْ أطَعْنَكُم فَلاَ تَبغُوا عَليهنَّ سَبيلاً ، إنَّ اللهَ كانَ عليًّا كبيرا ، وإنْ خفتمُ شِقَاق بينهما فابْعَثُوا حكمًا من أهْله ، وحَكَمًا من أَهْلها ، إن يُريدَا إصْلاَحا يوفَق اللهُ بينهمَا ، إنَّ اللهَ كَانَ عليماً خَبِيراً »[1] .

ويقول جار الله كلاما طيبا .

ونوجز ذلك فى الآتى :

– **القوامة للرجال** – وقد تكلمنا عن ذلك فيما سبق – ...

– **والصالحات** من النساء اللاتى يحسنَّ العشرة ، ويتأدبن بآداب الدين ...

– من يُخْشَى منهن النشوز ، فإن الرد إلى جادة الصواب يكون بما يلى على الترتيب القُرْآنِّى :

(أ) **الْوَعْظ** : مع التوقيت المناسب له ، وبالحكمة ، والموعظة الحسنة ، وبالمطالبة الحسنة بالأمر الذى يحفظ حق الله ، وأمانة الله : من التعفف ، والتحصُّن ، والشفقة على الرجال ، والنصيحة لهم ، وحُسْن التبعُّل ، وأدب الطاعة ، وحق الزوج .. فيما تقدم ..

وفى الأعم ، الأغلب : إذا كان الوعظ من الزوج صادراً عن قلب

(١) من الآية ٣٤ ، والآية ٣٥ من سورة النساء .

كبيرٍ ، مخلص ، راغب فى استمرار العشرة أدَّى إلى الطاعة ، ولم نحتج إلى العلاج الثانى . . .

وإذا كان الأمر على خلاف ما تقدم جاء الدواء الثانى . . .

(ب) - الهجر فى المَضَاجع :

أى : فى المراقد ، أو كناية عن ترك الجماع ، أو تولية الظهر فى المضجع ، مع عدم ترك البيت ، وموضع النوم . . . لئلا يَدبّ السلوّ ، فيعزّ المطلب . . .

وفى هذا السلوك من الإيلام ، الذى لا يطاق الصبر عليه من الزوجة ما فيه . . . كما أنه يجعل قلبها نهبًا لوساوس كثيرة ، لا تستطيع النوم معها ، أو السكوت عليها . . . وفى الأعم الأغلب تأتى مراجعة للنفس ، ومحاسبة على النُّفْرَة ، والتقصير ، بما يؤدى إلى عودة الأمور إلى نصابها ، والرجوع إلى الحق خير من التمادى فى الباطل . . .

وإذا كان الأمر ، وهو الهجر لا يؤدّى إلى تصحيح المسار ، وعودة المياه إلى مجاريها جاء **الدَّوَاءُ الثالث** :

جـ - الضَّرْبُ المُبَاح :

وهو الضرب الذى لا يشين لحمًا ، ولا يكسر عظما ، كما لا يضرب الوجه ، ولا يؤذى بالضرب (١) .

وعلى الرجل فى ذلك : أن يتأدب بآدب الله (عز وجل) الذى شرعه لعبده ، ورسوله أيوب (عليه الصلاة والسلام) فقد حلف إن شفاه لله (عز وجل) من مرضه ليضربنّ زوجته مائة ضربة ، فقال له الله تعالى : « وخُذْ بيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِب به ، وَلا تَحْنثْ » (٢) .

ويقول القرطبى : « . . . فلمَّا شفاه الله أمره أن يأخذ ضَغْثًا ،

---

(١) انظر ١ / ٥٠٥ إلى ٥٠٧ الكشاف .

(٢) من الآية ٤٤ من سورة ص .

فيضرب به ، فأخذ شماريخ قدر مائة ، فضربها ضربة واحدة : لزوجة كانت الأنموذج للطاعة ، والوفاء .

وقيل.: الضغث : قبضة حشيش مختلط الرطب باليابس .. »[1].

وضَرْب التأديب ، المباح يؤدى غالبًا إلى الصواب ، ويرد الشاردة إلى ساحة الطاعة ...

فإذا لم تجر الأمور على ذلك جاء ولم يشف الدواء الداء **البَلْسَمُ الرابع** :

د - التحكيم :

وخلاصة التحكيم ما يلى : أخذا من جار الله فى كشافه .

- الحكم الذى يُبْعث عن الزوج ، أو الزوجة ينبغى أن يكون رجلا مقنعًا ، رضيًّا ، يصلح لحكومة العدل ، والإصلاح بينهما .

وإنما كان بعث الحكمين من أهلهما ؛ لأن الأقارب أعرف ببواطن الأحوال ، وأطلب للصلاح ، وإنما تسكن إليهم نفوس الزوجين ، ويبرز للحكمين ما فى ضمائرهما من الحب ، والبغض ، وإرادة الصحبة ، والفرقة.

فإن أراد الحكمان إصلاحًا جاء التوفيق بين الزوجين ...

وكذلك : إن قصد الزوجان إصلاح ذات البين قلَّب الله (عز وجل) القلوب ، ووجهها إلى التغاضى عن الهفوات ، وردها إلى الألفة ، والحب ...

. **وفى الغالب** من أحوال الزوجين : الرغبة فى العودة إلى ساحة الحب، والسلام ، وكل من الزوجين فى حاجة إلى حكيم مصلح ، طيب الحديث ، يرد الزوجين إلى الصواب ، مع حفظ ماء الوجه ..

ما قدمناه : من عرض موجز لدستور إصلاح الأسرة السماوىّ هو **القاعدة** فى الإصلاح ، وإضاء النفوس التى تنافرت ، وردها إلى منطق العقل ، والحكمة ، والتشريع المحكم ...

(١) ٧/٥٦٥٦ ، ٥٦٥٧ الجامع لأحكام القرآن ...

وكل ما تقدم : إنما هو من أجل :

– استمرار السكن ، والمودة ، والرحمة . . .

– الرعاية للعيال ، وعدم تعريضهم للتشرد ، الذى يجعلهم وباء فى المجتمع ، ووبالا عليه . . .

– الإبقاء على علاقات النسب ، والأصهار . والأختان فى ظل الحب، والتعاون . . .

– قوة المجتمع فى قوة لبنته الأولى الأسرة فالأسرة الصالحة أساس المجتمع الصالح . . .

أما شذوذ القاعدة :

فإنه يأتى من :

– زوجة لا تريد الاستمرار فى العشرة ، لحاجة فى نفسها ، لا لخلق غير سوىّ ، ولا لدين رقيق – كما حدث مع زوجة ثابت بن قيس (رضى الله عنه) . . . وسيأتى ذلك . . .

– أو من زوجة غرِّر بها ، فحسبت كل بيضاءَ شحمةً ، وكلَّ سوداءَ فحْمَة ، وأراقت ما معها من ماء ، لتجرى خلف سَرَاب ، يحسبه الظمآن ماء ، حتى إذا جاءت لم يجده شيئًا وإما لأنها لا تقوى على الصبر على معيشة ضيِّقة ، يأتى بعدها فرج الله ، وتأتى سعته – كما وعد ربّ العزة بذلك « وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْه رزْقُهُ فَلْيُنْفقْ مِمَّا آتَاهُ اللّهُ ، لا يكلفُ اللّهُ نَفْسًا إلاَّمَا آتَاهَا سَيَجْعَلُ اللّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا » (١) .

كما يأتى الشذوذ من زوج ذواقة ، مفتون بالجمال ، والمال ، وبزينة الحياة الدنيا . . .

كما يأتى من عيوب تجيز الشريعة التفريق معها بشروط معينة قننها – فقهاء الإسلام وهذا يأتى بالنسبة للزوجين . . .

---

(١) من الآية ٧ من سورة الطلاق .

أو بأسباب أخرى . . .

فإذا ضاقت النفوس ، واستحالت العشرة الطيبة ، ولم تحتمل الحياة مع الضر ، ونفذ الصبر فإن الشرع الحكيم يجيز أبْغَضَ الحلال إلى الله (عز وجل) وهو :

الطَّلاَق :

والطلاق : لغة رفع القيد . . .

وشرعا : رفع القيد ، الثابت شرعا بالنكاح .

ويترتب عليه : إنهاء عقد الزواج بآثاره . وأحكامه ، فيزول حل الاستمتاع كما لا يملك الزوج حق احتباس الزوجة فى داره ، بعد انتهاء العدة .

ولما كان الطلاق : فرقة زوجين ، وهدم عش الزوجية ، وضياع العيال ، وفساد المجتمعات فقد أحاطه الشرع الحنيف بضمانات قبله ، وذلك : حيثما تثبت استحالة الحياة الزوجية بين زوجين متنافرين . . .

وقد وصى الرسول الأمين بالنساء خيراً ، ونهى من فرك المؤمن المؤمنة لأنه إن عاب منها خلقا ، رضى منها آخر – وقد تقدم ذلك . .

وإذا وعينا ما تقدم علمنا أن مجال الطلاق قد ضاق ضيقًا شديداً ، ما لم يكن معْدُومًا عند استعمال الحكمة ، ومع الصبر .

ويقول القرطبىّ :

« قال علماؤنا : فى هذا دليل على كراهة الطلاق ، مع الإباحة ، وروى عن النبى (ﷺ) أنه قال : « إنَّ الله لا يكرهُ شيئًا أباحه إلا الطلاق »[1] .

ولا يقع الطلاق من زوج، يدرك العواقب، ويقدر الأمور حق قدرها ، ويسير مهتديا بنور الإسلام، ومستمسكا بآدابه ،ومن امرأة تقدر واجبات

---

(1) ٢/ ٦٦٨ : الجامع لأحكام القرآن .

الزوج ، وتعمل لراحته ، وإسعاده ، وتعمل لاستقرار أسرتها ، وتخشى ربها ، وتفكر فى عواقب الأمور ، وتدرك مغبة ركُوب الرأس ، والسير مع الهوى ، والميل مع الريح حيث تميل ...

لكن النفوس البشرية إذا لم تُرَض على الدين ، وتُرَبَّ عليه ، أو أخذت تربية معكوسة ، تجعلها لا تزن الأمور بموازين الدين ، والعقل ، ولا تقدر عواقب ما تأتى ، وما تذر ...

وهنا يطيب لنا أن نعرض أحكام الدين الحنيف ، لتربية النفوس التربية السليمة وحملها على الخير ، والتحلّى بالصبر ؛ ليكون الطلاق فى أضيق دائرة ، ومع تعذر الوفاق **فنقول** :

١ - على المسلم ألا يجرى على لسانه مادة (ط ل ق) حتى لا يعتاد ذلك وفيه الشر المستطير ... ويقول الفقيه المالكى : ابن أبى زَيْد القَيْروَانىّ « ويؤدب من حلف بطلاق ، أو عِتَاق » . ويشرح أبو الحسن ما تقدم ، فيقول : « إذا كان بالغا ، عالما ، معتاداً للحلف بذلك ، ويكون ذلك جرحة فى شهادته »[١] .

وتعليل الخطر من خوف الاعتياد على ذلك .

وهذا من قبيل : « لا تقربوا ... » ؛ لأن اعتياد ذلك يجر إلى شر مستطير ...

٢ - تقسيم الطلاق إلى سُنىّ ، وبِدْعىّ :

فالسنىُّ ما استوفى شروطا خمسة :

١ - طلقة واحدة ... ٢ - كاملة ... ٣ - فى طهر ... ٤ - لم يمسسها فيه ... ٥ - بلا عدة ، أى : لا يوقعه عليها ، وهى معتدة ...

والبِدْعِىّ : ما انتفت فيه الشروط المتقدمة ، أو بعضها ...

وفى صحيح البخارى : « ... طلّق ابنُ عمر امرأته ، وهى حائضٌ ،

---

(١) ٢ /١٧ شرح أبى الحسن لرسالة القيروانىّ .

فسأل عمر النبى (ﷺ) قال : مُرْه أن يراجعَها ، ثم يطلّق من بعد عدتها . . . » (١) .

وفى أمر الرسول العظيم **رحمتان** :

الأولى : عدم طول العدة ؛ لحصول الضرر بطولها .

والثانية : مراجعة النفس ، وسكوت الغضب ، وتفويت كيد الشيطان . . .

٣ - جعل حبل العصمة بيد الرجل :

لقوله تعالى : « الرِّجَالُ قوَّامُون على النِّسَاءِ . . . » (١) .

وقد تقدم ، الكلام فى ذلك .

ويجوز للرجل أن **يفوِّض المرأة** فى ذلك . . .

ويمكن أنِ يشترط ذلك فى صلب عقد الزواج ، وعند إنشائه . . .

وذلك : كأن يقول رجل لامرأة « إن تزوجتك فأمرك بيدك ، تطلقين نفسك فى أى وقت شئت ، ثم تزوجها مع هذا التفويض ، ولا يتقيد بزمن لعمومه » (٢) .

وفى هذه الحالة يكون طلاق المرأة بيدها ، توقعه على الزوج متى شاءت ، ويكون الرجل - والحالة هذه - قد تخلى عن قوامته ، ونزل عن المرتبة التى منحها له ، ولمثله رب العزة (سبحانه وتعالى) .

ورأينا : أن مثل هذا الزواج قلما يدوم ، لتفويضه لمن شأنها أنها تجرى مع عاطفتها حيثما جرت . . .

كما يمكن التفويض :

وهو : أن يملك الزوجُ غيرَه حق تطليق امرأته ، وقد يكون ذلك الغير هو الزوجة .

---

(١) انظر الأحاديث فى ٢٠ / ١٠ ١٦٨ فتح البارى . . .

(٢) من الآية ٣٤ من سورة النساء .

(٣) انظر ص ٧٩ محاضرات فى الفقه الإسلامى للأستاذ الحسينى .

والأصل فى هذا النوع تخيير الرسول العظيم لنسائه بقول الله (عز وجل) : « يأيُّها النبىُّ قُل لأَزْوَاجك : إنْ كُنتُنَّ تُردْنَ الحياةَ الدُّنْيَا ، وزينَتهَا ، فتعالَيْن أمتعْكُنَّ ، وأسرحكُنَّ سَراحًا جَميلاً ، وإنْ كُنتُنَّ تُردْنَ الله ، ورَسُولَه ، والدَّارَ الآخرة فإنَّ الله أعَدَّ للمُحْسِنَاتِ منكنَ أَجْرًا عَظيمًا »(١).

والتفويض لغير الزوجة توكيل : للزوج أن يرجع فيه ، ولا يتقيد بالمجلس ، إلا إذا علقه بالمشيئة ، كما إذا قال له : طلق امرأتى إن شئت ٠

وإذا كان للزوجة فإنه تمليك فى أمر طلاقها ، لا يصح له أن يرجع فيه ، ويتقيد بمجلس علمها ٠

– بإجماع الصحابة على ذلك ، إلا إذا كانت صيغة التفويض عامة ٠٠٠

رألفاظ تفويض الطلاق :

طلقى نفسك ، واختارى نفسك ، وأمرك بيدك ٠

والصيغة الأولى : لا تحتاج إلى نية ؛ لأنها بلفظ الطلاق ، والثانيتان تحتاجان إلى نية ؛ لأنهما من الكنايات (٢) ٠

وفى **الأعم** الأغلب ينهى هذا التفويض الحياة الزوجية ، للجاج المرأة فى الخصومة ورغبتها فى الانتصار على الرجل ، ولو دَمَّر هذا الانتصار حياتها ، وقوَّض أركان بيتها ٠٠٠ ويلغيها أن تنال الانتصار فى موقف ، وإن كانت ترى بعد« أليم العذاب ٠٠٠

ولذلك : جاء التشريع المحكم ، وجعل العصمة فى يد الرجل ؛ لأنه الأقوى على مجابهة مشكلات الحياة ٠٠٠

وهناك آداب أخرى جاءت بها الشرائع المحكمة ، وذروَتُها ،

---

(١) الآتيان ٢٨،٢٩ من سورة الأحزاب ٠

(٢) ص ٧٩ محاضرات فى الفقه الإسلامى للأستاذ الحسينى ٠

وسنامهما شريعة الإسلام : فى وصايا الرسول المتكررة فى شأن المرأة ، وفى غَضٍّ البصر ، وحِفْظِ الفرج ، . . .

وهذه الوصايا : عند العمل بها السعادة ، والهناءة ، ومع التمسك بأهدابها ما يجعل الطلاق يكاد يكون ضربا من المحال (١) .

لكن إذا ركب الناس رءوسهم ، ولم يتأدبوا بأدب ربهم ، وجروا مع عاطفتهم طلقًا جَمُوحًا ، واستحالت العشرة ، وتعذَّر استمرارها . . .

هنا : تكون الرحمة فى :

الطَّلاَق :

وينبغى أن يكون سُنِّيًّا – كما قدمنا .

ويكون رجعيًّا ، طلقة واحدة ؛ لأن كل طلاق يقع رجعيًا ، إلا فى الحالات الآتية :

١ – الطلاق قبل الدخول .

٢ – الطلاق على مال .

٣ – الطلاق المكمل للثلاث .

ويلزم للطلقة الرجعية ما يلى :

عدم الإخراج من بيت الزوجية – لأن الحبل متصل فى الطلاق الرجعى مدة العدة الشرعية ، قال الله تعـــالى : « لاَ تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ . . . » (٢) .

وللمطلقة طلاقا رجعيا فى مدة العدة الشرعية : السكنى فى مسكن فراقها – إن كان لائقا بها – ولها النفقة – بحسب حال الزوج – ولها الكسوة ، ولها بقية المؤن ، إلا آلة التنظيف » (٣) .

---

(١) انظر كتابنا : المرأة عبر العصور بين هوان الجاهلية ، وعزة الإسلام .

(٢) من الآية الأولى من سورة الطلاق .

(٣) انظر ٣ / ١٢ تيسير فتح القريب المجيب – لنا .

ومن ذلك يتبين لنا : أن الطلقة الرجعية ، إنما تكون لمراجعة النفس من الجانبين : فالزوج يدرك الفراغ ، والزوجة تعيش فى وحدة قاتلة .

وفى الأعم الأغلب : تكون فترة العدة فترة قاسية ، يُحْسَب فيها حساب المكسب ، والخسارة ... **وقد تكون النتيجة** العودة إلى وفاق دائم ، وتكون فيه فرصة الصبر . والاحتمال أقوى ، وأفضل ... وتسير الحياة نحو غايتها المرسومة ...

والنفوس الشريرة إذا عادت إلى شراستها ، وكان الطلاق الحلَّ المناسب ، وضربة لازم ... فإنَّ الزوج يعطى فرصة أخرى كالسابقة ...

ولعل الدرس فيها أجدى ، وأنفع ...

وبالثانية : يكون الزوج قد استوفى الطلقتين ، ويقول رب العزة (جل ، وعز) : « الطَّلاَقُ مرَّتَان : فإِمْسَاكٌ بمعرْوفٍ ، أوْ تَسْرِيحٌ بإِحْسَانٍ »(١) .

فإن كانت زيادة على الطلقتين ، فإن أدبا سماويا لا تحتمله النفوس الكريمة يكون الدواء المرّ لهذا الداء .

وهذا الدواء فى قوله تعالى : « فإِنْ طلَّقَهَا ، فَلاَ يَحلُّ لَهُ من بعد حتّىَ تُنْكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ »(٢) .

ويقول الشيخ مخلوف : « ... أى : فإن طلقها الطلقة الثالثة ، فلا تحل له حتى تنكح زوجًا آخر .

والمراد بالنكاح هنا : الوطء ، فلا تحل له بمجرد العقد »(٣) .

ويضع الرسول الأمين قبداً هَامًّا – ليتردع كل رجل يطلق ثلاث طلقات ، حتى لا يقع فى ذلة ، وهوان ...

---

(١) من الآية ٢٢٩ من سورة البقرة .

(٢) من الآية ٢٣٠ من سورة البقرة .

(٣) ص ٥٥ صفوة البيان .

« عن عائشة (رضى الله عنها) أن رِفَاعَة القَرظبىّ تزوَّج امرأةً ، ثم طلَّقها ، فتزوجت آخرَ ، فأتت النبى (ﷺ) فذكرتْ له أنه لاَ يَأْتها ، وأنه لَيْس مَعَهُ إلا مثلُ هُدْبة الثَّوبِ ، فقال لاَ : حتَّى تذوقِى عُسَيْلَتَهُ ، ويَذُوق عُسَيْلتُك »(١) .

وخلاصة ما تقدَّم :

- تزوج رفاعة القرظى من تميمة بنت وهب ، فطلقها ، ثم تزوجها عبد الرحمن بن الزبير ، وكان الطلاق بائنا .

- طلقها عبد الرحمن بن الزبير ، فأتت النبى (ﷺ) فقالت : إنه طلقنى قبل أن يمسنى ، أفأرجع إلى ابن عمى زوجى الأول ، قال : لا . . . الحديث . . .

- **وقد أخذ من ذلك** : على أن وطء الزوج الثانى لا يكون محللا ارتجاع الزوج الأول للمرأة إلا إن كان حال وطئه منتشرا ، فلو كان ذكرا أشل ، أو كان هو عِنِّينًا ، أو طفلاً لم يكف على أصح قول العلماء . . . »

وعن الأزهرى : « . . . معنى العُسَيْلة : حلاوة الجماع الذى يحصل بتغييب الحشفة فى الفرج . . . » .

وجمهور العلماء على أن « ذوق العسيلة كناية عن المجامعة ، وهو تغييب حشفة الرجل فى فرج المرأة » (٢) .

ومن أنواع الطلاق ما يُسمَّى بالخُلْع :

والخُلْع : لغة الإزالة ، واستعمل فى إزالة الزوجية .

والخلع : شرعًا : إزالة ملك النكاح ، المتوقفة على قبولها بلفظ الخلع ، أو ما فى معناه كالمبَارأة .

وحكمه : وقوع طلاق بائن .

---

(١) ٢٠/١٤٧ – ١٥٠ فتح البارى . .

(٢) انظر ابن حجر ٢٠/١٤٥ إلى ١٥٠ فتح البارى .

وصفته : أنه يمين من جانب الزوج ، فلا يصح له أن يرجع فيه قبل قبولها .

ولا يصح شرط الخيار له ، ولا يقتصر على المجلس .

ومعاوضة من جانب الزوجة ، فصح رجوعها قبل قبوله : إن بدأت بالإيجاب ، وصح شرط الخيار لها ، ويقتصر على مجلس علمها (١) .

والخلع : نوع من الطلاق .

والأصل في مشروعيته قوله تعالى :

« فَإِنْ خِفْتُم ألاَّ يُقِيمَا حُدَود اللهِ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِمَا افْتَدَتْ بِهِ »(٢) .

ويقول جار الله : « (فلا جناح عليهما) فلا جناح على الرجل فيما أخذ ، ولا عليها فيما أعطت (فيما افتدت به) فيما فدت به نفسها ، واختلفت به من بذل ما أوتيت من المهر ، والخلع بالزيادة على المهر مكروه، وهو جائز في الحكم . . . » (٣) .

وعن ابن عباس (رضى الله عنهما) أن امرأة ثابت بن قيس أتت النبى (ﷺ) فقالت يا رسول الله : ثابت بن قيس ما أعْتب عليه فى خُلُقٍ ، ولا دِين ، ولكنى أكرهُ الكفر فى الإسلام .

فقال رسول الله (ﷺ) : أَترِدِّين عليه حديقَتَه ؟ قالت نعم .

قال رسول الله (ﷺ) : اقبل الحديقة ، وطلقِّها تطليقَة » (٤) .

وخلاصة ما تقدم نوجزها فى الآتى أخذاً من شراح الحديث الشريف :

---

(١) انظر ص ٨٨ ، ٨٩ محاضرات فى الفقه الإسلامى للأستاذ الحسينى .

(٢) من الآية ٢٢٩ من سورة البقرة .

(٣) ١ /   الكشاف .

(٤) ٢٠ / ٦٧ ، ٦٨ فتح البارى . . .

أن امرأة ثابت بن قيس نظرت ، فوجدت زوجها أقبل فى عدة : أقصرهم قامة ، وأقبحهم وجهًا ، وأشدُّهم سوَادًا .

وكان ذلك سبب النفرة منه – مع متانة دينه ، واستقامة خلقه – وقد دخل فى قلبها شيء منه ، وخشيت أن تقصر فى حقوقه ، أو تسيء معاملته ، إن أقامت معه على دَخَل ، وذلك يشبه الكفر فى الإسلام .

فرفعَت أمرها إلى الرسول العظيم ؛ لتجد حلاً ، لما انطوت عليه جوانحها . . .

نظر الرسول العظيم فى الأمر ، وقال لها : أتردين عليه حديقته ؟ وقد كانت الحديقة مهرها فقالت نعَم :

فقال الرسول العظيم لثابت بن قيس ، مشيرًا ، وناصحًا ، ومشرِّعًا . . .

« اقْبَل الحديقة ، وطلقها تطليقة » .

وقد تم لها ما أرادت ، وافتدت نفسها بصداقها ، وخرجت من أزمتها النفسية وفرت مما تخاف منه ، وهو سوء العشرة ، وكفر العشير ، الشبيهان بالكفر . . .

فما أعظم شرع الله تعالى للنفوس ! يشرع لها ما يريحها فى حالتى الرضا ، والغضب ، والإقبال ، والإدبار . . .

والأصل : المحافظة على عشّ الزوجية عامرًا بأدب الدين . . .

فإن استحالت العشرة ، ونفرت القلوب ، وحل الملال محل الوصال جاء التشريع المحكم ، فوضع القانون المحكم إلى يوم القيامة . . .

وحقا : فإن الله تعالى أرحم بنا من أنْفُسِنَا !

وصايا مما تقدم ، ونتائج له :

١ – الناس – كلّ الناس – إخوة ؛ فهم من ذكر ، وأنثى ، والتفاضل

---

(١) انظر الشرح ٢٠ / ٦٧ ، ٦٨ فتح البارى . . .

الحق بين الناس . إنما يكون بالتقوى ، والنفع الخـاص ، والعام ، لبنى الجنس ، دون أية تفرقة بين لون ، وجنس ... وغير ذلك .

٢ – رابطة الدم المشترك تقتضى التآخى ، والتعاون ، وتبادل الخبرات ، والمنافع ، ونشر الأمن ، والسلام الإنسانىّ العام .

٣ – جمع الله (عز وجل) البشر على أب واحد ، هو آدم (عليه الصلاة والسلام) ، ومع التفرق ، الذى يجعل النسيان يدب إلى القلوب جمع الله تعالى البشرية على الأب الثانى : نوح (عليه الصلاة ، والسلام) وعند ارتقاء العقول ، وسموّ العواطف ، واتساع آفاق المعرفة يأتى جمع من نوع مغاير ، أسْمَى من سابقية ، مع وجودهما ، وهذا الجمع على أبى الأنبياء : خليل الله : إبراهيم (عليه الصلاة والسلام) ... إذ يعلم أبناؤه – كما علم أبوهم العظيم – معرفة الله تعالى الحقة ، ويرشدون الخلق إلى التى هم أقوم ... لتتهيأ القول إلى الشريعة الخاتمة ، والنبى الخاتم ، والقرآن المهيمن ، واتباع الرسول الأعظم ، الذى دعاهم إلى ما يحييهم الحياة الحقة ...

ونتيجة لما تقدم:فإن كل إنسان بينه ، وبين كل إنسان لُحْمَة من دَمٍ ، وفى ذلك يتساوى الخلق أجمعون، ولحمة أخرى أقوى ، وآصرة أشد هى : آصرة الدين ، وأخوته ... فالمؤمنون إخوة .

٤ – مجتمع المدينة المنورة ، الذى تربى تحت ظلال الوحى ، وبهَدْى الرسول الأمين هو المجتمع الأفضل ، والأنموذج الأسمى للمجتمعات الفاضلة إلى يوم الدين .

٥ – كل ما أحلته الشريعة المطهرة فيه كل الخير لنا ، وما حرمته فيه الضرر المحقق بنا ...

٦ – مادة (ع و ق) تعنى المعانى الواسعة ، التى نشاهدها فى المعوّقين ...

٧ – النواحي المنوعة التى يشملها : التعويق ...

٨ – التعويق من زاوية التزاوج ، ومخالفة نواميس الله تعالى الكونية فى صلاحية كل ذكر لكل أنثى ، مهما تباعدت الصفات ، والألوان ، والجسامة ، والنحافة . . .

٩ – أول نظام للتباعد بين الزوجين – فى عهد الأب الأول : آدم – (عليه الصلاة والسلام) . كان الأخ يتزوج توأمة أخيه ، لأنه المتاح – حينئذ .

١٠ – أخذت الذرارى تغرب فى الزواج ، بعد الاتساع ، وصولا إلى القوة فى عصور ، لا تستغنى عن القوة ، وذلك : بما بقى من إثارة من علم ، وما أكدته التجربة فى ذلك ، وهدت إليه الفطرة النقية .

١١ – أخذت الحياة تسير سيرها الطبيعى ، مع أبناء الأب الثانى نوح (عليه الصلاة ، والسلام) .

١٢ – عرف الناس قديما : النجابة ، والنجباء ، والكياسة ، والأكياس ، والحمق ، والمحمقين . . .

وربطوا بينها ، وبين أسبابها .

١٣ – عرف الناس قديما « الضَّوَى » وربطوا بينه وبين أسبابه . . .

١٤ – العزة للقوة ، والغلبة للأقوياء ، والبقاء للأصلح . . .

١٥ – أساس القوة الإنسان ، وما حوله من المسخَّرات عوامل مساعدة له .

١٦ – نكاح الجاهلية الذى لم تقره الشريعة الغراء كان الهدف منه نجابة الأولادة ، وقوتهم . . .

كنكاح « الاستبضاع » ويطلب من الأقويا ، أو الحكماء . . . وظهر فى الناس من يطلق عليه أنه : « زير نِسَاءٍ » .

١٧ – حصاد الاستبضاع : هدم المجتمع ، وفساد الأخلاق ، وقطع الأرحام ، وتفكك الروابط . . .

١٨ – النوع الآخر من النكاح الحرام : نكاح الرهط من الرجال ، لامرأة واحدة . . .

وهو يعود فى حقيقته إلى النوع الثانى : نكاح الاستبضاع .

١٩ – نكاح البغايا ، ويقوم على باطل ، وعلى غير أساس . . .

٢٠ – أبطل الإسلام أنواعا مألوفة من النكاح : كنكاح الخدْن ، والبدل ، والمتعة ، وقد أحلها لداع ، ولفترة عارضة ، ثم حرم هذا النوع إلى يوم القيامة . . .

٢١ – علينا أن نأخذ العبرة من أمَمٍ ممَّا يعيش بيننا ، ونقف على التوازن الإلهى ، الدقيق . . .

٢٢ – عقد الزواج ، والتبعات المترتبة عليه . .

٢٣ – الأسرة الصالحة أساس المجتمع الصالح .

٢٤ – عناية الإسلام بالأسرة من جميع النواحى . . .

٢٥ – أساس أختيار الزوجة فى الإسلام .

٢٦ – الخطبة ، وما يراعى قبل البناء بالزوجة . . .

٢٧ – الكفاءة بين الزوجين . . . ومتى تعتبر ؟

٢٨ – الابتعاد عن زواج الأقارب ، خشية الضَّوَى .

٢٩ – قراءة الفاتحة وعد بزواج ، لا عقد لزواج . . . فى الأعم الأغلب .

٣٠ – الحكم فى هدايا الزوج . . . عند العدول عن الخطبة .

٣١ – المتعة . . .

٣٢ – دساتير الإسلام بعد البناء بالزوجة .

٣٣ – الأسرة مجال واسع للعلاقات النبيلة ، والعواطف السادية .

٣٤ – الحقوق المقدسة للأسرة ، وعلى الزوجين .

٣٥ – الغيرة المحمودة ، ووصايا الزوج فى ذلك .

٣٦ – خلقت المرأة من عِوَج ، ولزمت الوصية بها لذلك . . .

٣٧ – الذمة المالية للمرأة .

٣٨ – الدستور السماوى لاستمرار حياة الأسر ، وتماسكها . . .

٣٩ – الطلاق . . .

* * *

الفَصْلُ الثَّالث

مسلمات بين يدى البحث – الإعاقة – أسباب المشكلة عبر العصور – المذرَّع – الهجين . المقرف – ما أحدثه الأمويون ... وآثارهم على المجتمع الإسلامى – حصادهم المرّ – العرب والموالى . أنواع الإعاقة ، وآثارها . التنمية ، وميادينها – التنمية البشرية – الإعاقة تعطل التنمية .

وسائل القضاء على الإعاقة – ووصايا

هذا الفصل هو المقصود الأهم لنا ، إذ هو لُبُّ البحث ، والهدف الذى نسدِّد إليه السِّهام للقضاء عليه ، ونحاول اقتلاعه من جذوره ، لنجنب الأسر ، والمجتمعات شرَّه ، ونعدّ للأمة من يحمل أمانة العمل ، ويقوى على متاعب النمُوُ ، ويستطيع فى قوة أن يرتقى صُعُدًا فى سلَّم النُّمُوِّ ، والارتقاء ، لتأخذ الأمم مكانها تحت الشمس ، **وتحقق الأمل بالعمل...**

وذلك فى الموضوعات الآتية ، التى نستمد العون من الله عليها ، ونطلب منه التوفيق ، إذ المقصود ربّ العزة (جلَّ ، وعز) والمطلوب رِضَاه ، وهو الهادى لما فيه الخير ، والسَّدَاد ...

وذلك فيما يلى :

أولاً :

مُسَلَّمات نُقدِّمُهَا بين يَدَى البحث :

١ – يقول الله (عز وجل) : « يأَيُّها النَّاسُ اتَّقُوا ربكُم الَّذى خَلَقَكُم منْ نَفْسٍ وَاحِدَهٍ . وخَلَقَ منها زَوْجَهَا ، وبَثَّ منهُمَا رِجَالاً كَثِيراً ، وَنِسَاءً » (١) .

– **النداء** : من رب الوجود (جل ، وعزَّ) نداء تكريم ؛ لأن أداة

(١) من الآية الأولى من سورة النساء .

النداء « يَا » وهى لنداء البعيد ، **والمراد** بالبُعْد – هنا – بعد الرُّتبة ، والمنزلة، للتكريم . . .

وقد أوقع النداء على « **أىّ** » وهى وصلة لنداء ما فيه « ألْ » : النَّاس، و« هَا » للتنبيه ، وهى قنطرة يعبر عليها النداء . . .

والمنادى فى – الأصل – « النَّاس » – كلّ النَّاس – وما تقدم يعطى نباهة شأن المنادى . وتكريمه . . . والأمر بالتقوى يتناسب مع مَنْ هذه عظمته ، فقد خلق الناس من نفس واحدة : آدم ، وخلق منها زوجها : حوَّاء ؛ ليكون بها آنس ، ولتكون إليه أقرب ، فهو يَحِنّ إليها حنين الكل إلى بعضه ، وهى منجذبة إليه إنجذاب البعض إلى كله . . .

وبث منهما رجالا كثيراً ، ونساءً : نَشَر ، وفرَّق ، وذَرأَ ، وأوْجَد .

ومَنّ هذه صفته تجب له التقوى عن حُبٍّ ، واقتناع ، وعبودية ، وإخبات . . .

والمقصود بالناس : كلّ الناس .

ومن ذلك نقول : إنَّ « ألْ » المعرِّفة فى النَّاس » للجنس ، والجنس يشمل الحقيقة كلها ، إذ لو وضَعْنَا كلمة « كلّ » فى غير القرآن الكريم ، وقلنا : يا كلّ الناس كان المعنى واضحا ، وسليما . ومستقيماً . . .

ويمكننا أن نقول – فى غير تحرج – فى المعنى :

يا كلّ الناس : قديمهم ، وحديثهم ، ومتأخرهم ، لقد جعلنا بينكم لحمة نَسَب ، وأخوة دم فقد خلقناكم من ذكر ، ومنه خلقت أنثاه ، ومنهما جاء الجنس البشرى كله . . .

• فاجعلوا بينكم وبين غَضَب ربكم وِقَاية من الإيمان به وصلاح العمل، والاعتقاد . . .

والآية الكريمة تثبت إثباتا قاطعًا الأخوة الإنسانية لبنى الإنسان جميعا .

ويعزز ذلك الحديث الشريف العظيم « كلكم لآدم ، وآدم من تراب ، لا فضل لعربى على عجمىّ إلاّ بالتقوى » .

والحديث الشريف قَبَسَ من الآية الكريمة : ﴿ . . . إِنَّ أَكْرَمَكُم عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُم ﴾ (١) .

فما أعظم الله تعالى! فقد جعل الميل الفطرىّ الغَرَزِىْ بين آدم وحواء ينتقل إلى كل آدم ، وحوَّاء ، حتى يرث الله الأرض ، ومن عليها ، وما عليها ، وقمة ما تقدم ، وسنامه ما يناله آدم من حوّاء ، وما تناله كل حواء من آدم من قضاء الوَطَر ، وراحة النفس ، مما يجعل الأحياء يسيرون نحو غايتهم ، والحياة تسير فى خطها المرسوم إلى الأجل المسمّى . . .

وتنكير « رِجَالاً . . . ونِسَاءً » لحكمة سامية ، وبلاغة عالية ، إذ يشير التنكير إلى المساواة فى الخلقة ، والتكوين ، وأداء أدوار الحياة . . .

ويشير جار الله إلى ما يلى

– **الناس** : هم بنو آدم ، الذين فرَّعهم الله تعالى من أصل واحد : آدم . . .

– **والمعنى** : شعَّبكم من نفس واحدة ، هذه صفتها ، وهى أنه أنشأها من تراب وخلق زوجها حوّاء من ضِلَع من أضْلاَّعها . . . وبث من نوعى جنس الإنس الذكور ، والإناث . . . (٢) .

ويقول البيضاوى : « **والمعنىَ** : ونشر من تلك النفس ، والزوج ، المخلوقة منها بنين ، وبنات كثيرة . . . » (٣) .

ويقول الشيخ مخلوف : « خلقكم من نفس واحدة ، هى آدم (عليه السلام) .

وذلك من أظهر الأدلة على كمال القدرة ، وأقوى الدواعى اتقاء

---

(١) من الآية ١٣ من سورة الحجرات .

(٢) انظر ١ / ٤٦ الكشاف .

(٣) ص ١٠١ البيضاوى . . .

موجبات نقمته ، وإلى مراعاة حقوق الأُخوَّة فيما بينكم ، وخلق من آدم زوجه حَوَّاء . . . (وبث منهما) أى : نشر ، وفرق منهما بالتناسل »[1].

وقد كانت حوَّاء السَّكن ، ونشأت بينهما بالمعاشرة ، والمخالطة، والمضاجعة . . . المودَّة ، والرحمة ، ومنهما خلق الله تعالى الرجال ، والنساء ؛ لتكملة كل منهما بصاحبه . . .

وتفسر الآية الكريمة الآية المتقدمة فضل تفسير ؛ إذ خير ما فسر القرآن القرآنُ ، وذلك قوله تعالى :

« يأيُّها الناسُ : إنَّا خلقْناكم منْ ذَكرٍ ، وأُنثَى ، وجعلناكُم شُعُوبًا ، وقبَائلَ ؛ لتعَارَفُوا ، إنَّ أكرَمَكُم عنْدَ الله أَتْقَاكُم ، إن الله عليمٌ ، خَبيرٌ »[2].

النداء : « بيَا » ووقوعه على « أىْ » ، والقنطرة « هَا » والمقصود بالنداء الناس ، و« ألْ » فى الناس لاستغراق أفراد الجنس – وقد تقدم كل ذلك . . .

وهنا : جاءت المساواة فى جميع ما قدمناه . . .

ثم يأتى الخبر المؤكد « بإنَّ » الموضوعة للتوكيد ، ويأتى إسنادُ الخلقة لله (جلت قدرته) و« كُمْ » وإن كانت تعنى الجمع للمقابلة بالناس ، فإن المراد يكون خلقنا أباكم وهو أصلكم من : تراب ، فطين ، فَحمَأ مَسْنُون ، فصلصال ، ثم نفخنا فيه من روحنا ، فصار خليقا بالخلافة فى الأرض ، وأصبح مستودعا لأسرار الكون ، وللمعارف العامة – بتعليم الله تعالى – ومنه خلقت حوَّاء ، وآدم ، وحواء هما المعنيان بالذكر ، والأنثى ، وجاء التنكير فيهما لما تقدم . . .

وقد بث الله منهما رجالا كثيراً ، ونساءً ، وجاء من ذلك ما تُعورُف عليه من الشُّعُوب ، والقبائل . . .

---

(١) ص ١٠٥ ، ١٠٦ صفوة البيان .

(٢) الآية ١٣ من سورة الحجرات .

ويعجبني – في ذلك قول الشيخ مخلوف : « إنا خلقناكُم من ذكرٍ ، وأنثى) أى : من آدم ، وحوَّاء ، **فأنتم فى ذلك سواء** .

فلا محل للتفاخر بالأنساب ، وقد كانوا يتفاخرون بها ، ويزدَرُون الضعفاء ، والفقراء (وجعلناكم شُعُوبًا ، وقبائل : جمع شعب ، وهو الجمع العظيم ، المنسوبون إلى : أصل واحد ، وهو يجمع القبائل ، والقبيلة تجمع العمائر ، والعمارة تجمع البطون ، والبطن يجمع الأفخاذ ، والفخذ تجمع الفصائل ، والفصيلة تجمع العشائر (لتعارفوا) أى : ليعرف بعضكم بعضا ، فتصلوا الأرحام ، وتتبينوا الأنساب ، وتتعاونوا على البر . لا التفاخر ، والتطاول بالآباء ، والقبائل » [١] .

ويقول جار الله :

« **والمعنى** : أن الحكمة التى من أجلها رتبكم على شعوب ، وقبائل هى : أن يعرف بعضكم نسب بعض ، فلا يَعْتَزى إلى غير آبائه ، لا أن تتفاخروا بالآباء ، والأجداد ، وتدعوا التفاوت ، والتفاضل فى الأنساب »[٢] .

ونقول : أخذا مما تقدم ، ومن غيره مما جاء فى معناه ، وفَحْوَاه :

– الأصل فى جعل الشعوب ، والقبائل ، ... التعارف وصولا إلى التعاون المطلق فى كل شيء يطلب فيه التعاون ، مع التقيدّ بقوله تعالى « وتَعَاونُوا عَلَى الْبرِّ ، والتَّقْوَى ، ولا تَعاونُوا عَلَى الإِثْم ، والعُدْوان » [٣] .

ويُرَاد : أن مجال التَّعَاون بين بنى البشر : الايمان بالله (عز وجل) وعلى فعل الطاعات ، والاستقامة ... واجتناب جميع المنكرات ، والتواصى بين العقلاء بذلك ، ولا تعاوُن بينكم فيما حرمه الله (عز وجل) ولا على ترك ما أمر به ، أو فعل ما نهى عنه ، ولا تتجاوزوا الحدود فى العدوان ، والظلم ...

---

(١) ص ٦٥٩ صفوة البيان ، وانظر ٤ / ٣٧٤ الكشاف .

(٢) ٤ / ٣٧٥ الكشاف . (٣) من الآية ٢ من سورة المائدة .

ومن ذلك - أيضًا - نقول :

ما أعظم الله (عز وجل) ! فقد أنعم بالخلق ، والإيجاد ، كما أنعم بنعمة الهداية ، ومن أجل النعم أن هدانا ، ووجهنا إلى معرفة الشعوب ، والقبائل ...

والله تعالى يعلم مَنْ خلق ، ويكلف مَنْ خلق ، ولا يكلّف نفسا إلا وُسْعَهَا ...

والناس فى ذلك مأمورون بالتعاون المطلق فى حدود ما رسمت الشريعة ... وجعل الدوافع إلى التعاون أمورًا كثيرة . يأخذ منها كل إنسان على حسب مدركاته ، ومجالات معارفه ... ومطالب الحفاظ على الحياة ، وبقاء النوع .

- **فلُحْمَة النسب** : فى الشعوب ، والقبائل ، والأفخاذ ، والبطون ... لمن ضاقت دائرة معارفه ...

والشريعة السَّمْحَاء : وضَّحت العلاقات الاجتماعية ، وما يجب لها : من أُبوَّة ، ونبوة ، وعمومة ، وخئولة ، وذوى أرحام ، وغير ذلك ... ومن سَمَا فكره وارتقت معارفه اتَّسَع مجال التعاون أمامه ، فشمل الإنسانية جَمْعَاء ، وعمِل للإنسانية جمعاء - إن وسعه ذلك - لأن الجميع لآدم ، وهم إخوة فيه ... والرحم فى آدم تكاد تكون مقطوعة ، وينبغى أن توصل : للخير ، وفى الخير ، وللأمن ، والسلام ...

ويظاهر جميع ما تقدم ما رواه البيهقى فى الشعب :

« يأيها الناسُ : ألا إن ربَّكُم واحدٌ ، لا فَضْلَ لعَربِّى عَلَى عَجَمِىٍّ ، ولا لعَجَمىّ على عَرَبىّ ، وَلَا لأسْو د على أحْمَر ، ولا لأَحمر على أسْوَد إلاَّ بالتقْوَى .

ألا هَلْ بلَّغت ؟ قالوا : بَلَى : يا رسول الله .

قال : فَلْيُبلِّغ الشَّاهدُ الغائبَ »[1] .

---

(١) انظر ص ٦٥٩ صفوة البيان .

والحديث الشريف قبس من قوله تعالى : « إِنَّ أَكْرَمَكُم عِنْدَ الله أَتْقَاكُمْ » . هذا هو ميزان الله (عز وجل) الذى يزن به الأحياء ، وأعمالهم . . .

فالأرفع منزلة ، والأرجح وَزْنًا ، والأرقى مكانَةً ، والأثبت موقعًا . . .

إنما هو التقىّ ، الذى لم يفتقده ربُّه حيث أمره ، ولم يجده حيث نهاه . . .

ومن ذلك نقول :-

- مجال التفاخر التقوى :

- رجحان وزن التقى عَلَى غيره من الناس . . .

- لا وزن للصُّوَر ، والألوان ، والأموال ، وإنما الوزن للقلوب ، والأعمال . . .

- من أراد أن يفاخر ، فلا مجال لتفاخره إلا تقوى الله (عز وجل) .

- ولعل المقصود بالتفاخر : إنما يكون فى إظهار توفيق ، وضعه الله فيه ، ونجاح فى مَسْعَى خَيْر أعانه الله عليه ، وفى عمل خير لنبى جنسه أجراه الله على يديه . . . وغير ذلك .

ونقول - فى عكس ما تقدم :

- إن أى تفاخر لا ينبع من موارد التقوى إنما هو نزوع إلى جاهلية جهلاء . . .

- وإن الناس إخوة فى الأب الأول : آدم (عليه السلام) .

- وإن التفاخر بأصل عرقى ، أو عصبية ممقوتة ، إنما هو خروج عن منهج الدين الحنيف .

- **ونقول** : لا تفاخر بعظمٍ رمَيم ؛ وإنما بالعِصَامِيَّة ، والتقوى ، وقديما قالوا : « ليس العِظامىّ ، كالعِصَامىّ » وقالوا : إِنّ فَخَار من يَبْغِي الفَخَار بنَفْسِهِ . . .

وخلاصة ما تقدم :

الناس سواسِيَة كأسنان المشط ، ولا فضل لِعَرْق ، أوْ دَم ، أو أى أمر عارض .

٢ - **التَّساوى فى أصل الخلقة ، والتكوين** ، والصُّدُور من أصل واحد ، إلاّ ما اقتضته طبيعة النواحى الفسيولوجية ، وما يناط بكل من الجنسين من وظائف ، القيام بأدائها هو الحياة ، وتقدُّم الوجود البشرىّ .

ومن ذلك :

فإن تكوين الرجل ، والمرأة يكاد يكون متحدا ، فالرجل زِيدَ فيه لوظيفة ، أُهّلَ لها ، والمرأة زِيدَ فيها لأداء دورها فى الحياة ، واستمرارها . . .

والنقص أو الزيادة فيهما اقبضته طبيعة دور كل منهما فى الحياة . . .

وتقدم لنا ذلك فى قوله تعالى : « خلْقناكم منْ ذكَرٍ ، وأُنْثَى » (١).

ونقدم بين يدى ذلك قوله تعالى : « بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ » (٢) والبعضية ثابتة ، ومتحققة بين آدم ، وحواء . . .

وإنها لمتحققة بين ذريتهما : ذكوراً ، وإناثًا إلى يوم القيامة . . .

ويقول جار الله : « . . . أى : يجمع ذكوركم ، وإناثكم أصل واحد ، فكل واحد منكم من الآخر ، أى : من أصله . . . » (٣) .

ونقول فيما عدا آدم ، وعيسى (عليهما الصلاة والسلام) فهما آيتان من آيات قدرة الله (عز وجل) التى لا تحدّها حدود ، ولا يعجزها شىء فى الأرض ، ولا فى السماء ، . . .

---

(١) من الآية ١٣ من سورة الحجرات .

(٢) من الآية ١٩٥ من سورة آل عمران .

(٣) ١/٤٥٦ الكشاف .

الرجل : ابن المرأة : فهى أمه ، وهو ابن لها ، كما أنه أخ ، وعم ، وخال ، وجد ، ... والمرأة : أم الرجل ، وابنته ، وأخته ، وعمته ، وخالته ، وجدته ... وغير ذلك من أواصر الدَّم ، وعُرَى القرابة ...

ومن ذلك :

نجد تمام الشبه فى كل شىء ، إلا ما اقتضته وظيفة عضوية ، أو طبيعة عمل ، ... أو غير ذلك .

وما أصدق الله (عز وجل) حيث يقول ! : « أعْطَى كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُ ، ثَمَّ هَدَى » (١) .

ويقول الزمخشرى :

« ... أى : أعطى كل شىء صــورَتَه وشكله ، الذى يطابق المنفعة ، المنوطة به ...

أو أعطى كل حيوان نظيره فى الخلق ، والصورة : حيث جعل الحصان ، والحِجْر زوجين ، والبعير ، والناقة ، والرجل ، والمرأة ، فلم يزاوج منها يزاوج منها شيئاً غير جنسه ، وما هو على خلاف خلقه ... » (٢).

وفى قوله تعالى : « ثَمَّ هدَى » :

يقول جار الله : « أى : عرَّف كيف يرتفق بما أعطى ، وكيف يتوصل إليه ... » (٣) ؟

والمراد :

أعطى كلاًّ من الذكر ، والأنثى شبهه من كل شىء ، ثم هداه للتودُّد إليه ؛ لتسير الحياة إلى أجلها المسمّى ، ولا اغتصاب إلا عند العقلاء ...

وفى هذا من الشبه ما فيه ؛ ليتم الانجذاب ، ويأتى التوافق ...

---

(١) من الآية ٥٠ من سورة طه ..

(٢،٣) ٣/ ٦٧ الكشاف ...

وصدق الله العظيم حيث يقول : « وَمِنْ كلٍّ خَلَقْنَا زوْجَيْنِ » (١) .

أي : من كل المخلوقات خلقنا من كلّ زوجين اثنين : فالسماء ، والأرض ، والليل ، والنهار ، والشمس ،والقمر ، والبر ، والبحر ، والموت، والحياة ، والذكر ، والأنثى من جميع الحيوانات : عاقلة ، وغير عاقلة .

وكان ذلك ، ليتفرد ربّ العزة (جل ، وعز) بالوحدانية ، والفردانية ، والصَّمَدية ... » (٢) .

وذلك : سبيلٌ إلى المعرفة الحقة ، والعبادة الخالصة ...

ونأخذ من جميع ما قدمناه فى هذا الشأن ...

– تفرُّد الله (عز وجل) بالوحدانية ...

– جميع المخلوقات الأخرى خلق الله (عز وجل) من كل زوجين اثنين ...

– التشابه ، والتوافق بين كل متقابلين من الإنسان ، والحيوان ...

– التشابه : يقتضى التوافق ، والتجانس ، لا التعالى ، والتنافر ...

– والتفكر فى آلاء الله تعالى ، ونعمه المتتابعة ، يجعل المتأمل ، المفكر يؤمن إيمانا صادقًا ، بالتساوى بين بنى البشر ، وينفر من التعالى ، والتفرق .

وهنا : يرد على الذِّهن سُؤَال ، هو :

إذا سلمنا بالتماثل فى الخلقة ، والتكوين : فما بالنا نرى اختلافا فى القدود : طولا ، وقصرا ، وفى النحافة ، والجسامة ، وفى القسامة ، والدمامة ، وفى الألوان : نجد الأبيض والأسود ، والأحمر ، والأصفر ، وفى مختلف الأفرجة ، كما نرى تفاوتا فى درجات الذكاء ، وفى الفهوم ، وألوان التفكير ... وغير ذلك مما يموج به النوع البشرى من المفارقات ، وكذلك فى الألسنة ، ونواحى الميول ، والإعراض ...

---

(١) من الآية ٤٩ من سورة الذاريات ...

(٢) انظر ٤ / ٤٠٤ الكشاف .

والجواب عما تقدم يتلخَّص فى الآتى :

- التوافق فى التكوين الأساسيّ مظهر من مظاهر قدرة الصانع (عز وجل) .

- والتخالف فى الأمور الأخرى سرٌ من أسرار عظمة المصوّر (سبحانه وتعالى) .

إذا لم يتفق اثنان فى هذا الوجود فى جميع الصفات ، حتى فيمن يولد مع غيره فى مشيمة واحدة ... وفى الحديث الشريف : « الناس بخير ما يتباينوا ، فإن تساوَوْا هَلكُوا » .

وتقول : هذا خَلْق الله ، وتلك قدرته ، التى لا يعجزها شىء فى الأرض ، ولا فى السماء ...

وما أعظم القرآن الكريم ! إذ يشير إلى أصول ذلك ، فيقول رب العزة (جل ، وعز) :

« ومِنْ آياته خَلْق السمَّاوَات ، والأرْضِ ، واخْتِلاَفُ ألسنتكُمْ ، وأَمْوالِكُم ، إنَّ فى ذَلِكَ لآياتٍ لِلْعَالمِينَ » (١) .

ويقول جار الله :

« الألسنة : اللغات ، أو أجناس النطق ، وأشكاله ، خالف (عز ، وعلا) بين هذه الأشياء ، حتى لا تكاد تسمع منطقين متفقين فى هَمْس واحد ، ولا جَهَارة ، ولا حدة ، ولا رخاوة ، ولا فصاحة ، ولا لكُنة ، ولا نظم ، ولا أسلوب ، ولا غير ذلك من صفات النطق ، وأحواله ، وكذلك الصور ، وتخطيطها ، والألوان ، وتنويعها .

ولاختلاف ذلك وقع التعارف ، وإلا فلو اتفقت ، وتشاكلت ، وكانت ضربًا واحدًا لوقع التجاهل ، والالتباس ، ولتعطلت مصالح كثيرة .

وربما رأيت توأمين يشتبهان فى الحلية ، فيعروك الخطأ فى التمييز

---

(١) الآية ٢٢ من سورة الروم .

بينهما ، وتعرف حكمة الله في المخالفة بين الحلى ، وفى ذلك آية بينة ، حيث ولدوا من أب واحد ، وفرعوا من أصل فَذّ ، وهم على الكثرة التى لا يعلمها إلا الله مختلفون ، متفاوتون . . . » (١) .

وما تقدم كله يؤكد ما ذكرناه . . .

ولعلّ الحكمة فيه :

- أن يكون آية بينة ، وواضحة لمن يتفكر ، ويتدبر ، ويتعقل ، وهذا شأن العلماء ، الذين شرح الله صدورهم للتفكير فى آيات الله ، وآلائه . .

- التعارف ، والتمايز ، ولو كانوا شيئًا أحدًا لفاتت مصالح كثيرة .

- اللغات إلهام من الله (عز وجل) واللغات كالأناسىّ تمامًا تخضع للضعف ، ثم القوة ، ثم الضعف ، ثم الموت حيث تقبر فى بطون معجمات اللغة ، وقواميسها .

- من عظمة الله (عز وجل) أن جعل الجهاز الصوتى للإنسان جهازًا ، مَرِنًا ، يقوى على النطق بأكثر من مقطع بخلاف العوالم الأخرى ؛ لأن الإنسان مَدَنىّ بطبعه ، ويعيش فى مجتمع يأخذ منه ، ويعطيه . . .

- وإذا كانت عظمة الله تعالى اقتضت توزيع السكان على هذا الكوكب الأرضى ، وهو مختلف فى الحرارة ، والبرودة ، والاعتدال اختلاف البشر فى ألسنتهم ، وألوانهم ، فإن البيئات الطبيعية قد سخرها الله (عز وجل) لخير السكان ، وواءمت قدرة الله تعالى بين البيئة ، وسكانها من حيثيات مختلفة ؛ ليكون السكان : بينهم ، وبين بيئاتهم ملاءمة ، وموافقة . . .

وما أعظم الله تعالى ! يختار من يشاء من خلقه لما يشاء من أرضه ، ويقيم الموافقة ، والملاءة بين الأرض ، ومن يعمرها . . .

---

(١) ٣/٤٧٣ الكشاف .

وكل ذلك : بوزن دقيق ، وتقدير محكم ، هو تقدير العزيز العليم ، الذى يعلم من خلق ، وهو اللطيف الخبير .

ويعزز ما تقدم ما سجله البيضاوى فى معنى الآية الكريمة المتقدمة :

« ... واختلاف ألسنتكم : لغاتكم : بأن علم كل صنف لغة ، وألهمه وضعها ، وأقدره عليها ، أو أجناس نطقكم ، وأشكاله ، فإنك لا تكاد تسمع منطقين ، متساويين فى الكيفية .

وألوانكم : بياض الجلد ، وسواده ، وتخطيطات الأعضاء ، وهيآتها ، وألوانها ، وحلاها ، بحيث وقع التمايز ، والتعارف ، حتى إن التوأمين مع توافق موادهما ، وأسبابهما ، والآمور الملاقية لهما فى التخليق يختلفان فى شيء من ذلك ، لا محالة ... »[1] .

وقد ألهم الله تعالى ، وعلَّم عبده : ابن خَلْدُون حيث أفاض فى مقدمته عن الأقاليم ، واختلافها فى الحرارة ، والبرودة ، والجفاف ، والخصب ، وتكلم عن الأشجار ، والأنهار ، وطرائق العَيْش ...

وذكر تأثير هذه الأقاليم على حياة ، وسلوك ، ومزاج ، وألوان الذين يقطنونها ... كما تحدث عن المعتدل من الأقاليم ، والمنحرف ، وتأثير الهواء فى ألوان البشر ، والكثير فى أحوالهم ...

ولعل ابن خلدون قد بلغ هذا القدر من الدقة ، والوضوح – مع إلهام الله تعالى – بقُلّ مما ذكر السابقون ، وبكُثْر من المشاهدة ، والتجربة ، واستعمال الفكر فى كل ما يقع عليه الحس ، أو يتخيله العقل ، مع إقدار الله تعالى له على الربط ، والموازنة ، والاستنباط وقد أنار الطريق لمن جاء بعده ، وعبَّد السبيل ...[2] .

---

(١) ص ٥٣٦ أنوار التنزيل ...

(٢) انظر المقدمة الثانية : قسط العمران من الأرض ... وانظر تكملة المقدمة الثانية ، وتفصيل الكلام على الجغرافيا ... وانظر المقدمة الثالثة : فى المعتدل من الأقاليم ، والمنحرف ، وتأثير الهواء فى ألوان البشر ، « والكثير فى أحوالهم ... وانظر المقدمة الرابعة : فى أثر الهواء فى أخلاق البشر ، وانظر المقدمة الخامسة ...

وإننا لنقرأ فى **كتاب الكون المفتوح ما يلى :**

- تأثير المناطق الحارة فى قدود الناس ، وألوان بشرتهم ، وشعورهم، وما تتصف به أنوفهم من الفطس فى أغلب الأحيان ... وما يترتب على ذلك من أفرجة الناس ، وطرائق معايشهم ، وألوان سلوكهم ، وأخلاقهم العامة ...

وكذلك يمتد التأثير إلى الزَّرْع ، والشجر ، وحيوانات البيئة ...

وغير ذلك : مما هو من تقدير العزيز العليم ، الذى خلق كل شىء ، وقدره تقديراً ، وكل ذلك فى حكمة بالغة ، ووزن دقيق ...

- **ومثل ذلك** : تأثير المناطق الباردة ، وأثر تلك المناطق على قدود الناس ، وألوان بشرتهم ، وشعورهم ، ورخاوة جلودهم ، وما تمتاز به أنوفهم - فى الأعم الأغلب - من الخنَس ... وما يتريب على ذلك من أفرجة الناس ، وطرائق معايشهم ، وأخلاقهم العامة ، ونواحى سلوكهم ، وما إلى ذلك من مؤثرات ، هى من تقدير العزيز العليم ...

- تأثير مناطق الاعتدال فى جميع ما تقدم على الحياة ، والأحياء ، والشجر ، والنبات ، والحيوان ... وغير ذلك .

وما تقدم : تقدير مَنْ خلق ، لأنه يعْلم مَنْ خَلَق ، وهو اللطيف ، الخبير ...

وهذا لا يقدح فى التشابه، والتماثل ، ولا فى النزوع إلى أب واحد ، وأم واحدة ، وإنما ذلك كله : يخضع لتقدير رب حكيم ، عليم ، مريد ، قدير ...

٣ - صلاحية كل ذكر لكل أنثى ،وصلاحية كل أنثى لكل ذكر :

والأصل : أن يضمهما فراش طُهْر ، وعفاف ، وتجمعهما كلمات الله تعالى ...

والمعول عليه فى ذلك قول الله (عز وجل) : « ... خلقكُم منْ نَفْسٍ واحِدة ، وخَلَق منْها زَوْجَهَا ... »[1] .

والآية الكريمة تشير إلى أصل الخلقة ، والتكوين ، كما تشير إلى أن البشر جمعا من هذا الأصل بقوة قادرة ، وصنعة باهرة ، وإنعام على الخلق واسع ، سعة رحمته ...

والأصل الواحد : يشير إلى الأخوّة ، التى أهدرتها المطامع البشرية... كما يفيد ذلك ما قدمناه ...

وتشير الآية الكريمة من قوله تعالى : « يأيُّهَا النَّاسُ : إِنَّا خَلَقْنَاكُم من ذَكَرٍ ، وأُنْثَى ... »[2] وتنكير « ذكر ، وأنثى » يتناول حقيقة الجنس كلها ...

ويستفاد من ذلك :

- أصل البث ، والانتشار من ذكر ، وأنثى ...
- والبث إلى يوم القيامة ، والانتشار من ذكر ، وأنثى ...
- والتنكير فيهما يعطى الصلاحية التى ذكرناها ، فكل ذكر صالح لكل أنثى ، وكل أنثى صالحة لكل ذكر ... إلى يوم القيامة ...

والتجربة العملية ، والتطبيق العملى ، المستمدان من القراءة فى كتاب الكون المفتوح ما يلى :

١ - فتى الإسكيمو ، ذو الصفات الجسميّة المعهودة صالح لأن يكون زوجا لفتاة الجنوب الإفريقى ، ومن على شاكلتها من الصفات الجسمية المعروفة ...

وفتى الجنوب الإفريقى ، ومن على شاكلته صالح لأن يكون زوجا لفتاة الإسكيمو على هيئتها ، وطبيعتها ...

---

(١) من الآية الأولى من سورة النساء .

(٢) من الآية ١٣ من سورة الحجرات .

والصلاحية تتناول صلاحية المعاشرة الزوجية ، والاستمتاع ، ونسج العلاقات الطبيعية بينهما ، وثمرة ذلك الإنجاب ، والتناسل . . .

٢ – الفتى الأبيض ، ذو الملامح المعينة ، والصفات الجسمية التى تتناسب ، والحياة فى بيئته صالح لأن يكون زوجا للسَّمراء ، والسوداء ، والصفراء . . .

وكذلك الفتاة السمراء ، أو السوداء ، أو الصفراء صالحة لأن تكون زوجة للفتى الأبيض . . .

وما إلى ذلك .

وبالتأمل الواسع ، وبالتفكير الخِصْب نجد ما تقدم متحققا . . .

ولسنا – بصَدَد البحث – عن صفات النسل الناشىء من متباينين : من الصفات الوراثية ، المكتسبة ، وفى المقدمة منها القوة الناشئة عن الإغراب فى الزواج ؛ لأننا سنتحدث عن ذلك – تفصيلا – إن شاء الله تعالى ، فيما سيأتى . . .

والمقصود الأهم لنا من ذلك :

أن نثبت أن البشر جميعا من أب واحد ، هو آدم ، ومن أم واحدة هى حوّاء ، وكل آدم منهما صالح لكل حواء من ذريتها ، وكلَّ حواء صالحة لكل آدم من أولادهما ، حتى يرث الله الأرض ، وما عليها ، ومن عليها .

وإذا كان الأمر كذلك : فلم وضع أهل الأرض حواجز ، ونسجوا خيالا باطلا ، وتواضعوا على أعراف جائرة . . . ؟

والإجابة عن ذلك : ستأتى – إن شاء الله تعالى . . .

ولعل السِّر من وراء ما تقدم : أن الله تعالى قدَّر أزلا للكون أجلاً مسمًّى عنده ، وهذا الكون يعمره من جعله خليفته فى أرضه ، يقيم الحق، والخير ، والعدل ، والسلام . . . وهذا الخلق ، الذى أنست به الأرض بعد وحشة إنما يصل نوعه إلى الأجل المسمى بالتناسل ، وإن من

طبيعة هذا النوع الانتقال فى أرض الله تعالى الفسيحة الأرجاء : طلبا للرزق ، ووسائل العيش ، والإشباع ، والرَّفه . . .

وإنه ليجد فى كل أرض من يعيد معها بكلمات الله تعالى سنة الحياة ، وهى كذلك . . .

وإنه لتقدير من خَلَق ، وهو يعلم من خلق ، وهو اللطيف الخبير . .

٤ - **توزيعُ العَطَايَا ، والمواهب** ، والقدرات ، والخيرات على ما تجود به الأرض ، وما يتمايز به أهلها . . . وصولاً إلى التعاون المثمر الخلاَّق بين البشر جميعًا .

ما أعظم الله ! (عز وجل) : فكلّ شىء عندهُ بمقدار ، وكل شىء من صُنْعه بحكمة ، وميزان ، وقد خلق من خَلَق ، وهو يعلم من خَلَق ، وهو اللطيف الخبير ، وما من شىء إلا عنده خزائنه ، وما ينزله منها ، ويهدى إلى الوصول إليه ، والإفادة منه إلا بقدر معلوم . . .

إذا وعينا ذلك نقول مفرّعين عنه ، ودائرين فى فلكه :

(أ) الأصل الذى عليه فلسفة الكون قَبَسٌ من قوله تعالى : « . . . خلَقَ لكُم مَا فِى الأرْضِ جَميعًا » [1] .

ويقول جار الله : « . . . (لكم) لأجلكم ، ولانتفاعكم به ، فى دنياكم ، ودينكم . . . » [2] ومضى فى الإيضاح ، والتفصيل » [3] .

ويستفاد من الآية الكريمة ما يلى :

- الخلق ، والإبداع لما فى الأرض جميعا خلق الله (عز وجل) الذى لا يُنَازَع فيه . . .

إذ هو ملك الأَمْلاَك قبل أن يوجد المُلاَّك ، والوارث للأملاك بعد ذهاب ، وموت المُلاَّك . . .

---

(١) من الآية ٢٩ من سورة البقرة .

(٢) ١/١٢٢ الكشاف .

(٣) انظر ١/١٢٣ الكشاف .

– حكمة خلقة ما فى الأرض من صُنُوف المنافع كلها ، وألوان الملاذ، وما ينفلّه به مما به قِوَام الحياة ، وإشباع الأحياء ، ورفهها ... أن يكون كل ذلك لمن خلق اللّٰه تعالى من العقلاء ...

وقد يشارك غير العقلاء : الأنعام فى ثمرات الأرض ، وخيراتها ... **ولكن مردّ ذلك** عائد إلى العقلاء ...

فإذا أكل الناس الرَّيْحَان من الحَبّ ، وأكلت أنعامهم الْعَصْفَ : التِّبن ، والخشن... عاد ذلك كله إلى الإنسان فى صورة لحم، ولبن ، ... وصوف ، ودبر ، ...

وغير الأنعام : للركوب ، والزينة ، وحمل الأثقال إلى بلد فى الوصول إليه مشقة النفس ، وإتعاب البدن ، ...

– وقوله تعالى « جَمِيعًا » : يستفاد منه : أن جميع المنافع المخلوقة لجميع البشر ، كما تستفاد من ذلك الشركة فى المنافع ، لكنَّ ذلك ليس بَوَاحا ، وإنما له أعْرَاف ، تحدّد وجوه الانتفاع ، وفطَر سليمة ، تقود إلى تفاهم ، وخير ، وشرائع محكَمة ، تحدِّد حدود الله تعالى ، وتعظم شرائعه... وتقدس الملكية الخاصة ...

وفى القمة منها ، والسنام « لاَ ضَرَرَ ، ولاَ ضِرَار » .

ومن امتلك شيئًا كان له حق المبادلة ، والمعارضة ، مما تجرى عليه الأعراف ، أو تسمح به الفطر السليمة – فى فترات – قلة العلم ، والدين، **والتنظيم الأعظم** ما نزل من ربِّ السماء ، الذى خلق النعم ، وأنْعَم بها على العباد ، وقنَّن لهم القوانين ، ووضع لهم الحدود ...

– لقد تفضل رب العزة (جل وعز) برزْق كل مخلوق على أرضه ، من خيراتها ، وتحت سمائه ... فقد تفضل بأن جعل لكل دابة رزقها ، وإنه ليعلم مكان قرارها ، وما تُودِعُهُ من أرزاقها لوقت حاجتها إليه ...

والحق الذى لا يعتوره قصُور : لم يمت مخلوق جوعا ، ولن يموت...

– مع هذا الإنعام بما تجود به الأرض ، وما عليها جاء التسخير من الله تعالى لخير عباده ، وصدق الله العظيم إذ يقول : « وسَخَّر لكُمْ مَا فِى السَّماوَاتِ ، ومَا فِى الأرْضِ جميعًا مِنْهُ » (١) .

ويقول جار الله : « والمعنى : أنه سخر هذه الأشياء كائنة منه ، وحاصلة من عنده ، **يعنى** : أن مكوِّنها ، وموجدها بقدرته ، وحكمته ، ثم سخرِّها لخلقه . . . » (٢) .

(ب) ومدخلنا إلى تقسيم المنافع ، وثمرات الأرض ، وما تجود به لأهلها ، هو قول الله (عز وجل) : « . . . نَحْنُ قَسَمْنَا بينَهُم مَعيشَتَهُمْ فى الحياةِ الدُّنْيَا ، وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ ، ليتَّخذَ بَعْضُهم بَعْضًا سُخْرِيًّا . . . ﴾ (٣) .

ويقول جار الله فى تبيان ذلك ، وبيان حكمته : « . . . الله (عز وعلا) هو الذى قسمَّ بينهم معيشتهم ، وقدرها ، ودَبَّر أحوالهم تدبير العالم بها ، فلم يسوِّ بينهم ، ولكن فاوت بينهم فى أسباب العيش ، وغاير بين مغازلهم : فجعل منهم أقوياء ، وضعفاء ، وأغنياء ، ومحاويج ، وموالى ، وخدما ؛ ليصرف بعضهم بعضا فى حوائجهم ، ويَسْتَخدموهم فى مهنهم ، ويسخروهم فى أشغالهم ، حتى يتعايشوا ، ويترافدوا ، ويصلوا إلى منافعهم ، ويحصلوا على مرافقهم ، ولو وكلهم إلى أنفسهم ، وولاهم تدبير أمورهم لضاعوا ، وهلكوا . . . » (٤) .

وفى صفوة البيان . . . « (نحن قسمنا بينهم معيشتهم فى الحياة الدنيا) وتولينا تدبير أسبابها بمشيئتنا المبنية على الحكم ، والمصالح ، ولم نكله إليهم لعلمنا بعجزهم عنه (وَرَفعنا بعضهم فوق بعض درجات) :

---

(١) من الآية ١٣ من سورة الجاثية .

(٢) ٤ /٢٨٨ الكشاف .

(٣) من الآية ٣٢ من سورة الزخرف .

(٤) ٤ /٢٤٨ الكشاف .

فى الرزق ، ومبادئ المعيشة (ليتخذ بعضهم بعْضًا سُخْرِيًّا) : أى : ليستخدم بعضهم بعضا فى حوائجهم ، ويسخر بعضهم بعضا فى مهامهم ، فيكون بينهم من التعاون والترافد ما ينتظم به أمر المعاش ، والعمران ، ولو وكلنا ذلك إليهم لتهارجوا ، وتهالكوا ، واختل النظام ، وتقوّض العمران » [١] .

ومن ذلك يمكننا أن نقول – فى ثقة ، واطمئنان نفس :

– النظام الكونى العام تنظيم الحكيم العليم ، اللطيف الخبير ، إذ لا يقع فى ملكه تعالى إلا ما يريد .

– الفقر ضرورة اجتماعية ، والغنى كذلك ضرورة اجتماعية ، والغنى له دوره فى دفع عجلة الحياة ، والتقدم إلى الأمام ، فهو يموِّل ، وينشىء المنافع ، التى يستظل بظلها الأقوياء ، القادرون على العمل ، والفقراء ، وأصحاب الإعاقة ، . . .

والفقير القوىّ : له دوره فى إدارة الحياة ، ونموها ، إذ هو العامل ، الناصب ، الذى يسقط عرقه على أرض الله ، فيموله الله تعالى إلى خير ، ومنافع للناس . . .

من تمويل الغنى ، وعمل الفقير القوىّ : تأتى الكفاية ، ويتحقق الإشباع ، وتكون الوفرة ، وتنعم الحياة . . .

– وإذا كان الغنى ينعم بعائد ماله ، الذى استخلفهُ الله تعالى فيه ، والفقير ينعم بعائد عمله ، ويؤدى كلٌ من الغنى ، والفقير دورَه فى اقتناع ، ورضا ، وإقبال زاد مال الغنى بالشكر ، وارتقى الفقير العامل فى مدارج الخير ، والرزق وصار من الأغنياء .

وإذا قصَّرَ الغنى هبط إلى دركات الفقراء . . .

وصدق الله العظيم : « وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ » [٢] .

---

(١) ص ٦٢٣ – ٦٢٤ صفوة البيان .

(٢) من الآية ١٤٠ من سورة آل عمران .

إذا تجاوزنا الأغنياء ، والعاملين الفقراء نجد طائفة أخرى تتمثل فى أصحاب الإعاقة ، والزَّمَانَة ، والفقر ، والشيخوخة ، والترمُّل ، واليُتْم ٠٠٠ وغير ذلك ٠

وهذه الطائفة : ابتليت بالفاقة ، والخروج منها فى العِفَة ، والصَّبر ، وتحرِّى الحلال ، والعمل ، وابتلى بها الأغنياء ، والقادرون ، وعليهم حيالها التكافل الاجتماعى ، ويتمثل ذلك فى أمرين هامين :

أولهما : الحق المعلوم للسائل ، والمحروم ، وهو ركن الإسلام : الزَّكَاة ٠

وثانيهما : مكارم الأخلاق ٠

ومكارم الأخلاق لا تحدّها حدود ، ولا تقيّدها قيود ، وإنما هى تكون حيث يوجد ذو حاجة ، ويوجد سَمْح يقوم بقضاء ما يسدُّ الحاجة ٠٠٠

وإذا تحقق الأمران كانت النتيجة ما يلى :

- شِبَع الجميع ٠٠٠
- انعدام التحاسد ، وعدم وجود الجرائم ٠٠٠
- فتح البركات من السماء ، والأرض ٠
- تحقق الأمن ، والأمان ، والسلم ، والسلام ٠٠٠

ومع التأمل الدقيق : يمكننا أن نشير إلى الآتى :

- كمّ الماء الذى ينزل على الأرض ، فتحيا به ، وتنبت من كل زوج بهيج ٠٠٠
- تقبّل الأرض للماء ، والطاعة التامة فى الإنبات ، فهى طائعة ، مسخرة ، ٠٠٠
- **كل ذلك** : بوزن معلوم ، وتقدير مقنّن ، يفى بحاجات جميع الأفمام ، ويشبع ويغنى ، ويسعد ٠٠٠

وإذا رأينا جوعا مَّا : فمن سُوء توزيع السكان على أرض الله (عز وجل) ، ويشبه ذلك : اللحية الكثة ، والرأس الصليع .

كما يكون من شح الأغنياء ، ولقـد صدق الرسول العظيم حيث قال : « . . . مَا جَاعَ فقيرٌ إِلاَّ بما شحَّ به غنىّ » .

ومثال ذلك ما نشاهده فى مجتمعاتنا ممَّن يشكو من التخمة ، والبطنة ، وممن يشكو من مرارة الجوع ، . . .

وذلك : نابع من شح الأغنياء ، والانحراف عن موازين الله (عز وجل) ، والشقاء بسبب انتزاع الرحمة من قلوب الأغنياء . . .

ونتيجة ذلك :

- مجتمع مفكك ، لا تربطه أواصر الرحمة ، ولا يقوى بأواصر القرابة . . .
- مجتمع التحاسد ، والتباغض ، والتدابر ، والتنابذ ، . . .
- مجتمع الرذيلة ، والابتعاد عن الفضيلة . . .
- مجتمع تمنى الشر ، والضرر للغير ، والضرر ، والضرار . . .
- مجتمع القطيعة ، والفردية المقيتة . . .
- مجتمع الحروب ، والشقاق ، والخصام . . .

٥ - دعوة سامية من الله (عز وجل) إلى التعاون العام فى كل المجالات : ونلمس ذلك ، ونحسّه واضحًا فى **النواحى الآتية** :

(أ) فى عالَم البِحَار :

نجد ذلك ، ويقرره العلماء ، والباحثون فى هذا العالم الكبير ، الذى يعيش فيه ، وينعم من الأحياء أضعاف ما على اليابسة ؛ لخير البشر ، وطعام البشر ، . . .

هذه البحار : وإن بدت هادئة السطح إلا من أمواج تثيرها الرياح ،

فالسطح يخض عوالم : وتعيش فيه أمم أمثالنا ، لها عاداتها ، ووسائل عيشها ، وتكاثرها . . . وغير ذلك . . .

والبحار نزاعة إلى ألوان من الحركة ، والتغيير : تحتاج إليها الأحياء المائية ، فى حياتها ، ونموها ، وتكاثرها . . .

وأبرز شىء فى ذلك التيارات الحية ، التى تحدث التوازن فى درجات الحرارة ، والبرودة بالنسبة للبحار ، حتى يتهيأ الجو المناسب لحياة ما تحت الماء ، ولطعام ما تحت الماء من عوالق ، وطحالب . . . وغير ذلك . . .

وكذلك هجرات الأحياء المائية من أماكن لا تستطيع الاستمرار فيها إلى أماكن أكثر ملاءمة ، ثم العودة مرة أخرى إلى أماكنها الأصيلة .

ويقابل ذلك على اليابسة هجرة الطيور من أماكن لا تلائمها ؛ لبرودتها . . . ثم العودة إليها بعد أن يعتدل الجوّ . . .

وصدق الله العظيم : « وَمَا مِنْ دابَّةٍ فى الأرْضِ ، ولاَ طَائرٍ يَطيرُ بجنَاحَيْهِ إلاَّ أُمَمٌ أمْثَالَكُمْ . . . » (١) .

وإن الطيور لتهاجر ، وتقطع آلاف الأميال ، فإذا اعتدل الجو عادت إلى مواطنها ، وإلى نفس أعشاشها فوق أشجارها . . .

وهذه عوالم تحتاج إلى بحث ، ودَرْس ، ونظرٍ ، ومتَابعَة ، . . حتى تتفجر ينابيع المعرفة ، ويزداد العالِمُون تعظيما لله (عز وجل) ، وإيمانًا به ، وأنه خلق كل شىء ، وقدره تقديرًا . . .

وهذا : يدلنا على أن المحيط المتجمد فى حاجة إلى أخيه الهادىء . . . وغير ذلك ، لتتوزع الأجواء المناسبة لأحياء الماء .

(ب) على اليابسة :

أولا : إذا كانت الشمس مصدر الطاقة ، وسرّ الحياة على الأرض ، ونشر النور ، والدفء ، . . . وغير ذلك . . .

---

(١) من الآية ٣٨ من سورة الأنعام .

وقد قدر الله (عز وجل) لها ما قدر ، وجعل من شروقها على أماكن، وغروبها عنها الليل ، والنهار ، والحر ، والبرد . . .

فإنه (عز وجل) سخر الرياح ، لأغراض كثيرة منها التوازن الدقيق في تصريفها : شمالاً ، وجنوبًا ، وقَبُولاً ، ودَبُوراً ، . . . توزيع الدفء ، والحر ، والبرد . . . وتلطِف الأجواء رحمة من الله تعالى بالنبات ، والشجر، والطير ، والبشر ، والأنعام ، والماشية ، وما يدب على الأرض ، وينعم بخيراتها . . .

وفى هذا التصريف المحكم حياة كل حيّ : من زرع ، وبشر ، وطير، . . . وغير ذلك . . . وذلك : يدلنا على أن كل بقعة من الأرض لا تستغنى عن الأخرى ، ولو ترك ذلك لشُحِّ البشر لفسدت الحياة ، وهلك الأحياء . . .

ولكن تولته قدرة قادرة ، وحكمة باهرة ، لا يعجزها شيء في الأرض، ولا في السماء . . .

ثانيا : جودة الأقاليم ، وخصوبتها ، وما تجود به من الخير للعباد :

والناظر بعين البصيرة يجد ما يلى :

- لكل إقليم من أقاليم الأرض خصائصه ، وجوه ، وما يجود به من أنواع الزروع ، والمحاصيل . . .

- توزيع هذه الخصائص بحكمة سامية ، وقدرة قادرة . . .

- لا يستغنى أهل إقليم عن الأقاليم الأخرى .

- عند سماحة النفوس ، والتآخى : يتكون من الأقاليم كلها جميع المنافع ، والخيرات التى يحتاج إليها سكان الأرض . . .

- مع سماحة النفوس يأتى التعاون المنشور ، الذى أشارت إليه الآية الكريمة إشارة .

« ... وجَعَلْنَاكُم شُعُوباً ، وقَبَائِلَ ، لتعَارفُوا ... » [1] فإذا تعارفتم تعاونتم ، وتم تبادل المنافع،والخيرات : مقايضة ، أو بيعا ، وشراء ، أو عطاء ... ، أو غير ذلك ...

وتنص عليه الآية الأخرى صراحة : « وتعَاوَنُوا على البِرِّ ، والتقْوَى ، ولا تَعَاوَنُوا عَلَى الإثْمِ ، والعُدْوَان ... » [2] .

ثالثا : ثروات المعادن ، وخزائنها الجبال :

وتجد الحكمة الباهرة ، والقدرة القادرة فى ذلك : فالجبال ركائز الأرض ، التى تجعلها لا تحيد بنا ، سواء أكانت صفائح هائلة فى قرارها ، وباطنها ، ام فى الجبال الشامخة التى تعلو سطح الأرض ...

هى مستودعات ، وخزائن لمعادن نفيسة ، ولأنواع الفلزَّات ، والمعادن الأخرى ، والكشف عنها بتوقيت وقته الله (عز وجل) إذ كلما تقدم الفعل البشرى ، وكثرت خبراته ، واتسعت معارفه – بإقدار الله عز وجل) كلما أظهر الله تعالى هذه الثروات : بتعليم العلماء كيفية استخراجها ، ووجوه الإفادة منها ... وما تقذفه البراكين من باطن الأرض ... وهى مختلفة باختلاف الجبال ، وتوزيع الثروات فيها ...

وذلك كله : من أجل تعاون الناس فى استخراجها ، وتبادل المنافع منها ...

وذلك : مَدْعَاة للتجمع ، لا للتفرق ... إذ كل الثروات : تسد حاجات كل الناس ، وتعطيهم الزينة ، وتمنحهم الثروة ...

وتجد الإشارة إلى ذلك فى قوله تعالى : « وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إلاَّ عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ ، وما نُنَزِّلُه إلا بقَدرٍ مَعْلُومٍ » [3] .

ومما تقدم من أنواع الرِّكَاز : النفط : فقد كان موجودا فى باطن

---

(١) من الآية ١٣ من سورة الحجرات .

(٢) من الآية ٢ من سورة المائدة .

(٣) الآية ٢١ من سورة الحجر .

الأرض ، والرسول الأمين يربط الحجر على بطنه ، وعثمان الحييّ (رضى الله عنه) يجهز جيش العُسْرة من ماله ، ولكن لم يحن وقت ذلك الذى حدده الله (عز وجل) أزَلاً ، ويفتح خزائنه لآخرين : ثراء ، وفتنة ، وامتحانا .

وجميع ما تقدم خاضع انظام **التكافل الاجتماعى** : وهو أساس المجتمعات الفاضلة ، مجتمعات الكفاية ، والإنتاج ، والوفرة ، والسلام ، والقوة ، والأمان ، . . .

رابعًا : تفاوت بنى البشر فى العقول ، والقدرات ،والمهارات ، . . .

والذى ينعم النظر فى ذلك : يجد :

– تفاوتا فى الذكاء : العباقرة ، والأسوياء . . . وطائفة المأفونين . . .

كما يجد توزيع ذلك بنسب هى توزيع الحكيم العليم . . .

فلو أنك أخذت قطاعا من بنى البشر أخذاً عشوائيا ، دون انتقاء ، أو اصطفاء . . . لوجدت .

قمة عالية فى الذكاء تمثل قدراً قليلا من هذا العدد الذى اصطفيته .

ولوجدت قلة : تتفاوت فى دركات **الضعف العقلى** . . . وهى تمثل قلة قليلة من هذا العدد الذى اخترته . . .

ولوجدت الوسط **قاعدة كبيرة** هى قاعدة الأسْوِيَاء . . .

والأسوياء مختلفون فى درجـــات الذكاء . . . والقدرات ، والمهارات ، وألوان الخبرات ، والمعارف . . .

وذلك كله : تقدير العزيز العليم ؛ لتثبت قدرته القادرة فى تفاوت الخلقة ، وتفاوت القدرات ، والمهارات . . .

وهذا القدر من الناس لا يستغنى بعضه عن بعض : فلكلٍّ اتجاهه ، ولكل ما يؤديه مما يحتاج إليه المجتمع . . .

وقس على ذلك المجتمع كله ، وسائر المجتمعات . . .

ونجد التباين فى القدرات ، والمهارات مما يفيد المجتمع ، ويرقى بـ . . .

فلم يجعل الله (عز وجل) إنسانًا يتمتع بكل فرايا الخلق ، وصناعاتهم ، وحرفهم حتى يستغنى بنفسه عن الآخرين . . .

وإنما جاء التنظيم الإلهى انسيابيًّا ، وبتوجيه عُلْوِىّ ، وإمدادٍ بالقدرات من أجل حاجات الجميع ، ولم يكن الإنسان مَدَنيًّا بطبعه إلا من أجل ذلك . . .

فإذا كان الإنسان من : روح هى من أمر الله ، ومادة هى من الأرض فإن مظاهر التفاوت التى نراها فى الذكاء ، والنباهة ، والبلادة ، والقدرات الخلافة ، والمهارات الفائقة ، والتخلف عن مسيرة الحياة . . .

إنما ذلك كله : من أجل أن يعيش الناس فى تعاون ثمر ، وعمل خَلاَّق ، وإبداع ، وغير ذلك مما يأتى من جميع أهل القدرات ، والخبرات لخير جميع البشر ، ورفاهيتهم بالطرائق المشروعة ، التى لا تمثل حيفًا ، أو جورًا ، أو تعاليا ، أو قسرًا . . .

ومن ذلك ، ومن غيره مما هو على شاكلته ، **نقول فى اطمئنان** :

إن نظام الكون تفريقٌ من أجل تحصيل المنافع ، واجتماعٌ للإفادة من تلك المنافع ، وذلك لخير البشر كلهم أجمعين . . .

وإذا رجعنا إلى الوراء قليلا لوجدنا فى الرسالات السماوية ، والشرائع المحكمة . . .

– جميع الرسالات التى سبقت رسالة الرسول الأعظم قد ربت العقول ، وهدتها إلى رشدها ، ودللتها على خالقها : الله ، المعبود بحقّ ، وغرست فيها مكارم الأخلاق . . .

– وقد جاءت الرسالاتُ على كلمة سواء : الله ، المعبود بحق ، والكمالات البشرية . . . وكل رسالة أضافت إلى التى قبلها ، وأكدت ما قبلها . . .

– **وكل هذه الرسالات** كانت مقدمة لرسالة سيدنا محمد (ﷺ) . . . ولئن كانت معجزات الرسل مُحَسَّة ، ، فإن رسالة الرسول الخاتـ

جمعت إلى الحسّ فى المعجزات العقل ، وقد كان القرآن العظيم ، لأن العقل البشرىَ ، الذى تعهدته الرسالات كلها وصل إلى النضج ، الذى هيأ له المعجزات العظمى القرآن الكريم ، وبه تم البناء ، ووضعت اللبنة .

وإذا نظرت إلى الرسول الأمين : محمد (ﷺ) لوجدت فيه **الأنموذج الكامل** فى عظمة الخَلْق ، وسمُوّ الخلو ، فهو جِمَاعُ أخلاق المرسلين جميعا . . .

فبهم كانت الصفات مفرقة ، وتجمعت فى خاتم الأنبياء ، والمرسلين . . .

ولو نظرت إلى جميع الشرائع لوجدت جماعها فى الشريعة الخاتمة ، التى لا تنسخها شريعة أخرى . . .

وكل ذلك يؤكد ما ذهبنا إليه ، واتجهنا نحوه . . .

لو نظرت إلى خلفائه الراشدين لوجدت فى كل منهم الإنسان الكامل ، والنجم ، الذى به يُهْتَدَى ، وبه يُقتَدَى . . .

ولو تأملت أبرز صفات الخلفاء الراشدين لوجدت فيها النموذج الأكمل لما ينبغى أن يكون عليه عامة المسلمين : وقد اتجمعت الكمالات كلها التى تفرقت فيهم . . .

تجد كمال الإيمان التام ، ودماثة الخلق ، ولين العريكة والتخطيط والسهولة فى الصديق ، وتجد الحزم ، والعزم ، والعدل ، والشجاعة ، والقوة . . . فى ابن الخطاب ، وتجد : الكرم ، والحياة ، والخلق المتين ، والسماحة العالية فى ابن عفان ، وتجد الشجاعة ، والعلم ، والبلاغة ، والصبر فى على بن أبى طالب (رضى الله عنهم أجمعين) . . .

وهذه النماذج البشرية الراقية هى القدوة الصالحة لنا ، وهى النماذج التى تحتذيها ، وهى المثل الرفيعة التى ننسج على منوالها .

فغياب هذه القدوة عن مجتمعاتنا هى أساس مشكلاتنا فى حياتنا . . .

خامسا : الصفات الجسمية الخِلقيَّة ، والصفات الخُلُقِيَّة :

مع التأمل الواعى تجد ما يلى :

- **الصفات الجسمية** : من مَلاَحة ، ودمَامَة ، وقَسَامة ، وجسَامَة ، وقِصَر ، وطول ، وقوّة ، وضعف ، ونحافة ، ... وغير ذلك من الصفات المتباينة ...

تجد كل ذلك موزعا توزيعا حكيما ، عادلا ، دقيقا ، توزيع مَنْ خَلَق ، ويعلم من خلق ، وهو اللطيف ، الخبير ...

- **الصفات النفسية** : تجدإنسانا سَوِيًّا ، وآخر متخلفًا ، وثالثا مُعَاقًّا ، ورابعًا به عِلة ، وزَمَانة ... وغير ذلك ...

- **والصفات المزاجية** : من حِدَّة ، ورقة ، وكياسة ، وتسرُّع ، وحكمة ، وغير حكمة ، وغير ذلك من مختلف الصفات ...

- **كما تجد ذا العزيمة** ، الذى يمضى فى أموره ، لا يَلْوِى على شىءٍ ، والصابر ، الذى يحقق بصبره ما لا يحققه ذُو العزيمة الخائرة ، والحازم : الذى يتبع رأيه عزمه ، وحزمه ، والمتردد ، الذى تلوح له الفرصة ، فيضيعها ، ثم يعاتب المقادير ...

وغير ذلك : مِمَّن يمضى فى طاعة ، لا تشوبها معصية ، ومن يظلم نفسه بها ، والمقتصد الذى يخلط عملاً صالحا وآخر سيئًا ...

وغير ذلك : مما نشاهده فى الكون الواسع الفسيح ...

وإذا كان كل ذلك من أنواع التفرق ، **فإن الزواج الذى تراعى** فيه الآداب الدينية ، ويُستَمَع ، ويُطَاع ما جاء به الرسول الأمين ...

فإنك تجد – فى الأعم الأغلب – صفات من الخير متناثرة فى أناسىّ قد جمعها الزواج الطاهر ، والذى تكون ثمرته ذرية تجتمع فيها الصفات العظيمة التى تفرقت فى الآباء ، والأجداد ، والأمهات ، والجدات ...

وهكذا : تفريقُ صفات ، ثم جمعُهَا ... وهو تقدير العزيز العليم...

سادسا : سياسة المال :

– المال مال الله(عز وجل) فهو الذى خلقه ، ويملكه على الحقيقة ، وهو الذى يرزقه ، وهو الذى يرثه بعد موت مَنْ ملكَّهم له ، ...

– وملكيّة المال بالنسبة للعباد ملكية اسْتخْلاَف « وَأَنفُقوا ممَّا جَعَلكم مُسْتَخْلَفِينَ فيه » (١) وجعله بالنسبة لنا فتنة ، واختباراً « ... ونَبْلوكُم بالشَّر ، والخير فتْنَةً » (٢) .

– **والمال عائد عوامل مختلفة ، ومنابع كثيرة .**

(أ) **فالمصدر الأول** : الأرض ، وما تنتجه من كل زوج بهيج ، وهى مسخرة مطيعة ...

(ب) والماء الذى ينزل عليها : مطراً من السماء ، وينابيع أسكلها الله فى الأرض ...

(جـ) والبحيرات التى يخلفها السيل... وعلى الماء حياة كل حى : من زرع ، وحيوان ، وطير ، ...

فإذا نزل الماء على الأرض « ... اهْتَزَّتْ ، ورَبَتْ ، وأَنبَتتْ من كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ » (٣) .

(د) والشمس التى جعل الله فيها سرّ الحياة ، والأحياء ، ونشر الحرارة ، والدفء ، وبها يكون التمثيل الضوئى ، وبناء النبات ... وهى مسخرة ، تسخير السماء ...

(هـ) والحب ، والنوى ، وفالقهما الله (عز وجل) ...

ولكى تأتى الثمار – فى كثرة ، ووفرة ، لابد من عمل الإنسان ،

---

(١) من الآية ٧ من سورة الحديد .

(٢) من الآية ٣٥ من سورة الأنبياء .

(٣) من الآية ٥ / من سورة الحج .

وهو مأمور بالعمل « أنشأكُم من الأَرْض ، واسْتَعمركُم فيهَا » (١) أى : طلب منكم عمارتها ، إذ الهمزة والسين ، والتاء للطلب ، وهو طلب على حقيقته ، فهو أمر من الأعلى للأدنى .

(و) كما يأتى الرزق من البحار ، وهى مستوعات هائلة من الماء ، فيها كل ما على اليابسة وفيهالحم طرىّ ، وعليها تمخر السفن ، حاملة الأرزاق للعباد ...

(ذ) كما تأتى الأرزاق من الرِّكَاز ، الذى تحفظه الجبال ، ويقدر الله (عز وجل) العلماء ، والعاملين على استخراجها ، ويوجههم إلى وجوه الانتفاع بها ..

ومن ذلك : ما تقذفه البراكين من باطن الأرض ، وما أودع فيها من نفط ، وغاز ... وغير ذلك ..

– **من النعم المتقدمة** : تقوم صناعات هائلة ، وفيها الخير الوفير ، والرزق الواسع ...

– صناعات تقوم على الزرع ، والشجر ...

– وأخرى تقوم على الحيوان الذى يعيش على الأرض ...

– وأخرى على ما يستخرج من البحار مما ينفع الناس ...

– وأخرى تقوم على الرِّكاز المودع فى الأرض ...

– وأخرى تقوم على النفط ، وتحويله إلى بترو كيماويات ، وما ينفع الناس ... وغير ذلك .

وصدق الله العظيم « وَإِنْ تَعدُّوا نِعْمَةَ اللهِ لاَ تُحْصُوهَا ... » (٢).

– **هذه الأرزاق** من منابعها المنوعة ، ومصادرها الكثيرة خاضعة فى التوزيع لحكم سامية ، ونظام دقيق – وقد ألمحنا لذلك فيما تقدم –

(١) من الآية ٦١ من سورة هود .

(٢) من الآية ٣٤ من سورة إبراهيم .

وهى **فى فحواها** امتحان من الله (عز وجل) واختبار . . .

فالغِنَى: قيدُه الشكر ، والشكر : صرف النعمة فيما خلقت لأجله . . . .

والفقر : يذهب ، ويَزْهَق بالعفة ، وتحرى الحلال ، والعمل الدءوب للخروج منه . . . ويصرفه سريعًا الصَّبْرُ ، والتوجه إلى الله (عز وجل) لتحويل الحال . . .

والغنى ، **والفقر** غير دائمين ، وصدق الله العظيم « وتلْكَ الأيَّامُ نداولُهَا بَيْنَ النَّاس » (١) .

فمن لم يقيد النعمة بالشكر ، ويجعل للمال وظيفة اجتماعية ، تحولت النعمة إلى مُخْتَبرٍ آخر . . .

ومن عمل مع التقوى لزوال الفقر تحول عنه سريعًا حيث يُبْتَلَى به آخرون . . .

وهكذا :

من أدرك ، وظيفة المال الاجتماعية ، وخاف مقام ربه ، ونهى النفس عن الهوى ، . . . نما خيره ، وكثر ماله ، واتسعت نعمه . . .

لكن المشاهدة ، **والقراءة** فى كتاب الكون المفتوح تجعلنا – فى الأعم الأغلب – نرى الآية الكريمة محققة فى كثير من الناس « كَلاَّ إِنَّ الإِنْسانَ لَيَطْغَى ، أنْ رَآهُ اسْتَغْنَى » (٢) .

كما نرى قليلا من الناس شكروا ، وكانوا فى القلة التى وصفها الله (عز وجل بقوله) : « وقَلِيلٌ منْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ » (٣) .

وهكذا فالمال ظل زائل ، وعارية مُسْتَرَدَّة . . .

---

(١) من الآية ١٤٠ من سورة آل عمران .

(٢) الآيتان ٦، ٧ من سورة العلق .

(٣) من الآية ١٣ من سورة سبأ .

والنظام الذى بنى عليه الكون :

– المال مفرّق فى مصادره ، ومنابعه ...

– يوفق الله (عز وجل) من يجمعه ، ويكدِّسه ، ويزداد منه ...

وقد يستمر معه – بالشكر – طيلة حياته ، وينمو ...

– ثم يأتى وارث يضيِّع ما جمع الأول – بالمعصية ، وعدم الشكر...

– وقد يخرج من ذرية المضيِّع من يجمع ، ويستكثر مرة أخرى ...

وهكذا : دواليك : جمع ، وتفريق ، وجمع ، وتفريق حتى تقوم الساعة ...

لكنَّ ما جبل عليه الإنسان ، وطبع أنه كما وصفه ربه فى بنى جنسه « وتحبُّون المالَ حُبًّا جمًّا »(١) .

وفى الوصول لذلك « وتأْكُلُون التُّراثَ أَكْلاَلَمًّا » (٢) .

والإنسان عند الحاجة ذو دعاء عريض ، وعند انكشاف الضرِّ ، وزوال العُسْر يعرض وينأى بجانبه ، ويذهب وكأن لم يمسسه ضر من قبل ...

بل يذهب فى الطغيان طلَقًا جَمُوحًا ، ويُبْعد فى التعالى ، وينسب النعمة إلى نفسه ، وإلى قدرته ، ومهاراته ، ناسيًا واهب المال ، والقدرات ، والمهارات ، ...

ولقد عبر عن هذه الفئة الطاغية ، الباغية قارون حيثما قال : « إِنَّما أُوتيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِى » ردا على من قالوا له « أحسن كما أحسن الله إليك » (٣) .

---

(١) الآية ٢٠ من سورة الفجر .

(٢) الآية ١٩ من سورة الفجر .

(٣) من الآية ٧٨ من سورة القصص .

وقد مسَّ قولهم أحْسَنَ اللهُ إليْكَ كِبْرِيَاءَه ، فرد على الفور : ناكرا ، طاغيا ، . . . « إِنما أُوتيتُه عَلَى علمٍ عِنْدِى » .

والمالُ يحقق لأمثال هؤلاء ما يلى :

– يجعل له أبًّا مذكوراً ، بعد أن كان أبُوه مَغْمُوراً . . .

وصدق القائل :

أورثته الوُرْقُ البيضُ أبًا   وقدْ كَان ، ولاَ يُدْعَى لأَب

– يزوجه من هِجَان النساء ، وخيراتهم ، وعقيلاتهم . . .

وصدق شوقى حين يقول مخاطبا المال « . . . وخطبت لهُجَنَ الرِّجال هِجَان ربات الجَمَال » (١) .

– يجعل الناس يلمون به ، ويقولون له ما يرضيه ، ويلبسونه محاسن غيره . . . وصدق الإمام على (كرم الله وجهه) حيث يقول : « إِذَا أقبلت الدنيا على شخص ألبسته محاسن غيره ، وإن أدبرت عنه سلبته محاسن نفسه » .

وقديما قيل :

رأيت الناسَ قد مَالَوا   إلى من عنده مالُ

. . .   .

– المال يجعل صاحبه إن قال يسمع ، وإن خطب يزوج . . . وقد وصف الصحابة (رضى الله عنهم) رجلا للرسول الأمين ، حيث قالوا فى « حرّىٰ إن قال أن يسمع ، وإن خطب أن يزوج » ووصفوا آخر بعكس ذلك ، فصحح لهم الرسول العظيم ما جروا عليه على حسب العادة ، والإلف – هذا : يريد الفقير الصالح ، خير من مِلْءِ الأرض من مثل هذا » يقصد الغنى ، . . .

– بالمال تكون الموالى ، ويتم اتخاذ الخدم ، والحشم . . ، والزينة .

---

(١) انظر أسواق الذهب . . .

- به يكون الناصر ، والحليف . . .

- به تكون العدة ، والعتاد ، وصولا إلى الْهَيْبَة ، والنصر . . .

- به تكون زينة الحياة الدنيا ، والترقى فى المطاعم ، والمشارب ، والمساكن ، والمناكح .

وصدق القائل :

فهو اللِّسَان لمن أرادَ فَصَاحةً هو السلاحُ لمن أَراد قِتَالا

وغير ذلك : مما لم يتسع المقام لذكره ، وهو غير خاف على المتأمل ، وعلى من ألقى السَّمْعَ ، وهو شَهيدٌ . . .

- **سياسة المال فى التقسيم** :

ومن الأبواب التى يأتى منها المال ما يلى :

أولا : الغنيمة :

ودستورنا فى ذلك قوله تعالى : « واعْلَمُوا أنَّمَا غنمتُم منْ شيءٍ فأَنَّ لله خُمُسَهُ ، وللرَّسُولِ ولذى القُرْبَى ، واليتامَى ، والمساكين ، وابْن السَّبيل » إن كنتم آمَنتُم بالله . . . » [١] .

ويقول جار الله : « . . . والمعنى : إن كنتم آمنتم بالله فاعلموا أن الخمس من الغنيمة يجب التقرب به ، فاقطعوا عنه أطماعكم ، واقتنعوا بالأخماس الأربعة . . . » [٢] .

ثانيا : الْفَيْء :

ودستور السماوىّ فيه قوله تعالى : « مَا أَفاءَ اللهُ عَلَى رسوله من أهْلِ القُرَى فلله ، وللرَّسُولِ ، ولِذى القُرْبى ، واليتامَى ، والمساكين ، وابْن السَّبيل . . . » [٣] .

---

(١) من الآية ٤١ من سورة الأنفال .

(٢) ٢/٢٢٢ الكشاف .

(٣) من الآية ٧ من سورة الحشر .

والغنيمة : وجمعها غنائم : « وهو ما يحصل فى أيدى المسلمين من أموال الكافرين بالحرب ، والقهر ، والغلبة »[1] .

والفيء : ما رجع للمسلمين من أموال الكفار عفواً ، صفوا من غير قتال ، ولا إيجاف كالصلح ، والجزية ، والخراج ، والعشور المأخوذة من تجار الكفار »[2] .

ويمكننا أن نأخذ مما تقدم ما يلى :

(أ) المال مال الله (عز وجل) يمنحه ، ويعطيه ، ويفيء به فى ظروف مختلفة ، ومن مجالات منوعة . . .

(ب) المال الممنوح من الله (عز وجل) يقسم على حسب ما ورد صريحا في الآيتين الكريمتين .

(جـ) منهما تغطِّى حاجات البشر ، ومطالب المجتمع ، حتى يعيش الناس فى تراحم ، وتكافل ، وتعاون ، وكفاية . . .

(د) الآيتان الكريمتان أشارتا إلى الجمع فى صورتيه ، أو صوره ، وإلى التفريق على المستحقين ، وأرباب الأعمال ، والحاجات . . .

٥ ـ لا يحرم المجاهد من عائد عمله ، ولا يحرم المحتاج من تكافل اجتماعى ، واجب على القادرين ، والأقوياء . . .

و ـ وضعت الآيتان النموذج الأمثل لتوزيع المال ، وقطعت على أهل الأهواء مطامعهم ، التى لا تقف عند حد . . .

ويمثل ذلك ما قاله عبد الله بن عنمة الضبىّ يخاطب بسْطَام بن قيس : سيد قبيلته ، فى الغنائم :

لَكَ المِرْباعُ مِنها ، والصَّفَايَا   وحكمكَ ، والنَّشيطةُ ، والفُضُولُ

المرباع : ربع الغنيمة ، **والصفايا** : ما يصطفيه الرئيس لنفسه قبل لقسم ، والنشيطة : ما أصاب الرئيس فى الطريق قبل أن يصل إلى مجتمع

(١، ٢) ٨/٦٤٩٣ الجامع لأحكام القرآن . . .

الحىّ ، والفضول : ما فضل من القسمة مما لا تصح قسمته على عدد الغزاة[١] .

وهذه هى أنصبة الرئيس فى الغنائم . . .

فإذا كانت الجاهلية الجهلاء تقف فى صف الرؤساء ، والعظماء ، ولا تنظر إلى الضعفاء ، والمساكين ، والنساء كنظرتها إلى حرمان المرأة من الميراث ؛ لأن الذى يرث فى نظر أهل الجاهلية إنما هو من يحمل السلاح ، ويحوز الغنيمة ، فإن شرع الله الحنيف ، شرع الكفاية ، والتعاون ، والتكافل الاجتماعى ، . . . ينأى عن فعل الجاهلية الجهلاء ، وعن عنت الظالمين . . .

وإن شرع الله (عز وجل) ليراعى فى القسمة اختلاف الناس فى مقدار الأداء[٢] .

وإذا راقنا التوزيع المحكم ، الذى يفى بحاجات أصحاب الحاجات فإنه ليسمو بمداركنا ، ويرتقى بنا فى سلَّم العدل ، والإخاء جمال التعليل، وعظمته فى قوله تعالى : « . . . كَيْلاَ يكون دُولَة بيْنَ الأغْنياء منكم »[٣].

ويقول جار الله : « . . . يعنى : كيلا يكون الفىء شيئا ، بتداوله الأغنياء بينهم ، ويتعاورونه ، فلا يصيب الفقراء »[٤] .

وعلى هذا النحو نقول :

لو تصورنا غنيًّا ، أفاء الله عليه ، وأسبغ عليه نعمه : ظاهرة ، وباطنة : فإن ذلك لون من **ألوان التجميع . . .**

وهذا التجميع تعمل فيه أيْدى البذل ،والتفريق على **النحو التالى :**

(أ) هذا المال : له وظيفة اجتماعية فى صورة **مزارع** ، يعمل فيها

---

(١) انظر هامش ٨ / ٦٤٩٥ الجامع لأحكام القرآن .

(٢) انظر كتابنا التبيان فى تفسير قول الرحمن « ووضع الميزان » .

(٣) من الآية ٧ من سورة الحشر .

(٤) ٤ / ٥٠٣ الكشاف .

القادرون على العمل ، ويأتى عائد عملهم كفاية لهم ، ،ولذويهم ، ويطعم منها الطائر ، والبهيمة ، وغير ذلك . . .

ويأتى **دور الزكاة** المعلومة فى وقتها المعلوم ؛ للتكافل الاجتماعى ، وتصرف فى مصارفها المعلومة ، مراعى فيها حالة الزارع والزرع من عشر إلى نصف العشر على حسب أنواع السقى ، . . .

ثم تأتى مكارم الأخلاق ، ولا حصر لها ، ولا وقت ، وإنما تخضع لحاجة المحتاج ، وسخاء الغنى . . .

كما يكون فى صورة **مصانع** ، تفى بحاجات المجتمع ، وتفتح بيوتا على العمل الطاهر ، والكسب الحلال . . . وغير ذلك . . . وتسد حاجات المجتمع ، ومطالبه .

والمال : فيه نوعا الزكاة : القدر المعلوم فى الوقت المعلوم بالشروط المعلومة ، كما تأتى مكارم الأخلاق كذلك . . .

كما يكون فى صورة **ماشية** ، وأنعام ، وعليها زكاتها المعلومة ، ومن حقها أن تحلب على الماء – كما جاء فى الحديث الشريف – لسد حاجة الفقير ، وابن السبيل ، وغير ذلك من ألوان التوزيع . . .

وفى المقدمة من التوريع ما يكون ميراثا بعد وفاة المورّث . . .

وفى كل ما تقدم ألوان من التفريق ، لسد حاجات المجتمع المسلم ، المتكافل . . . ولدوام النعم . . .

وقد يأتى الجمع مرة أخرى مع وارث ، قوى ، كاسب ، مقتصد ، يعظم شعائر الله (عز وجل) ويؤدى حقوقه . . .

فيجتمع لديه الكثير، ثم يسلطه الله تعالى عليه ، لهلكته فى الحق ، ويكون المال طريقا له إلى سعادتى : الدنيا ، والآخرة . . .

وهكذا : تفريق ، وجمع ، وتفريق إلى أن يرث الله الأرض ، وما عليها ، ومن عليها . . .

تلك هى موازين الله تعالى فى المال ، وهذه سنته ، التى لا تحول ، ولا تزول ، ولا تتبدل ...

مشكلاتنا فى مخالفة موازين الله(عز وجل) ، وفى المقدمة منها : ما يتعلق بالمال من حقوق .

وفى هذا المقام نعرض نموذجا بشريا من واقع المجتمعات ، ويقرأ فى كتاب الكون المفتوح فى يسر ، وسهولة .

ونقدمه فى صورة إنسان نشط ، نهم فى جمع المال ، باخل به ، حافظ له ، يركض فى جمعه ركض الوحوش فى البرية ...

أولا :يبدأ هذا الإنسان فى جمع المال من جميع وجوهه : المشروعة ، وغير المشروعة ، ولا يرعى الحل ، والحرمة لله ، وللرسول ، حتى يبنى ثروته على أرض صلبة من حلال ، لا تشوبه شبهة ، وإنما همه الجمع ، وفقره بين عينيه ، فكلما وصل إلى درجة من الغنى أيقن أنه فقير بالنسبة لمن جمع أكثر ، وكنز أكثر ...

ثانيا : هذا الإنسان نسى وظيفة المال الاجتماعية ، فلم يوظفه فى مشروعات تدر الخير له أولاً ، وللغير ثانيا ، وللمجتمعات المتطلعة إلى الكفاية ، والوفرة ، ولم يخرج حق الله ولم يلتفت إلى التهديد ، النازل من السبع الطباق،ولم يفقه قول الله تعالى: « يَوْمَ يُحْمَى عليها فى نَار جهنَّم . فتكْوَى بها جبَاهُهُم ، وجُنُوبهم ، وظهُورُهم ، هذا ما كنَزَتْمُ لأنفسكم : فَذَوقُوا ما كنتم تكْنِزُونَ » (١) .

وما لوى عنقه ، وأنعم نظره فى قول الرسول الأمين : « تأتى الإبل على صاحبها على خير ما كانت عليه ، إذا لم يُعْطِ فيها حقها تطؤُه بأخفافها ، وتأتى الغنم على صاحبها على خير ما كانت عليه إذا لم يعط فيها حقها تطؤه بأظلافها ، وتنطحه بفردتها قال : ومن حقها أن تُحْلَبَ عَلَى الْمَاءِ ... » (٢) .

---

(١) الآية ٢٥ من سورة التوبة . (٢) ٢/١٢٦ صحيح البخارى .

وفى هذا المقام نقول :

- **فات ذلك الباخل** : أنه لم يُحَصِّن ماله بالزكاة ، ولم يُدْخل فرحة على قلوب المحزونين ولم يمسح دمعة من عين باك ، ولم يفرج كربة عن مكروب ، ولم يقل لله تعالى ، مالك المال : - سمعت ، وأطعت - فكان عقابه ما تقدم : المال يكتوى به ، والمواشى تكون فى أشد العداوة له ، والانتقام منه . . .

مع ما يصيبه فى الدنيا من الأحقاد ، والكره ، وتمنىّ زوال النعمة ، وتسهيل الجريمة له ، ولما له ، . . . وغير ذلك .

ثالثا : هذا الصنف من الناس يعيش فى حرمان ، ويُحَالُ بينه ، وبين ما يشتهى ، ويعيش فى فاقة نفس ، وفقر متعة ، مع أنه عريض الثراء ، واسع المال . . .

وإنه ليتحقق فيه قول الله تعالى : « فَلاَ تُعْجِبْكَ أمْوالُهُم ، وَلاَ أَوْلاَدُهُمْ إنما يُريدُ الله ليعذبَهُمْ بهَا فِى الحَيَاةِ الدُّنْيَا . . . »(١) .

إذ ليس له من ماله إلا الشقاء فى جمعه ، والألم فى تثميره ، والنَّصَبُ فى الحِفَاظِ عليه . . .

وإنه بهذه الخَلِيقَة يكون فى معيشة ضَنْكَى ، وإنه ليفقد - ببخله - حنان الصاحبة بالجنب الزوجة ، التى خلقت للسكن ، وللمودة ، والرحمة . . .

إذ ليس له حب إلا فى ماله ، ولا قُرْب إلا من عَرَضِه . . .

كما يفقد بِرَّ الأوْلاَد ، ويستجلب عداوتهم . . .

والجميع يتمنى له الموت ، حتى تحين الساعة التى يتمكنون فيها من الاستيلاء على المال : وفى - الأعم الأغلب - يكون دمَاره ، وذهَابه من فئة ورثته ، وقد طال حرما نها منه ، فهى تبدده ، وتنفقه ذات اليمين ، وذات الشمال . . .

---

(١) من الآية ٥٥ من سورة التوبة .

وهنا : يكون الباخل قد جمع ، والوراث قد فرَّق : الجامع لم يتحرَّ الحلال ، والواجب ، والوارث واتته الفُرْصة فافْتَرَصَها ، واغتنمها . . .

وهنا تتحول نعمة الله تعالى إلى من يُوضع في موضع الاختبار بها ، ولله تعالى في خلقه شئون ، ولا يُسأل عمَّا يفعل ، وهم يُسْأَلُون . . .

رابعا : مثل هذا : لا صديق له ، ولا رفيق ، ولاتبك علي موته أرض، أو سماء ، ولا يرثى له ، ولعقبه أحد ، لأنه لم يقيد أحداً بقيد الإحسان ، ولم يغرس شجرة حب في قلب إنسان ، فتزهر حبا ، وتثمر خيرا ، وعلاقة طيبة . . .

رابعا : ينظر إلى بنته ، أو بناته نظرة حقد ؛ لأنه يرى أنها تأخذ ، ولا تعطى ، وأنها مستهلكة غير منتجة ، غير ناظر إلى وعد الرسول الأمين بالجنة لمن كن له ثلاث بنات أو اثنان ، . . . فصبر ، وربِّى كانت له الجنة .

وإنما ينظر إليها على أنها مستهلكة في تربيتها ، **وتذهب بميراثها إلى غير أبنائه** ، فتتبدد الثروة في نظره . . . ويطل الفقر بقرونه . . .

وهنا يعود بنظره القاصر ، وفكره الخاطيء إلى ما عليه أهل الجاهلية الجهلاء : « . . . أيُمسكه عَلَى هُونٍ ، أمْ يَدُسُّه في التُّرَابِ » (١) ؟

وقد فات أوان الوأد ، والدَّس في التراب فلم يبق أمامه إلا أحد أمرين .

أولهما : أن تظل عانسًا ، وتحرم مما أحلَّ الله تعالى لها ، وما خلقها من أجله : الإنجاب ، والأمومة ، والتربية . . .

وثانيهما : أن يحرمها من حقها ميراثا ، ولمثله في هذا الشأن طرائق زينها الشيطان الذى يعد مثله بالفقر ، ويزيّن له الفحشاء . . .

وهذه مشكلة اجتماعية خطيرة تعاني منها المجتمعات ، وتشقى بها، ويتبع ذلك فتن سوداء ، وفساد كبير (٢) .

---

(١) من الآية ٥٩ من سورة النحل .

(٢) انظر كتابنا : التبيان في تفسير قول الرحمن : « ووضع الميزان » .

وما ذكرناه – فى هذا الأنموذج البشرى قلٌّ من كُثْرٍ يفتح شهية المتأمل، ويثرى فكر الناظر ، والفاحص . . .

وفى هذا الميدان من البحث فليتنافس المتنافسون ، وليعتبر المعتبرون . . .

وبعد عرض المسلَّمات المتقدمة ـــ التى اتسمت بالاطراد حيناً – لفائدة ، وبالإطالة أحياناً للذكرى .

وذلك : حتى نعطى مقدمات ، وفراشا ، ومهاداً ، لما نهدف إليه ؛ لتتم الفائدة ، وليكون الإقناع ، والاقتناع – بمشيئة الله تعالى ، وعونه ، وفتحه – أملاً فى أن تتهيأ الأفئدة للقبول ، وتتغير النظرة الخاطئة ، ونزن بموازين الله (عز وجل) :

تلك الموازين التى من وزن بها أَمِن البوار ، والدمار ، ودخل مع رضوان الله تعالى فى تجارة لن تَبُورَ . . . وما التوفيق إلا بالله ، عليه توكلت ، وإليه أنيب .

١ – التَّعْوِيق : أو الإعَاقَة :

عرضنا فى الفصل الأول من الكتاب : معانى التعويق : الإعاقة : من زاوية اللغة . . .

وعرفنا أن القواميس اللغوية أثبتت ، وسجلت المعانى الآتية : للمادة (ع و ق) :

– المنع ، والصدّ عن الأمر .

– الحبس ، والصَّرْف عن الشيء .

– الشواغل التى تصرف عن القيام بالأعمال

– **المعوَّق** : الذى لا خير عنده ، ولا غَنَاء له ، – الامتناع عن الأعمال، والتثبيط . . .

والله تعالى الوهاب ، الذى خلق كل شيء ، فقدره تقديرا ، شاءت

حكمته البالغة ، واقتضى علمه : علم الإحاطة ، والانكشاف ، وخصَّصَت إرادته المحكمة ، وتناولت قدرته التى لا يعجزها شىء فى الأرض ، ولا فى السماء أن تكون هباته لمن يشاء من خلقه على النحو التالى :

« للهِ ملكُ السَّمَاوَات ، والأرْضِ ، يخلُقُ مَا يَشَاءُ : يَهَبُ لمنْ يشَاءُ إنَاثًا ، ويَهَبُ لمنْ يشَاءُ الذكورَ ، أو يزوِّجُهُم ذُكْرَانًا ، وإنَاثًا ، ويجعَل من يَشَاء عقيماً ، إنَّه عليمٌ قديرْ » [1] .

وفقه الآيتين الكريمتين – فى عُجَالة –

(أ) الملك الحق لما فى السماوات ، والأرض للهِ المالك ، لا ينازعه فى ذلك معاند ، أو مشرك ، . . .

(ب) الله تعالى الخالق : يخلق ما يشاء : عَلِم أزلاً ، وأرَادَ أزلاً ، وتعلقت بذلك قدرته ، وهى أُمور يُبْديها ، ولا يَبْتَديها ، يظهرها فى وقتها المحدد ، ومكانها المقدر . . . .

(جـ) الله تعالى واهب الذُّرية له حكم فى هباته :

– يهب لمن يشاء الإناث ؛ لحكمة بالغة .

– ويهب لمن يشاء الذكور ؛ لحكمة سامية .

– ويهب لمن يشاء الذكور ، والإناث ، لحكمة عالية . . .

– ويجعل من يشاء عقيماً ، لا ينجب لحكمة حكيمة . . .

جلَّ الله ، وتعالى عما يقول الظالمون عُلُوًّا ، كبيراً . . .

ويأتى تذييل الآية الكريمة الثانية بما يلخص ما تقدم ، ويشير إلى علم الله : علم الإحاطة ، والانكشاف ، وقدرته التى لا يعجزها شىء فى الأرض ، ولا فى السماء ، « إنه عليم قدير » .

---

(١) الآيتان ٤٩ ، ٥٠ من سورة الشورى .

٢ - الطريق إلى النجابة ، والإنجاب :

هو طريق **الزواج الطاهر** ، النظيف ، الذى تباركه السماء ، وينعم به أهل الأرض ويحقق هذا الزواج ، للزوجين :

- السَّكَن الهادىء ، إذ الرجل يعمل بياض يومه ما شاء الله له العمل ، فإذا جَنَّه ليلٌ ، وكان له سكنا ، كما جعله الله كذلك اتخذ له سكنًا آخر من زوجه تنتظره ، وتمسح عرقه ، تزيل بأناملها الرقيقة متاعبه ، وتكون له كالليل لباسًا ، . . .

- بالمعاشرة تكون المودَّة المتبادلة بين الزوجين فى حب ، ووئام ، وسعادة ، وهناءة . . .

- وينشا عن المودة المتبادلة الرحمة المتبادلة . . .

يقبل كل من الزوجين على صاحبة ، على فراش طهر ، وعفاف : لقضاء الوطر ، وذهاب الشبق ، وإرواء الغلة ، . . .

على هذا الفراش الطاهر ، وبالمعاشرة النظيفة يجود الله (عز وجل) بالثمرة المرجوَّة . . .

التى بها تتجدد الحياة ، ويعمر الكون ، وتصل الحياة إلى أجلها المسمَّى . . . .

- فإذا بزغ الفجر ، وقشع نوره ظلمة الليل عاد كل من الزوجين لعمله فى نشاط .

- وهمة ، وصحة موفورة ، ونشاط متجدّد ؛ لأن كلا منهما قد أدى حق الله تعالى بالعبادة ، والذكر ، والشكر ، وحقَّ الإلف ، والضجيع ، والصاحب بالجنب ، وأقبل الرجل على ما أمر الله به من عمارة الأرض ، وأقبلت الزوجة على ما نيطَ بها من عمل المنزل ، وتربية ، وتعليم ، وتنشئة النَّشْىء . . .

وصدق الله العظيم حيث يقول : « . . . هُنَّ لِبَاسٌ لكُم ، وأنْتُم لِبَاسٌ لهنَّ » (١) .

---

(١) من الآية ١٨٧ من سورة البقرة .

فما أرقى هذا الأسلوب ! وما أرفع المعنى ! وما أدقَّ ما يُلَنى به بهذا التعبير المعجز ، . . .

وصدق العظيم إذا يقول : « نِسَاؤكُم حَرْثٌ لكُم فأتُوا حرثكم أنىَّ شِئْتُم » (١) .

– فمن يبغى ما كتب الله له (عز وجل) من الولد عَمَد إلى حرثه : زوجه ، فوضع فيها بذرته . . . والله (عز وجل) المصور ، والخالق . . .

وهذا النوع من الحرث ككل حرث : إن شاء الله (عز وجل) أنبته ، وإن شاء .

– غير ذلك « يَعْلَمَ ما تحملُ كلّ أُنثَى ، وما تفيضُ الأرْحَامَ ، وما تَزْدَادُ ، وكلٌّ شيءٍ عندَه بمقدارٍ . . . » (٢) .

والزوج كالحارث يلقى الحب ، وينتظر الثمار من الرَّبِّ .

– ويأتى ما قد الله تعالى أزلاً مطابقًا لما أوضحت الآية الكريمة المتقدمة . . .

ولا يَظُنَّنَّ ظان أن كل الأسباب تأتى المسبباتُ تبعًا لها ، أو أن المقدِّمات توصل إلى النتائج . . .

وإنما من قبل ذلك ، ومع ذلك ، . وفوق ذلك تقديراً العزيز العليم .

ولقد علَّمنا القرآن الكريم على لسان أَوَّل أب : هو آدم (عليه الصلاة والسلام ، وأوَّل أُمٍّ هى حوَّاء حينما رفعا إلى الله تعالى أكف الذل ، والضراعة إلى الله تعالى المصوّر ، الذى يصورِّ فى الأرحام كيف يشاء : « . . . لَئنّ آتينا صَالحًا لنكونَنَّ مِنَ الشَّاكِرينَ » (٣) .

والصلاح : يراد به : صلاح الخلقة ، وسلامة الحواس ، واستقامة

---

(١) من الآية ٢٢٣ من سورة البقرة .

(٢) من الآية ٨ من سورة الرعد .

(٣) من الآية ١٨٩ من سورة الأعراف .

الأعضاء ، وكمال الخلقة ، وقدرتّنا على ذلك الشكر مؤكَدا « لنكوننّ » :

والشكر على الإنعام بالذرية ، واستقامة الخلقة ، وسلامة التكوين ، واستمرار نظام الحياة ، وعمارة الكون ، . . .

٣ - موازين الله (عز وجل) ونواميسه فى كونه : بالنسبة للإنجاب ، والتناسل ، المدخل إلى ذلك قول ربنا (عز وجل) : « ومنْ كلٍّ خَلَقْنَا زَوْجَيْن » :وقد تقدم تفسير ذلك ؛ وذلك : ليتفرد رب العزة بالوحدانية فى الذات ، والصفات ، والأفعال . . .

وقول ربنا (عز وجل) : « أعْطَى كلَّ شىءٍ خَلْقَه ، ثُمَّ هدَى » (١):

وقد تقدم معنى ذلك . . .

ومن ذلك نقول :

اقتضت حكمة الله تعالى ، ومشيئته : أن تستمر الحياة على ما رسم لها رب العزة إلى أجل مسمًّى ، يعلمه علام الغُيُوب (جل ، وعز) وقد اقتضت حكمة بقاء الأنواع أن يأتى هذا البقاء بالنظام الذى علمه ، وأراده ربّ الأرض ، والسماء ، إذ لا يقع فى ملكة إلا ما يريد . . .

ونعرض ذلك عرضا ، يقرب المراد ، وذلك على **النحو التالى** :

أولا : عالم البحار : وهو عالم مترامى الأطراف ، واسع الأرجاء ، وعوالمه أمم أمثالنا فى حياتها ، وطعامها ، ومنامها ، وتكاثرها . . . إلى غير ذلك . . .

وقد تولت قدرة الله القادرة تنظيم ذلك فى كل شىء ، فما أجلَّ الله ! مَا أَسْعَ عطَاءَه وحفظه ! . . . وإنه تعالى يخلق ما نعلم ، وما لا نعلم ، وما أوتينا من العلم إلا قليلاً . . .

ثانيا : عالم اليابسة :

وهو عالم منظور ، ومقروء ، ومشاهد ، وهو مسرح للتأمّل ، ومجال

---

(١) من الآية ٥٠ من سورة طه .

للعلم ،وصولا إلى الإيمان الحق ، واليقين ، والصدق « إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ العلماء »[1] ويسرنا أن نقسم هذا العالم إلى قسمين كبيرين :

(أ) **عالم غير العقلاء** الذى تخلَّى على حمل الأمانة ، وثقل التكاليف ، وقال مع الأرض ، والسماء - : « أتَيْنَا طائعين »[2] .

فتولى رب العزة التدبير ، وتولى الأمر كله ...

وقد ركب فى طباع هذه الكائنات ما تحفظ حياتها من مطعم ، ومشرب ، ومأوى ، وما تحفظ به نوعها ، واستمراره ، بما هديت إليه ، وذلَّها ربها - بالغريزة إليه ...

ويهمنا فى المقام الإول ما يتعلق بالتزواج ، والتناسل ، والتكاثر ...

وقد قرأنا، وشاهدنا فى عوالم منظورة لنا ما تفعله هذه العوالم ، وصولا إلى صحة الإنجاب ، وقوة النسل ...

ونعرض نموذجا لذلك ؛ ليُسْتَدَلَّ به ، ويكون نقطة انطلاق للبحث فى عادات تلك العوالم ، التى هى أمم أمثالنا ...

- إذا جعل الله تعالى طعام وحوش القنص من أكلة الأعشاب ، فإنها عند العدو على الفرائس تتخلف الضعيفة ، فتكون طعاما لسباعِ الوحش، والطير ، ويبقى القوى منها ، ليأتى النسل قويًّا ، وسَليماً ، رِزْقًا للعِبَاد ...

- عند موسم التزاوج يأتى الصراع فى الفوز بالإناث ،وهو صراع ، ليس هدفه فناء الضعيف ، وإنما الهدف ترك الساحة للقوىّ ؛ ليأتى النَّسل قويا ، سليما ، يعيد سنة الحياة ...

- لبعض الطيور قصات تجذب بها رضا الإناث ، لتقبل الأنثى على الأقوى من نوعها ، وتبتعد عن الضعيف من جنسها ، وصولا إلى سلامة النسل ، وقوة السُّلاَلات ...

---

(١) من الآية ٢٨ من سورة فاطر .

(٢) من الآية ١١ من سورة فصلت .

– نرى – فى الأعم الأغلب – الذكور من كل الأجناس تمتاز بكبر الحجم ، وقوة الجسم ، وجمال مميز . . . فى الشكل ، والحلية . . .

كل ذلك : لاجتذاب الأنثى ، وإقبالها على القوىّ ، لتبلغ حكمة الله تعالى مداها ، وتجيء الثمار التى قدرها رب العزة (جل ، وعز) .

وقد هدى رب العزة العلماء في هذه التحصصات إلى هذه الحكم السامية ،وعرفت البشـرية – بفتح الله – (عز وجل) التهجن : فى النبات ، والشجر ، والحيوان وغير ذلك . . .

والأمم التى أخذت بأهداب العلم فى ذلك وصلت إلى ثراء عريض ، ووفرة فى الإنتاج ، تحقق هذه الوفرة الكفاية ، والادخار ، والتصدير إلى أمم أخرى ، آخذة بأهداب العلم ، ولم تصل إلى الأمل المنشود بعد ، أو لم تأخذ بأهداب العلم ، وتفكر فى سلوك سَنَنِ غيرها . . .

وقد رأينا فى مزارع الأبقار مثلا : يستخدمون الذكر فى تلقيح الإناث .

فإذا ما تم ذلك أبعدت الإناث ، أو أبعد الذكر . . .

لأنهم قد أدكوا أن الذكر فى المرة القادمة قد يلقح بناته ، وهنا يأتى الضعف ، وتنتشر الإعاقة . . .

والأمثلة كثيرة يدركها العالمون فى هذه التخصصات ، ويأخذها عنهم من يقرأ ، ويعتبر ، ويفيد من علم العلماء ، وبحث الباحثين .

وخلاصة ما تقدم :

أن هذا النوع الذى وكل أمره لربه ، وتخلى عن حمل أمانة التكليف تولَّى الله أمره ، وركَّب فيه من الغرائز ، والخصائص ما به يُحفظ النوع فى صحة ، وسلامة من العيوب ، لاستمرار الحياة إلى أجلاً المسمَّى .

ولا يسعنا مع ذلك إلا أن نقول : جلَّ اللهُ ، الذى خلق كل شيء ، فأحسن خلقه ، « فَتبارَكَ اللّٰه أحْسَنُ الْخَالِقِينَ » (١) .

---

(١) من الآية ١٤ من سورة المؤمنون .

(ب) عَالَم العُقَلاَء :

– عالم وُهبَ العقلَ ، وقَبِل التكليف ، وحمل الأمانة « إِنَّه كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً »(١) .

– أوجب الله (عز وجل) عليه منهجهُ « افُعَل الخيرَ ، ولا تَفْعَل الشرَّ » ووجب عليه أن يقول – فى حبّ ، واقتناع – سمعتُ ، وأطعتُ ، حتى يسعَد فى دنياه ، وأخراه ، ولا يقول سمعتُ ، وعصيتُ حتى لا يشقى فى دنياه ، وأخراه . . .

– أنعم الله (عز وجل) عليه بالفطرة السليمة ، وظلَّله بوحى السماء على المعصومين من عظماء الرسل ، ليبينوا للناس ، وليكونوا القدوة الطيبة العملية ، والأسوة الحسنة لما جاءوا به من عند الله تعالى ، وفيه خير الدنيا ، والآخرة . . .

– فى العمل المخلص ، الجاد بما جاءت به الرسالات ، وجِماعُها الرسالة الخاتمة ، رسالة الرسول الخاتم : سيدنا محمد (عليه الصلاة والسلام) .

فالعمل بها يربىّ الفرد النموذجى فى الطاعة ، . . . ويكوّن الأسرة الفاضلة ، ومن الأسر يتكون المجتمع الفاضل ، والمجتمعات العامة ، التى تزن بموازين الله (عز وجل) وتسعد بها الحياة ، وينعم فيها الأحياء ، بمجتمعات العدل ، والحب ، والإخاء ، والسلام ، . . .

ويهمنا فى المقام الأول ما نحن بصدد الكلام فيه ، وهو النظام الأسمى للحياة ، وللأنجاب ، وللتناسل ، . . .

موازين الله تعالى فى الزواج ، والتناسل

ونقدم بين يدى ذلك ما يهيء القلب للقبول ، ويهدى للتى هى أقوم، . . .

فى ظل القانون العادل ، النافع العظيم ، **التفريق** ، **ثم الجمع . . .**

---

(١) من الآية ٧٢ من سورة الأحزاب .

نقول :

إن الله (عز وجل) وزَّع العطايا على عباده توزيعا عادلا حكيما ، وخص كلا بنصيب وافر ، وكان هذا التوزيع موضع رضًا - فى الأعم الأغلب .

- **الذكاء** : وفيه ، فى التفاوت ما ألمحنا إليه - فيما تقدم .

- الصفات الجسمية : من طول ، وقصر ، ونحافة ، وجسامة ، ... وغير ذلك .

- الصفات العاطفية ، والمزاجية ، ...

- الصفات الخُلُقية : من حلم ، وصبر ، وأناة ، وسعة صَدْرٍ ، وحدّة ، وشدة ، ... وغير ذلك ...

صفات متباينة : الله عز وجل واهبها ، كما وهب الحياة ، وهى فى مجموعها إذا ريضت على آداب الشرع كان فيها العمران ، وإذا تركت للفوضى قادت إلى خراب ، ودمار ...

هذه الصفات المفرَّقة فى الأناسىّ **نزَّاعة إلى التجمع فى جيل جديد** ، ينشأ على الطهر ، والفضيلة ، ويُسَاسُ سياسة حكيمة ، نابعة من شرع الله (عز وجل) ويهمنا فى المقام الأول **التناسل** على صفات النبل ، والخير ...

وهنا يعنُّ للباحث سُؤَال :

إذا جمع الله (عز وجل) زوجين على طهر ، وعفاف ، وعلى كلمات الله تعالى التى تبيح الاستمتاع ، والاستبضاع ... فعَلاَم يكون النسل ؟ ومم يكون ؟ وللإجابة عن ذلك نقول :

إذا سبقت مشيئة الله تعالى ، وسبق إذنه بالعُلُوقِ ، والحمل كان ذلك كما يلى :

- يأذن الله (عز وجل) لغُدَّة فى الجسم ، تحت المخ ، أعدها لذلك

بأن تفرز عند الأنثى إفرازا يتجه بحول الله ، وقوته إلى مبيض المرأة ، فتنضج به بويضة ، وتتخذ طريقها إلى أحد المبيضين ، وتكون فى طور لها مستعدة للإخصاب . . .

وهذه البويضة : تحمل صفات الآباء ، والأجـداد من الصفات الخِلْقيَّة ، والخُلُقيَّة فهى على صغرها ، وضآلة حجمها تحمل بقدرة الله (عز وجل) جميع الصفات الوراثية المختلفة . . . : فللأنثى ثلاث وعشرون عنصراً ، وللذكر كذلك . . .

وهنا : إذا التقت هذه البويضة بحيوان منوىّ ، يسعى حثيثا إليها ، متسابقا مع ملايين أخرى من الحيوانات المنوية ، ويتخذ من إفرازات المهبل ما يغذّيه حتى يصل إلى بغيته . . .

والسابق من الحيوانات المنـوية يصل إلى البويضة ، ويتجه الرأس إليها ، وينفصل الذنب ، الذى أدّى دورَه فى دفع الرأْس إلى البويضة . . .

وهنا يحصل الإخصاب – إذا أراد الله تعالى ذلك ، وقدَّر أزَلاً . . .

وهذا الحيوان يحمل صفات الآباء ، والأجداد – كما ذكرنا فى البويضة ، ولكل من الحيوان المنوى ، والبويضة عدد معين بقدرة الله تعالى وتتحد البويضة مع الحيوان ويبدأ الانقسام ، وتتجه البويضة المخصبة إلى قرار مكين هو الرَّحِم . . .

وتبدأ الأطوار – كما أشار إلى ذلك القرآن الكريم :

« . . . ثمَّ جَعَلْنَاه نطفةً فى قرارٍ مكين ، ثـم خَلَقَنَا النطفةَ علقة ، فخلقْنَا العلقة مضغةً ، فخلقنا المضغَةَ عظَامًا ، فكسونَا العظام لحمًا ، ثم أنشأنَاهُ خلقًا آخر ، فَتَبَارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الخالَقِينَ » (١) .

وهنا نقول :

إن الصفات الموجودة فى الحيوان المنوى يقابل بعدها فى البويضة – كما ذكرنا – **وهنا يقال :**

---

(١) الآيتان ١٣ ، ١٤ من سورة المؤمنون .

توجد صفات سائدة ، وصفات متنمِّيَة . . .

وفى الزواج المتباعد يتبع الجنين الأقوى من الأبوين : الأب ، والأم ، وينشأ النسل سَوِيًّا قَويًّا . . . إذ أَن الجنين يأخذ أقوى الصفات من الأم ، والأب . . .

وعند زواج الأقارب تنشأ المشكلة عند الانقسام، والتقاء الصفات . إذ يكون المرض الموروث علة ، وإعاقة فى الجنين ،والمولود ، وتنشأ المشكلة . . .

من أجل ذلك :

ألهم الله عبده ، ونبيه ، ورسوله آدم أن يُغْرب فى الزواج فى ذريته – بحسب المستطاع ، والمتاح فى ذلك الوقت .

فقد كان يزوج توأمة أحد أبنائه من توأمة آخر ، تعليماً لَمنْ بعدَ ، وتحاشيًا من حدوث إعاقة ، فى البُعْدِ عنها الخير العظيم . . .

ثم أغرب أولاده ، وأحفاده من بعده ، وعرفوا من أين تأتى قوة النسل ، وممّ يتسرب الضعف ، وتأتى الإعاقة . . . بإلهام الله تعالى ، وبالخيرات النابعة .

وقد عرضنا فيما تقدم ما كانت الجاهلية تفعله فرارًا من الضَّوَى ، ونزوعًا إلى القوة التى تتطلبها الحياة . . .

وقد أدرك الناس بفطرهم السليمة ، وخبراتهم فى الحياة أضرار التزوّج من الأقارب ، والقوّة فى التزوج من الأباعد . . .

ولقد عرض الجاحظ فى كتاب الحيوان قدرًا كبيرًا من سمات ، وصفات النسل ، الناشىء من زواج غير الأقارب (١) .

والخلاصة :

فإن الزوجين إذا سلمت صفاتهما نشأ المولود أقوى من أَصْلَيْه ، وأَمتَن من جِذوره . . .

---

(١) انظر كتاب الحيوان للحافظ « كتاب الإنسان » .

وإذا كان أحدهما به ضعف سادت صفة القوة ، وتَنَحَّت صفة الضعف فجاء النسل سليما ، معافًى . . .

أما إذا تقابلت صفتان ، أو صفات متماثلة الضعف حلت الكارثة بالنسل ، وجاءت الإعاقة ،والزَّمَانَة . . . .

وقد عرضنا – فيما تقدم – طرفا من تجارب الناس فى زواج الأقوياء ، وزواج الأقارب ، وما نتج عن ذلك . . .

وعند التأمل نجد ما تقدم خاضعًا للقانون العام : **تفريق صفات** فى متباعدين ، ثم جمعها فى زواج يعمد إلى الإغراب ، والابتعاد عن القرابة القريبة . . .

وإذا أيقنا أن الله تعالى : « أعْلَمُ حيثُ يجعَل رِسَالَتَه » فإننا نوقن – أيضًا – أن الله قد اختار الزواج ، الذى يجمع أكثر من دم ؛ لتجتمع أرْقى الصفات . . . والنموذج الأعظم للبشرية جمعاء ، وسيِّد الرسل ، والخلق أجمعين : سيدنا ومولانا خاتم الأنبياء ، والمرسلين .

اجتمع لآبائه الدم الكَنْعَانى من جهة الجد الأعلى وساميّ الجد الأعلى، والدم الحامى من قبيل الأميرة : هَاجَر ، ودم إسماعيل ، مع دم قحطان . . .

جلَّ الله تعالى الذى خلق كل شىء ، فقدره تقديرًا . . .

وهنا نقــرر : أن الخيرَ كلَّ الخير فى الزواج من الغريبات ، وأن الضَّوّى ، والضُّمُور ، والإعاقة فى الزواج من القرابة القريبة . . .

مع مراعاة ما قدمناه قبـل ذلك مما جـاء به الدينُ الحنيف فى الاختيار ، والانتقاء على الدين ، وغير ذلك مما يعدّ من مفاخر الإسلام فى بناء الأفراد ، والأسر ، والمجتمعات . . .

ونلخص ذلك فى الآتى :

(أ) الإذن بالزواج تحت مظلة القوة البدنية ، والقدرة المالية ، والقدرة السلوكية : **وقوامها** : أن يصلح الزوج ، لأن يكون أبًا ، كاسيًا مقصداً ، واسع الخبرات فى نواحى الدين ، وشئون الحياة ، ... وحديث الرسول الأمين للشباب ، والإذن لهم بالزواج يتناول ما تقدم ...

(ب) أن يعمد من يريد الزواج إلى ذات الدين ، وهى التى نشأت فى أسرة تدين ، وقويم سلوك ، وأدركت الحلال ، والحرم ، والمشبَّهات ، حتى لا تقع فى مأثم ...

وهى بذلك : تستطيع أن تحقق السكن ، والمودة ، والرحمة ، وأن تفهم مراد الزوج ، وأن تقتدى به ، وأن تقوم حياتهما ، وحياة الأسرة فى ظلال الدين ، وهو أمان من كل انحراف ، وزلل ، ...

كما تشترك مع زوجها فى تربية ضمير الناشىء ، والناشئة ، وتقويم السلوك ، وتكوين الاتجاهات ...

والزواج من الغرائب – مع ما تقدم – يكسب كثيراً من الصفات المحمودة ، التى تنشدها الأسرة ، وتبنى المجتمعات على القوة ، والفضائل ، وقد – ألمحنا لذلك فيما تقدم –[1] .

ونزيد الأمر **إيضاحا ؛ لأهميته** ، فنقول – فى اختصار .

– يحتوى كل من الحيوان المنوى ، والبويضة على ٢٣ كروموزوم ، وهى تعطى مكونات الوراثة ...

– ويوجد بداخل كل من هذه الكروموزونات ، تنظيمات أقل صغراً تسمَّى الجينات ، أو المورثات ... وهى محددات لسمات معينة ، كلون العين ، والشعر ... وغير ذلك .

– عند الإخصاب يتحد الحيوان المنوى مع البويضة ؛ ليكونا خلية

(١) انظر كتابنا « التبيان فى تفسير قول الرحمن « ووضع الميزان » .
وانظر كتابنا « المرأة عبر العصور بين مهانة الجاهلية وعزة الإسلام » – تحت الطبع .

واحدة مكونة من ٤٦ كروموزوم ، وتتزواج ؛ لتكون ٢٣ زوجا من الكروموزومات .

يأخذ النمو مجراه – بعظمة من يصورنا فى الأرحام كيف يشاء – وكل خلية تنقسم إلى خليتين .

وتنقسم الخليتان إلى أربع ... وهكذا . « صُنْعَ اللهِ ، الذى أتْقَنَ كلَّ شىءٍ ... »(١) وكل خلية جديدة تحتوى على ٤٦ كروموزوم (٢).

ومما له مناسبة قوية بما تقدم : أن منى الرجل يحمل كروموزوم « إكس » أو كروموزوم « واى » .

والجنين الناشىء عن البويضة المخصبة بتصوير الله (عز وجل) وتقديره يكون ذكراً إذا احتوت البويضة على واحد كرموزوم « إكس » وواحد كرموزوم « واى » وتكون أنثى إذا احتوت على اثنين « كرموزوم » « إكس » وعلى ذلك يكون تحديد الذكر ، أو الأنثى من منّى الرجل (٣) ، والأنثى مزرعة تنبت ما يلقى فيها ، وقد ألمحت إلى ذلك الآية الكريمة « نِسَاؤُكُم حُرْثٌ لكُم ... » (٤) .

---

(١) من الآية ٨٨ من سورة النَّمل .

(٢) انظر كتاب « علم النفس » للدكتور / حامد عبد العزيز العيد ص ٨٤ – ٨٥ .

(٣) وقد أدركت ذلك امرأة أبى حمزة الضَّبىّ ، الذى هجر خيمة امرأته حينما ولدت امرأته بنتا (وذلك الإدراك بفطرتها النفسيَّة) .

وقد مر بها ، وهى ترقص ابنتها ، وتقول :

« ما لأَبى حمزةَ لا يأتينا   يظلُّ فى البيت الذى يَلينَا
غضبان ألاَّ نلدَ البنينا   تا لله ما ذَلك فى أيدينَا
وإنما نأخُذُ ما أعطينا   ونحن كالأرْض لزارعِينَا
نُنْبِتُ ما قَدْ زَرَعُوهُ فينَا

فغدا الشيخ حتى ولج البيت ، فقبل رأس امرأته ، وابنتها » .

انظر ١ / ١٩٥ البيان والتبين للجاحظ .

٤ – من الآية ٢٢٣ من سورة البقرة .

وصدق الله العظيم إذ يقول « ... مِنْ نطفة أمْشَاجٍ »[1] وصدق الله العظيم إذ يقول « ... يَخْرُجُ منْ بَيْنِ الصُّلْبِ ، والتَّرائِبِ »[2] .

موازين الله (عز وجل) فى تحريم الزواج من القرائب

دستورُ الله (عز وجل) فى ذلك قول الله تعالى :

« ولا تنكحُوا ما نكح آباؤكم من النسَاءِ إلاَّ ما قد سَلَف ؛ إنهُ كانَ فاحشةً ، ومقتًا ، وساءَ سبيلاً ، حُرِّمَتْ عليكم أمهاتُكم ، وبناتكم ، وأخواتكُم ، وعمَاتكُم ، وخالاتكُم ، وبناتُ الأخِ ، وبناتُ الأُختِ ، وأمهاتكم اللاتى أرضعنكم ، وأخواتكمُ من الرَّضَاعَة ، وأمهاتُ نسَائكم ، وربائبكُم اللاتى فى حجُوركم من نسائكم اللاَّتى دخلتُم بهنَّ ، فإن لم تكونوا دخلتم بهنَّ فلا جناحَ عليكم ، وحلائل أبنائكم ، الذين من أصْلابكم ، وأن تجمعوا بين الأختين إلا ما قد سَلَفَ ، إنَّ الله كانَ غفوراً رحيمًا ،والمحصناتُ من النِّساءِ إلا ما ملكت أيمانكُمْ كتابَ اللهِ عليكم ، وأُحَّل لكُمْ ما وراءَ ذَلِكُم ... »[3] .

وانطلاقا مما تقدم نقول :

(أ) لا تكون المرأة صالحة للنكاح شرعا إذا اتصفت بصفة من تسع صفات[4] :

---

١ ـ من الآية ٢ من سورة الإنسان .

نطفة : منى الرجل ، ...

أمشاج : « ... من نطفة قد امتزج فيها الماءان » كشاف ٤ / ٦٦٦ .

والمراد بالماءين : حيوان الذكر ، وبويضة الأنثى ـ كما تقدم ...

٢ ـ الآية ٧ من سورة الطارق :

الصلب : صليب الرجل ...

الترائب : ترائب المرأة : وهى عظام الصدر ٤ / ٧٣٥ كشاف . وقد تقدم شرح ذلك .

(٣) الآيتان ٢٢، ٢٣، الآية ٢٤ من سورة النساء .

(٤) الصفات :

١ ـ النسب ٢ ـ الرضاع . ٣ ـ المصاهرة . ٤ ـ حرمة الجمع . ٥ ـ الخمس . ٦ ـ التقديم . ٧ ـ حق الغير . ٨ ـ عدم دين سماوى . ٩ ـ التنافى .

والتفصيل ما يلى :

١ - **النَّسَب** : وهن المذكورات فى قوله تعالى : « حرّمتْ عليكُم أُمَّهاتكُم ... إلى قوله تعالى « .. وبناتُ الأُخْت » .

٢ - **المصاهرة** : وهن : أمهات النّساء ، لقوله تعالى « وأمهاتُ نسَائِكُم » ويستوى فى التحريم : الدخول بالزوجة ، وعدم الدخول بها ».

وقاعدة الفقهاء المقررة تقول : « العقد على البنات يحرم الأمهات ، والدخول بالأمهات يحرم البنات » .

٣ - **الرَّبَائب** : جمع ربيبة : ابنة الزوجة ؛ لقوله تعالى « وربائبُكُم اللاتى فى حُجُورِكم من نِسَائكم اللاَّتِى دَخَلتُمْ بهنَّ » .

٤ - **حلائل الأبناء** ؛ لقوله تعالى : « وحلائِلُ أبنائكم الَّذينَ من أصْلابكُم » .

٥ - **زوجات الآباء** : لقوله تعالى : « ولا تنكحُوا ما نكح آباؤُكم من النساءِ إلا ما قد سَلَفَ » .

٦ - **الرضاع** : لقوله تعالى : « وأُمهَّات اللاتى أرْضعنكُم » ولقول الرسول الأمين « يحرم من الرضاع ما يحرم من النَّسَب » .

وتحريم المتقدمات على سبيل التأبيد .

المحرَّمات على سَبيل التأْقيت :

والقاعدة فى تحريم التأقيت :

« ما كان سبب التحريم فيهن وصفًا غير لازم : فيبقى التحريم ببقاء الوصف ، ويزول بزواله » .

والأنواع ستة :

على التفصيل الآتى :

١ - **الجمع بين المَحَارِم** : وضابط الفقهاء فى ذلك : « أن كل امرأتين، لو فرضت من الجانبين : إحداهما ذكرا ، والأخرى أنثى حرمت عليه ، لا

يصح الجمع بينهما » **ويتفرع عن ذلك** : أنه لا يجمع بين الأختين ، ولا بين المرأة ، وعمتها ، أو خالتها ، ويقول الرسول العظيم « لا تنْكَح المرأةُ على عمتها ، ولا على خالتها ، ولا المرأةُ على ابنة أَخيها ، ولا ابنة أختها ، **فإنكم إن فعلتُم ذلك قطعتم أرحَامكُم** » .

٢ - **الجمع بين اكثر** من أَرْبعَ نسوة : فزاوج الخامسة باطل ما بقيت عصمة الأربع .

ولا بأس إذا طلق واحدة . وانتهت عدتها ؛ لأن النكاح فى العدة قائم حكمًا .

٣ - **زواج الأمة فوق الحرة** : وذلك لقول الرسول الأمين : « لا تنكحُ الأمةُ على الحرة » :

لأن فى إدخال الأمة على الحرة امتهانًا لكرامتها ، وضياعًا لعزة الحرية .

٤ - **زوجة الغير** ، أو معتدة الغير ؛ لقوله تعالى : « والمحصَنَاتُ من النِّسَاءِ . . . » .

ولقوله تعالى : « والمطلقاتُ يتربَّصْ بأنفسهن ثَلاَثة قُرُوء » (١) ولقوله تعالى : « والَّذينَ يَتَوفُّون منكم ، ويذَرُون أزواجًا يَتربَّصْنَ بأنفسهن أربْعة أَشهُر ، وعَشْرًا » (٢) .

٥ - **الزواج ممن لا دين لها** : إذ يحرم زواج المجوسية : عابدة النار والوثنية : عابدة الصنم ، وكل من لا تدين بدين سماوىّ . . .

٦ - **نكاح أَمَةِ الرجل ، أو سيِّدته :**

فالمملوكة لسيدها ملكُ رقبتها ، والبضع داخل فى ذلك ، والاستمتاع بها أقوى من الحرة . . . ولا يحل لسيدة أن تتزوج عبدها ، إذ

---

(١) من الآية ٢٢٨ من سورة البقرة .

(٢) من الآية ٢٣٤ من سورة البقرة .

المملوكية تنافى الملكية ، وكل تصرف لا يترتب عليه مقصوده لا يكون مشروعا [1] .

* * *

حكمة تحريم المحرَّمات من النساء

التشريع الإسلامى **تشريع محكم** ، قوامه طاعة الله (جل ، وعز) فى كل ما أمر ، وما نهى ، وتوثيق **عُرَى المحبة** ، والمودة بين الناس ، والعمل المثمر الخلاق نحو التعاون على البر ، والتقوى فى كل مجالات الحياة ، وتوجيه العناية بالأسرة التى هى اللبنة الأولى فى بناء المجتمع القوى ، المتماسك ...

كما ينزع التشريع إلى القوَّة ، التى بها تعمر الأرض - كما أمر الله (عز وجل) - وتعطى خيرها للبشر أجمعين ...

وفى هذا،وما يشبهه جاء التشريع الحكيم ، وجاءت قوانين السماء ، لخير البشرية جمعاء ومع التأمل الواعى نجد الفقهاء قد اتجهوا إلى تلمس الحكمة فى التحريم ، وكثر بحثهم فى النواحى الأسرية ، والاجتماعية...

وقد يَمحُوا شطر حديث الرسول العظيم ، الذى أماط اللثام عن الحكمة فى ذيله ، وآخره فى قول الرسول الأمين : « ... **فإنكمُ إنْ فَعَلُتُم ذلك قَطعتُم أرّحَامكم** » .

ونقول :

إن قول الرسول الأمين أشار إلى ناحية هامة : هى قطع الأرحام فى زواج بعض التريبات ...

وقد وضع الرسول العظيم بذلك قاعدة صلبة يمكن القياس عليها ،

---

(١) انظر ص ٢٣ ، من محاضرات فى الفقه الإسلامى للدكتور محمد محمد مصطفى شحاتة الحسينى وانظر ١ / ٣٧١ - ٣٧٣ بلغة السالك لأقرب المسالك : على الشرح الصغير ، للإمام الدروير .

وانظر ص ٤٢ - ٤٣ فتح القريب المجيب ، شرح القريب .

والتفريع منها ، وأخذ الحكمة ، والقياس عليها مادامت العلة موجودة .

والمراد : أن الرسول العظيم ، الذى أُمِرَ أن يخاطب الناس على قدر عقولهم وضع أساساً ، يمكن البناء عليه فى مستقبل مسيرة الحياة ، ومرور الأيام . . .

وقد تلمس الفقهاء حكماً عالية تدور فى فلك الحديث الشريف ، وتجعله الورد الصافى الذى يستمد منه الرِّى ، والنفع . . .

وجاء **من الحكم فى هذا** الشأن ما يلى :

(أ) التشريع الإسلامى أمر بصلة الأرحام ، ورعاية الأقرباء . . .

وليس من الحكمة أن يبيح الافتراش الجنسى بين هذا النوع من القرابات ما ينقض ذلك ، **وتكون النتيجة** : القطيعة ، وفساد لعلاقات . . .

فلو أن الشرع أباح أن يتزوج الرجل أم زوجته ، أو ابنتها ، لفسدت علاقة الأمومة ، وآلت إلى علاقة الضرة ، والغلَّة ،. وفى ذلك ما فيه .

وقس على ذلك بقية الأحوال . . . فإنك تجد مجتمع العداوة ، والبغضاء ، والتقاطع ، والتنابذ . . .

ولا نعكست الأمور فى كل شىء يترتب على الزواج من النفقات ، والمواريث ، وغير ذلك .

٢ – لما كانت العلاقة الزوجية مبنية على الاستمتاع ، والامتهان ، وهنا يُخْلَع رداءُ الحشمة ، والوقار بين الزوجين ، وصولا إلى متعة محللة .

وزواج المحزمة يناقض الفطرة السليمة فى الإنسان ، ويكون مدعاة إلى انتقاض الفطرة السليمة .

وقد دار الفقهاء حول الحكمة التى يشير إليها عجز الحديث الشريف . . .

وإذا كان الرسول العظيم قد ذكر الحكمة ، ونص عليها ، وجعلها نبراسا يهتدى المجتهد فى ضوئه ، ويعشو إليه . .

فإنه كذلك قد أشار إلى الأضرار الناتجة ، والناجمة عن زواج الأقارب فى قوله الشريف ، الحكيم « اغتَربُوا لا تُضْوُوا » :

وهذا هو الأساس العظيم فى تحريم المحرمات أَوّلاً ، وفى القرابات ثانيًا . . .

وجزى الله عنا سيدنا محمداً خير الجزاء . . . الذى وضع لنا الأساس القوى فى قوة النسل ، والذى تترتب عليه قوة المجتمعات . . .

وقد وضع لنا القوة فى موضعها الصحيح حيث قال « المؤمنُ القوىٌ خيرٌ ، وأحبٌ إلى الله من المؤْمن الضَّعِيف ، وفى كلٍّ خيرٌ . . . » .

وجاء الحديث الشريف ممَّن لا ينطق عن الهوى :

فقد رأى الرسول الأمين بالوحى ، وبفطنته الرفيعة ، وهى واجبة للرسل ، وكذلك بالخبرة ، والمشاهدة قبل أن يشرفه الله بالرسالة . . . أن زواج الأقارب فيه الضعف ، والضوى ، والضمور ، وألوان الإعاقة فى النسل . . .

وقد ندب الناس بهذا الحديث العظيم إلى أن يستعملوا عقولهم ، وما ركب فيهم من فطرة سليمة إلى تجنب هذا النوع من الزواج ،و حتى لا تكون الإعاقة بادية على أبنائه ، وبناته ، وحَسْبه من الشر أن يكون قد ضيَّع من يعول . . .

وقد ظلت الأمور مقصورة على التجربة ، والمشاهدة فى الإعاقة الناجحة عن زواج الأقارب . . .

وقد ظهر العلم التجريبى – بآخرة – وبه ثبت : إن التلقيح من سلائل مختلفة ، لا ترتبط بصلة الدم يكون قوىّ الإنتاج ، سليمة . . .

وأن التلقيح من سلائل متحدة ترتبط بصلة الدم يكون ضعيف

الإنتاج ، معوّقة . . . **ومما يذكر** فى ذلك أن العالم الشهير « كرامب » فى سنة ١٨٨٣ قد قام بتجربة استعمل فيها التلقيح بين نوع من الحيوان من سلالة واحدة ، وقد خرج من تجربته بما يلى : ١ – ظهور أفراد كثيرة ذات استعداد للأمراض .

٢ – ظهور العيوب الخلقية .

٣ – الانحطاط العام فى درجة التناسل ، ووجود العقم فى بعض الأنواع .

والعلم التجريبىّ قد أفاد من ذلك إفادة فائقة . . .

والدول المتقدمة علميا : بنت أساس تقدمها على الإفادة من العلم التجريبى . . .

واستخدموا ذلك فى :

(أ) النبات : التقاوى المنتقاة ، التى تأتى من سلالات متباينة .

(ب) الشجر : من حيث التهجين والتطعيم وتأتى من ذلك الثمار ، الحلوة الطعم ، الغزيزة الإنتاج ، والتى تتحمل عوامل الجو المتقلبة ، وغير ذلك .

(جـ) **التهجين فى الحيوان** ، واختيار السلالات القوية ، لوفرة الألبان ، واللحوم ، وغير ذلك . . .

(د) ومثل ذلك فى الطير . . .

والحق : أن الإبعاد فى التلقيح يأتى بأعظم النتائج ، ويوفر الوفرة ، والغنى . . .

وفى هذا المضمار تسابقت الدول المتقدمة ، وتنافس المتنافسون . . .

وقد علمنا أنهم فى معامل التربية ، والتسمين يعمدون إلى الأسلوب العلمى فى كل المراحل ، وصولا إلى أعظم الثمار . . .

فمثلا : إذا لقح ثورٌ إناثًا ، فعند ولادة الإناث، فإن الذكر الملقح يبعد

عن التلقيح فى الناتج حتى لا يلقح بناته ، فتأتى الأمراض ، وتحل الخسارة ... **ونقول فى** غير تحرج ، وفى اطمئنان نفس :

إن الرسول العظيم فى تبيان الحكمة أبان فى حديثيه الشريفين ...

– الحكم الاجتماعية ...

– والحكم الخلقية . (زاده الله تشريفا ، وتعظيما ، وجازاه عنا خير ما جازى نبيا من أمته ، وقد ثبت لنا مما تقدم :

أن الرسول العظيم قد حذر الناس أجمعين ؛ لعموم رسالته من زواج القريبات ...

وأبان عن علة النهى ، ووضع لها أساسين عظيمين :

أحدهما : مُحَسٌّ ملموس ، واضح الحكمة ، ويتعلق بالنواحى الاجتماعية ، والأخلاقية ، والسلوكية ، والإنسانية فى أسمى صورها ، وأجل أوضاعها ...

وثانيهما : ثابت بالمشاهدة ، وهو الضَّوَى – بكافة صوره ، وأشكاله، ... وقد كشف العلم الأسباب بآخرة ...

وفى اعتقادنا : أن ما ذكره الرسول العظيم فى هذا الشأن ، وأثبتته تجربة المعامل ، وأكده واقع الحياة ، والأحياء ، مما يعد من قبيل الإخبار عن غيب أطلعه الله (عز وجل) عليه ، وبلَّغه لنا .

* * *

مُشكِلَةُ الإعَاقَة

تمهيد :

النفس البشرية : نزَّاعة إلى النُّزوع إلى هواها ، وهى تعشق الانطلاق إلى آفاق رحيبة ، تحقق فيها ذاتها ، غير ملتفة إلى ضوابط عامة ، أو حدود دينية ، أو اجتماعية . أو أخلاقية ، وقديما قيل :

ولذيذُ الحياة ما كانَ فَوْضَى ليْسَ فيه مسيطرٌ ، أو رَقيبُ

وفى هذا المسلك هلاك الأفراد ، ودمار المجتمعات ، وخراب الكون .

من أجل ذلك :

لم تترك عناية السماء أهل الأرض ، تتنازعهم الأهواء المُفْسِدَة ، والنزوات المدمرة ، وإنما جاء التوجيه للتى هى أقوم ... ورُكِّبت فى الطِباع الفطر السليمة ، والنفس اللوامة ... **وقمة ذلك كله فى :**

(أ) **النبوات** : لتشيع ، وتنشر بالقدوة ، والسلوك كريم العادات ، وفاضل الأخلاق ، ... وتنشر فى المجتمعات الحبّ ، والخير ، والإيثار ، والتعاون ،وصادق الإيمان ...

(ب) الرسالات :

والرسول : من أوحى إليه بشرع ، وأمر بتبليغه ، وأمدته السماء بالوحى ، وبالكتاب المنير .

والرَّسول المرسل : قد أدَّى الرسالة ، وبلَّغ عن ربه الأمانة ، ونصح للخلق ، وهداهم إلى الخالق ، وأبان لهم منهج الله (عز وجل) وحدودهُ ، وشعائره ، وحرماته ، ...

ومن أبرز ما تقدم النواحى التالية .

١ - إبلاغ وحى الله (عز وجل) فى أمانة ، وصدق ، وفطنة ، ووصول إلى الأهداف بالحكمة ، والموعظة الحسنة ...

٢ – شرح ، وتبيان ما أنزل عليه ، **وذلك** : فى تفسير المجمل ، وبيان المراد ، . . .

٣ – كان القدوة الحسنة ، والأسوة الطيبة ، والبيان العملى لكل ما نزل عليه ، وكان يمثل – بتعبيرنا المعاصر – النظرية ، ودقة التطبيق . . .

٤ – أضاف لما أنزل عليه ، ما علمه الله (عز وجل) له . . .

وبذلك : تم عند الاتباع ما يلى :

(أ) الصلة الوثيقة بالله (عز وجل) التى تقوم على العبودية الكاملة للربوبية المنعمة ، . . .

(ب) الصلة الوثيقة بالأفراد ، والمجتمعات تحت شعار « لا ضَرَرَ ، ولا ضِرَارَ » .

وهنا يكون قد اتضح ميزان الله (عز وجل) الحكيم ، العادل . . .

فإذا وزن الموفَّقُون به سعدوا فى الدين ، والدنيا ، والآخرة ، وإذا طَفَّفُوا الكيل ، وأخسروا الميزانَ ، وجعلوا لهم موازينَ هوًى ، تنزع إلى النفس الأمارة بالسوء خابوا ، وخسروا ، وحلّت بهم النقم ، وفسدت حياتهم . . .

وفى ضوء ما تقدم نقول :

إن أسباب المشكلة **تتجلى فيما يلى :**

(أ) **مخالفة موازين** الله (عز وجل) – بعامة – واتخاذ موازين ، تقوم على الهوى . . .

(ب) مخالفة **قوانين** الله (عز وجل) فى كونه ، وهى قوانين ، تقوم عليها الحياة الحقة . . . إذ أن رب العزة (سبحانه ، وتعالى)فرّق القدرات، والمهارات، وصفات القوة ، وغيرها : من الصفات الخِلقية ، والخلقية على عباده – بحكمة بالغة – وشرع لها أن تجتمع تلك الصفات ، أو ما شاء الله منها فى نَشءٍ جديد ، قِوَامه: القوة الجسمية، والنفسية، والعاطفية ،

والمزاجية ؛ ليتم التبادل ، والتعاون بين الناس ؛ لتبادل المنافع ، والخيرات ... وكما قلنا – فيما تقدم : التفريق ، والجمع ، والتفريق ، ... وهكذا يكون نظام الكون .

(جـ) **مخالفة موازين** الله (عز وجل) فى توزيع الثروات ، والمنافع ، حتى لا تكون كلها دُولَة بين الأغنياء ، والقادرين ...

وكما ذكرنا – سابقا – أن المال مفرّق ، ويأتى من مصادره – التى ألمحنا إليها فيما تقدم ، وقد يوفق الله تعالى من يجمع هذا المال ، وينبغى أن يكون موَظَّفًا فى وظيفته الاجتماعية ، التى أشرنا إليها ...

وهنا يأتى التوزيع ، والتفريق على يد تعمل ، وزارع يزرع ، وكلٍّ ، وضَعيف لهُ قَدْر معلوم فى وقت معلوم ، وله – أيضا – ما يسمى بمكارم الأخلاق ، ولا وقت لما يتفق فى ذلك ، ولا تقدير ، وإنما يعود الأمر إلى غَنىّ سخىٍّ ، وفقير ذى مسغبة ، وحاجة ، ومسكين ، ذى متربة ...

ومع ذلك كله ، وفوق ذلك كله يأتى الميراث ، الذى يوزع الثروة على الوارثين ، والوارثات ، ويفرقها ، بما أمر الله (عز وجل) – إذا قالوا للمنعم (سبحانه وتعالى) « سَمِعْنَا ، وأطعنا » .

ومع هذا التفريق يوفق الله تعالى وارثا أخذ نصيبه ، ويبارك له فيه ، ويعطيه النماء ، والثراء ، فيجمع المتفرق مرة أخرى ... وهكذا ، حتى يرث الله الأرض ، وما عليها ، ومن عليها ...

وهنا نرى : من يزن بموازين الهوى ، لا يفعل ما تقدم ، ويعده الشيطان الفقر ، ويأمره بالفحشاء ...

وقمة فحشه أن يفعل شيئًا مما يلى :

١ – **حرمان** الأنثى من حق الحياة ، نزوعا إلى الجاهلية بعرق ، وثيق...

٢ – **الإمساك** على هُون ، وفى ذلك الحرمان من التربية السليمة المستقيمة ، النافعة ...

٣ - **الحرمان** : من الميراث ، حتى لا تذهب الثروة إلى آخر من فئة أخرى .

٤ - **الحرمان** من الزواج ، وترك الابنة فريسة العنُوسة ، والأمراض النفسية ، الناشئة عن الكبت ، والحرمان من العشير - فى عُشٍّ حلالٍ - وهو النصف الثانى - والحرمان من الأمومة ، وحقها فى تنشئة الأجيال .

٥ - الحرمان : من عش زوجية تحقق فيه ذاتها ، وتخلص لزوجها ، وتنتظر فى لهفة أولادها ، وتخرج من الدنيا فريدة ، كما دخلتها فريدة...

٦ - **الحرمان** من ألوان العبادة التى تتجلى فى طاعة الزوج ، ورياضة النفس على ذلك ، والابتسام فى وجهه ؛ لينظر الله (عز وجل) إليها .

٧ - **الحرمان** : من كمال طاعة الزوج ، وحسن التبعُّل ، وذلك يعدل الجهاد ، والأعمال الكبرى للرجال - كما أخبر بذلك الصادق الأمين (ﷺ) .

وفى **الحرمان مما** تقدم شرورٌ لا أول لها ، ولا آخر لها ، ومفاسد عظيمة ، سنتحدث عنها - إن شاء الله تعالى .

ومما تقدم نقول :

إن الله (عز وجل) لم يخلقنا عبثًا ، ولم يتركنا سُدًى ، وإنما خلقنا لمعرفته ، وعبادته ، وعلمنا ما لم نعمل عن طريق من اختارهم لحمل الأمانة من عظماء البشر ... ووضع لنا حُدُودًا ، ومعايير ، كما وضع الميزان ، وأمرنا أن نقيم الوزن بالقسط فى كل أمورنا ، وفى كل ما يعرض لنا من شئون الحياة ...

فمنا من استقام على الطريقة ، فسعد ، وسعد به من حوله ، ...

ومنا من اتخذ إلهه هواه ، ووزن بموازين الهوى فخاب ، وخسر الخسران المبين .

وهذا شبيه بما خلقه الله (عز وجل) لنا فى بيئة نظيفة ، سليمة ، لا أمراض فيها ، ولا عدوى بها . . .

فمنا من نعم بها ، وسعد بنقائها ، وطهرها . . .

ومنا من أفسدها ، ولوثها بألوان الفساد ، والخراب . . .

وكما خلق النفس : فمنا من زكَّاها ، وراضها على الطاعة ، فسعد فى الدنيا ، والآخرة .

ومنا من أفسدها بكفر النعمة ، ومقارفة المعاصى . . . وقد طاب ، وخَسِرَ . . .

والله (عز وجل) فقَّال لما يريد ، ولا يقع فى ملكه إلا ما يريد . . .

وقد اختبر عبَادهُ جميعًا بالخير ، والشرِّ فتنة ، وإليه المرجع ، والمآب .

* * *

مزيد من الأضواء

على أسباب المشكلة عبر العصور المختلفة

مدخلنا إلى ذلك ما فُطِرَ الناسُ – كل الناس – عليه ، وتقدمه فى سمُوٍّ ، وجلاء الآية الكريمة ، وهى قولُ مَنْ خلق ، ويعلَمُ مَنْ خَلَق ، وهو اللطيف ، الخبير .

قال الله تعالى : « زُيِّن للناسِ حبُّ الشهواتِ من النساءِ ، والبنينَ ، والقناطيرِ المقنطرة من الذَّهَب ، والفضة ، والخيلِ المسوَّمة ، والأنعامِ ، والحرثِ ، ذَلِك متاعُ الحياةِ الدُّنْيَا ، واللهُ عنْدَه حُسْنُ المآب »(١) .

– المزيِّن للناسِ : هو رب العزة (جل ، وعز) والمراد : أنه خلق حبها فى القلوب . . .

والهدف : الابتلاء بها ، والاختبار . . .

– وإطلاق الشهوات على المحبوبات ؛ لأنها محبوبة ، مشتهاة عند الناس – كل الناس . .

– وأجناس هذه الشهوات :

– النساء ، وهن أضر فتنة على الرجال . . .

البنون : وهم مع المال زينة الحياة الدنيا ، وبخاصة عن الصحة ، ونعمة المال . . .

– القناطير المقنطرة من الذهب ، والفضة : والمراد :المال الوافر الكثير، والذى يحبه الناس حبا جما ، ولا يقتنعون منه بغاية مهما عظمت . . .

– الخيل المسومة : المعلمة ، أو المطهمة ، أو المرعية ، من أسام الدابة، وسومها . . . وللناس فيها جمال عند السَّوْم ، والإراحة (٢) .

---

(١) الآية ١٤ من سورة آل عمران . . .

(٢) انظر ١ /٣٤٢ ٣٤٣ الكشاف .

- **الأنعام** : الأزواج الثمانية : الإبل ، البقر ، الغنم ، الماعز ، وما يدخل تحتها ...

وما تقدم أصول النعم ، والتي يتوجه النشاط البشرى لتحصيلها ، والفوز بها ، والتكاثر فيها ، والاعتزاز بها ... وفى سبيل الظفر بها يرخص بها يرخص الغالى ، ويُجَاد بالنفس ، والنفيس ...

وفى اعتقادنا : أن موازين الناس الأرضية ، الوضعية كانت تزن بموازن تدور حول ما تقدم ...

فمن ملك أكثر كان وزنه أرجح ، ومن لم يكن له من ذلك نصيب فلأمِّه الهيل ، ولا يقام له وزن من موازين الناس ...

ولعل هذه القاعدة كانت غلابة فى شتى العصور ، والدهور ، والبيئات .

ويأتى تبعًا لما تقدم الزواج .

فمن ملك أكثر زوَّجوه ، ومن ملك أقلّ نزل - فى الاختيار عن المستوى الأول ، ومن لم يملك كان مصيره الحرمان ، والرد عن الزواج حتى يملك ...

ومن ملك كثيراً تغالى كثيراً ، بل ربما ارتكب حماقة تعنيس بنته ، أو بناته ، خنا بمال قد يذهب معها إلى آخر ، ويرثه آخرون ، أو ارتكبَ حماقة حرمان ابنته من الميراث ، أو زوجها فى قريب ، غير ميال بما يجر إليه ذلك من عجز ، وزمانة ، وإعاقة ...

ولا تعرب فى الفهم إذا ذهبنا إلى أبعد من ذلك ...

ولعل للناس - فى كل زمان ، وعصر ، وبيئة ، مكان أعرافا أخذوها عن هواهم المنحرف ، وحبهم للشهوات المتقدمة ...

وربما كان للجمال نصيب فيما تقدم ، فى كل العصور ، والدهور ، ولأن أول دم بشرى ، محرم أريق كان بسبب « « إقليما » : فقد قتل «

قابيل » أخاه « هابيل » حننا بها عليه لجمالها ... وحسداً من عند نفسه...

ونكتفى بهذه الإشارة إلى ما كانت البشرية تفعله ؛ إذا أننا لا نملك تفصيلا إلا بثبت : دليل ، وسلطان ...

ويمكننا أن نسوق دليلا على ما ذكرناه بما رواه البخارىّ عن رواته إلى سيدنا ومولانا : رسول الله (ﷺ) : فإنه ينزع إلى نوازع النفوس البشرية بعرق ، وثيق ....

« مرَّ رَجُلٌ على رسول (صلى الله عليه وسلم) ، فقال : ما تقولون فى هذا ؟ قالوا : حَرِىٌّ إن خطب أن ينكح ، وإن شفع أن يشفَّع ، وإن قال أن يُسْمَع ، قال : ثم سكت : فمرّ رجل من فقراء المسلمين ، فقال : ما تقولون فى هذا ؟ قالوا : حرىٌّ إن خطب ألا ينكح ، وإن شفع ألاَّ يشفع ، وإن قال ألاَّ يُسْمَع ، فقال رَسول الله (ﷺ) : هذا خيرٌ من مِلْءِ الأرض مثل هذا » (١) .

والرسول الأمين (ﷺ) – كما أخذ بيد الخلق إلى الخالق (عز وجل) فقد صحح معتقداتهم غير السليمة حتى يسلم الاعتقاد ، وتتضح آداب السلوك ، وتستقيم الموازين على القسط .

والشخص الأول : إن كان كافراً ، فأمر الخيرية واضح ، وإن لم يكن كذلك فإنه يكون معروفا للرسول العظيم بعدم الاستقامة على الطريقة – كل الاستقامة ، فقال ما قال ...(٢)

وبهذا البيان جاء تصحيح المعتقد ، وظل قانونًا إلى أن تقوم الساعة.

ومما يعزز ما تقدم – ما جاء إجابة عن استفتاء فى اليتامى « فأنزل الله لهم أن اليتيمة إذا كانت ذات جمال ، ومال ، رغبوا فى نكاحها ، ونسبها

---

(١) ١٩ / ١٦٣ ، ١٦٤ فتح البارى ، ...

(٢) انظر ١٩ / ١٦٤ توجيه الكرمانى – فتح البارى ...

فى إكمال الصداق ، وإذا كانت مرغوبة عنها فى قلة المال ، والجمال تركوها ، وأخذُوا غيرها من النساء ... [1] الحديث » .

ومثْل ذلك ما سجله الرسول العظيم مما عليه عادات الناس ، وطبائعهم « تنكح المرأة لأربع : لمالها ، ولحسبها ، وجمالها ، ولدينها ... » [2] .

ولعل ما تقدم ، وفى المقدمة منه المال فقد كان مناط التفاضل ، والرغبة ...

ومما ينزل إلى ما تقدم بعرق وثيق ما سجله الزمخشرى : « ... روى أن أوس بن الصامت الأنصارى ترك امرأته أم كحة ، وثلاث نبات ، فزوى ابنا عمه : سويد ، وعرفطة ... ميراثة عنهن ، وكان أهل الجاهلية لا يورثون النساء ، والأطفال ... فشكت أم كحة إلى الرسول الأمين ، فقال : ارجعى حتى أنظر ما يحدث ... وأوقف التصرف فى الميراث ، حتى نزلت الآية الكريمة « يوُصِيكُم الله ... » [3] .

وكان التوريث على الآتى : لأم كحة : الثمن ، وللبنات الثلثان ، والباقى للعصبة ... وقد ارادت الزوجة الميراث لبناتها لتربيتهن ، وأنهن لا يزوجن زواجا كريما إلا بمال ... ولقد أمطنا اللثام عن قيمة المال فى المجتمعات ... – فيما تقدم .

وفى قمة المنافع منه :

أن الشعوب كانت تعشق القوة ، وتنشر الغلبة ، وسموّ الذكر ، وحسن الأحدوثة .... والمال يحقق ذلك .

فالقوة تحتاج إلى السلاح ، والسلاح بالمال والغلبة تحتاج إلى المولى ، والحليف ، وسبيل ذلك المال ...

---

(١) ١٩ / ١٦٤ ، ١٦٥ فتح البارى ...
(٢) ١٩ / ١٦٢ فتح البارى ...
(٣) ١/٤٧٦ ، ٤٧٧ الكشاف .

وفرض النفوذ ، والسيطرة ، والغلبة ... كل ذلك وسيلته المال ...

والناس - كل الناس - يحرصون على جمعه ، وعلى عدم التبذير فيه حفاظا على ما تقدم ...

وفى هذا السبيل ينسون ، أو يتناسون ، ويجهلون ، ويتجاهلون جميع القيم ... إذ المال للإنسان فتان ...

وبعث الرسول الخاتم ، بالرسالة الخاتمة ، وبالشريعة التى تصلح لكل زمان ، ومكان ، والتى لا تنسخها أخرى ، ...

وجاء ميزان الله تعالى الحق ، المبرَّأ من الهوى ،والميل ، والذى يحقق الخير للناس جميعا ... وجاء ذلك فى قوله تعالى : « إنَّ أكرمكُم عندَ الله أتقاكُمْ » (١) .

وجاء حديث الرسول العظيم مؤكداً ، وشارحا ، ومفصلا ... « كلكم لأدم ، وآدم من تراب ، لا فضل لعربى على عجمى إلا بالتقوى » .

وهذا الميزان الدقيق العادل ، المحكم هو ميزان الله (عز وجل) الذى يُوزن به الخلق كلهم أجمعون ...

وطبق الرسول العظيم هذا الحكم المحكم على الناس كلهم أجمعين ...

وقد ساق الإمام البخارى فى ترجمته : باب : الحرة تحت العبد .

وذكر حديث السيدة عائشة (رضى الله عنها) ... « قالت : كان فى بَريرة ثلاث سُنَن : عُتِقت فخُيِّرت ... » (٢) .

وقيد ذلك ابن حجر العسقلانى فى « جواز تزويج العبد الحرة ، إن رضيت به » (٣) .

---

(١) من الآية ١٣ من سورة الحجرات .

(٢) ١٩ / ١٦٧ فتح البارى ... وانظر ترجمتها فى ٧ / ٣٩ أسد الغابة .

(٣) ١٩ /١٦٦ فتح البارى ...

والمراد : أن زوج بربرة كان عبداً ، وكانت بُرَيْرَة أمة كذلك ، فلما عتقت خيرت ، فاختارت .

وترجم البخارى للحديث فى موضع آخر ، فقال : باب : خيار الأمة تحت العبد . وساق ما يلى : « عن ابن عباس قال : رأيته عبداً ، يعنى زوج بربرة »(١) .

وجاء فى الشرح : « أن زوج بربرة كان عبداً أسود يسمى مغيثا ، فخيرها النبى ﷺ ، وأمرها أن تعتد »(٢) .

أى : تعتد عدة الحرة .

وهنا نقول :

إن الرسول العظيم قد طبق تطبيقا عمليا ، جَاداً ، وحَاداًّ فى أمر « بربرة » .

– كان أصل زواجهما متحد الصفة فى العبودية .

– وحين عتقها صارت حرة ، ولم ينظر إلى سواده ، وجاء التخيير ، وأُقرتْ عليه . . .

وتلك صفحة ناصعة البياض من صفحات الإسلام : دين المساواة .

وقد زوج الرسول الأمين : زيدين حارثة (رضى الله عنه) من السيدة / زينب بنت جحش . ولم تخالف ما قضى الله ، ورسوله (رضى الله عنها) ؟

وهى : زينب بنت جحش ، بن رباب بن يعمّر ، بن صبرَة ، بن مُرّة(٣) .

وهى من هى نسبًا ، وقدرًا ، وشرفًا ، . . .

---

(١) ٧٨/٢٠ فتح البارى . . . وانظر ترجمته فى ٢٤٣/٥ ، ٢٤٤ أسد الغابة .

(٢) ٧٨/٢٠ فتح البارى . . .

(٣) انظر ١٩٤،٣ ، ١٢٥/٧ أسد الغابة .

وأمها : أميمة بنت عبد المطلب ، عمة الرسول العظيم .

وزيد بن حارثة : بن شراحـل بن كعب (١) .

اختطفه من أمه بُغَاة ، وباعوهُ بعكاظ لعم السيدة خديجة (رضى الله عنها) فأهدته للرسول العظيم ... وهو الصحابى الأوحد الذى ذكُر اسمه فى القرآن الكريم ، وخلد بخلوده « فلما قضى زيدٌ منها وطراً زوجناكها »(٢) .

ويقول جار الله : « والمعنى : فلما لم يبق لزيد فيها حاجة ، وتقاصرت عنها همته ، وطابت عنها نفسه ، وطلقها ، وانقضت عدته « زوجناكها » (٣)

والتزويج من الله (عز وجل) لقطع عاة التبنى ، وما يترتب عليها .

والمراد : أن زيد بن حارثة (رضى الله عنه) رفعه الإسلام ، وارتفع به الرسول العظيم ، وجعل قدره ساميا ، وشرفه بالزواج من العقيلات : ابنة عمته : زينب بنت جحش (رضى الله عنها) .

وهكذا :

فقد اعتدلت الموازين ، وصار الشرف التقوى ، وحلت أخوة الإسلام محل ما عداها من القلائق الأخرى ...

وبعد انتقال الرسول الأمين إلى الرفيق الأعلى (ﷺ) رأينا أصحابه هداة ، يمشون على الأرض ، ولمسنا فيهم قرآنا ، تنفذ أوامره ، وتجتنب نواهيه ، وسنة تراعى أعظم مراعاة ... ورأينا أدب الإسلام ، وقوانينه ، ونواميسه تطبق أدق تطبيق ...

ولما أخذت الفتوحات المباركات طريقها إلى الأقطار ، والأمصار ، ورأينا الصحابة (رضى الله عنهم) قضاة ، وأساتذة ، وقوّاداً ، وأجناداً

---

(١) انظر ٢ / ٢٨١ ، ٢٨٤ أسد الغابة .

(٢) من الآية ٣٧ من سورة الأحزاب .

(٣) ٣/٥٤٣ كشاف .

يتزوجون من الأعجميات فى الأقطار التى ضمتهم ، كما رأيناهم يزوجون بناتهم ممن دخل فى الإسلام ، وارتضوا خلقه ، ودينه ، وأمانته .

ورأينا فى المجتمعات ، وقرآنا فى قواميس اللغة ، ومعجماتها المصطلحات الآتية :

١ – المذَرَّع .

٢ – الهجين .

٣ – المقرف .

وعلينا أن نلقى الأضواء على هذه المصطلحات ، التى ظهرت مع الدولة الإسلامية ، الفتية ، العادلة ، . . .

أوْلاً : المذَرَّع :

كتب النحو ، والأمهات منها تستشهد بقول الفرزدق ، الشاعر التميمى المشهور فى الدولة الأموية ، يقول :

إذَا بَاهلىٌّ تحتَه حَنْظَلَيَّةٌ   له ولدْ منها ، فذَاك ، **المُذَرَّع**

والبيت من شواهد المغنى ٩٣ (٩٤) والعينى ٣ / ٤١٣ ، والتصريح ٢ / ٤٠ ، وهمع الهوامع ١ / ٢٠٧ ، والدرر اللوامع ١ / ١٧٤ ، والأشمونى ٢ / ٢٥٨ ، وديوان الفرزدق ٥١٤ .

وعلينا أن نلم بقواميس اللغة لفهم هذا المصطلح ، ولإدراك الكلمة .

فى معجم مقايس اللغة ، مادة (ذرع) : « . . . والمذرَّع من الرجال : الذى يكون أمه عربية ، وأبوه خسيساً ، غير عربى ، وإنما سمى مذرَّعا بالرقمتين فى ذراع البغل ؛ لأنهما أتتا من قبيل الحمار » .

وفى القاموس المحيط ، مادة (الذراع) : « . . . وكمُعَظَّم . . . من **أمه أشرف مِنْ أبيه** كأنه سمى بالرقمتين فى ذراع البغل ؛ لأنهما أتتاه من ناحية الحمار . . » .

---

(١) انظر ٣ / ٤١٤ . ٤١٥ المقاصد النحوية فى شرح شواهد الألفية . . .

وفى لسان العرب ، مادة (ذرع) : « ... والمذرَّع : الذى أمه عربية ، وأبوه غير عربى ، قال :

إِذَا بَاهِلِىٌّ تحتَه حنظليةٌ   له ولد منها ، فذاك **المذرَّعُ**

وقيل : المذرع من الناس – بفتح الراء ، الذى أمه أشرف من أبيه »(١) .

ومراد الفرزدق التفسير المتقدم ، أى : الذى أمه أشرف من أبيه .

ويقول العينى شارحا استشهاد ابن مالك به ، وابن هشام :

باهلى : نسبة إلى باهلة : قبيلة من قيس عيلان ، ...

وحنظلية : نسبة إلى حنظلة ، وهى أكرم قبيلة فى تميم ، يقال لهم : حنظلة الأكرمون ...

والمذرع : الذى أمه أشرف من أبيه » .

وفى شرحنا للشاهد المتقدم بتحقيقنا لشرح ابن الناظم لألفية والده (رحمهما الله تعالى) .

« والمعنى : إذا تزوج باهلىّ حنظلية ، وقد أنجبت ولداً ، فهو المذرَّع ، لشرف أمه على أبيه » (٢) .

ولى شرحنا للأشمو نى ، وتحقيقنا له :

« ... **والمذرَّع** : الذى أمه أشرف من أبيه ؛ لشرف حنظلة على باهلة » (٣) ونأخذ من **التحقيق اللغوى** المتقدم ما يلى :

(أ) التأدب بأدب الإسلام فى الزواج ، وعدم ظهور النزعات المنحرفة عن طريق الله (عز وجل) .

---

(١) باهلىّ : نسبة إلى أمهم باهلة ، ومنهم عظماء مشهورون ، انظر ٣ / ٣٠٠ العقد الفريد ...

(٢) ص ٣٩٥ شرح ألفية ابن مالك ، لابن الناظم – بتحقيقنا –

(٣) ٢ / ٤٧٩ شرح الأشمونى ، لألفية ابن مالك – بتحقيقنا – .

(ب) الميزان : الإسلام ، والخلق ، والدين . . .

(جـ) زواج الأقل حسبًا ، وشرفا من الأعلى منه كرمًا ، ومنزلة . . .

هذا :

مع أن من أخبار الفرزدق : أنه كان دائم الفخر ببيته من تميم ، وهو القائل :

إنَّ الذى سَمَكَ السماءَ بنَى لنَا بيتًا ، دئمائمُه أغرٌّ ، وأطولُ

وما ثبت أمام هجاء جرير إلا برفعة بيته فى تميم عن بيت جرير فيها فهو ابن عطية الخطفى .

ولم يعارض الزواج ، أو يمنعه ، أو يعيبه ، . . . وإنما وصف النسل الناشىء عنه بما وصفه . . .

ثانيا : الهجين :

وعلينا أن نسير فى التفسير ، والتحقيق ما فعلنا فى **المذرَّع** :

فى معجم مقاييس اللغة – فيما استدرك على الأصل – :

« . . . والهجين : ابن العربى من الأمة » .

وفى القاموس المحيط ، مادة (الهجنة) : « والهجين : اللئيم ، وعربى **ولد من أمة** ، أو من أبوه خير من أمه . . . » .

وفى لسان العرب ، مادة (هجن) : « . . . والهجين : **العربى ، ابن الأمة** ؛ لأنه معيب . . . » .

وأخذا مما تقدم نقول :

الهجنة : ظهرت فى المجتمع الإسلامى ؛ لرحلة العربى إلى البلاد المفتوحة ، والتزوج من الأعجميات ؛ رعاية لآداب الدين ، ودساتيره ، ونواميسه . . .

ولقد ذابت النعرات فى بوتقة الإسلام ، التى صهرت المجتمعات ؛ لينشأ مجتمع التآخى ، والحب ، والتعاون ، والسلام .

ثالثا : المقرف :

في معجم مقاييس اللغة ، مادة (قرف) :

« ... يقولون : إن المقرف : الذى أبوه هجين ، وأمه عربية ، قال الشاعر : (حميدة بنت النعمان بن بشير ، زوج رَوْح بن زنباع) .

فإن نُتِجتْ مهرًا كريمًا فبالحَرَى وإن يكُ إقرافٌ فمن قِبَلِ الفَحْلِ

... » وفى القاموس المحيط ، مادة (القرْف) :

« ... **والمقرف** : كمحسن: من الفرس، وغيره ، ما يدانى الهجنة ، أى : أمه عربية ، لا أبوه ؛ لأن الإقراف من قبل الفحل ، والهجنة من قبل الأم ... » .

وفى لسان العرب ، مادة (قرف) :

« ... **والمقرف** : الذى دانى الهجنة من الفرس ، وغيره : الذى أمه عربية ، وأبوه ليس كذلك ؛ لأن الإقراف إنما هو من قبيل الفحل ، والهجنة من قبيل الأم » **ومما تقدم نقول** :

عندما اعتنق الناس الإسلام دينا ، وعقيدة ، فعلوا موجباته أدبًا ، وسلوكا ، ونشأ مجتمع فاضل ، نسج عن منوال مجتمع المدينة المنورة (على ساكنها أفضل الصلاة،والسلام) وكان التفاضل بالتقوى ، والحسب ، والنسب ، للتدين ، وصالح الأعمال ، والأقوال ...

وقد اختلطوا بالزواج ، وجاء التناسل تبعا لذلك ، وظهر فى المجتمع الإسلامى المذرَّع ، والهَجنة ، والهَجين ، والمقْرِف ، والإقراف ...

وقد وزن الناس بميزان الله (عز وجل) العادل ...

وهذا خير كبير ...

ولقد نشأ عن هذا التزاوج اللَّحن : ممن نشأ يأخذ عن أبيه عربية خالصة ، ومن أمه عجمة ، وممن أخذ عن أمه عربية خالصة ، ومن أبيه عجمة ...

لكن ضُرَّ ما تقدم أقل من نفعه ، بلِ نجم عن ذلك وضع قوانين النمو ، وضوابطه ، وأخذ العلماء من اللغة سماعًا من الفصحاء ، ووضعوا القواعد المقننة ، وجاء تبعا لذلك علم النحو ، والصرف معا ، ثم جاء الفصل بينهما بعد ذلك » (١) .

ومما يعزز ما قدمناه :

ما ذكره الجاحظ عن الأحنف بن قيس : أنه قال : وقد عاش فى أيام الدولة الأموية الأولى .

« ثلاث لا أناةَ فيهن عندى : قيل : وما هن يا أبا بحر ؟ قال :

المبادرة بالعمل الصالح ، وإخراج ميتك ، وأن تنكح الكفء أيِّمك »(٢) .

ونجعل مسك الختام فى الكفاءة ما ترجم نه البخارى بقوله : باب الأكفاء فى الدين ، وقوله : « وهو الذى جعل من الماء بشرا ، فجعله نسبا ، وصهراً . . . » الآية .

« . . . عن عائشة (رضى الله عنها : أن أبا حذيفة بن عتبة بن ربيعة بن عبد شمس ، وكان ممن شهد بدراً مع النبى (ﷺ) تبنى سالمًا ، وأنكحه بنت أخيه : هند ، بنت الوليد بن عتبة بن ربيعة ، وهو مولى لامرأة من الأنصار . . . »(٣) .

وفيما تقدم ، وما سبقه عند الكلام عن الكفاءة ما فيه الإقناع ، والإمتاع . . .

* * *

---

(١) انظر كتابنا « النحو : بيناته ، ومدارسة ، والنحاة : أراؤهم ، ومذاهبهم ، تحت الطبع .

(٢) ٢ / ٢٠٤ البيان ، والتبيين .

(٣) ١٩ / ١٥٨ ، ١٥٩ فتح البارى . . .

ما أَحْدَثَهُ الأمويُّون

تمهيد :

كان لبيت أمية شأن - أى شأن - فى قريش .

وحينما تقاسمت بيوت قريش المكارم ، والأعمال ، كان نصيب أمية نصيبا ، مميَّزًا :

فقد كانوا أصحاب السِّفَارة على القبائل ، والوفادة ، وعقد المعاهدات ...

كما أنهم كانوا أهل غنًى ، وثراء ، وبخاصة بعد عام الفيل ، وهو عام مولد سيد الأولين ، والآخرين ، فلقد أرسل الله (عز وجل) طيرًا أبابيل على جيش أبرهة الأشرم ، الذى أراد بالكعبة المشرفة سُوءًا ...

ومن هذا اليوم عظم شأن قريش - بعامة - وبيت أمية - بخاصة ، وألفت قريش رحلة الشتاء ، والصيف ، **وبذلك** : أطعمهم الله من جوع ، وآمنهم من خوف . وصارت قوافل تجاراتهم تعدو ، وتروح ، ولا يقدر باغ على التعرض لهم ...

كما كانوا يمثلون بيوت المال فى زماننا ، ويقرضون بالربا ، ويتحكمون فى حدائق ، وبساتين الطائف ... وغير ذلك من المزايا ، والمنافع ....

ولما بعث الله (عز وجل) بنيه ، ورسوله ، ومصطفاه ، ورحمته المهداة ، وشرَّفه برسالته .

- وقد كان مولده الشريف سبب هذا الأمن ، والغنى - لم يستجب لدعوته البيت الأموىّ ، الذى بنى موازينه على الظلم ، والبغى ، والتعالى ، وأكل أموال الناس بالباطل ، وامتصاص ثرواتهم بأكثر من سبيل للبغى ، والظلم ...

وإنه لجدير بمن أقام موازينه على الباطل ، أن يهتدى إلى صراط مستقيم، وأن يزن بموازين الدعوة الناشئة،وأن يمحّض الولاء لربّ ، واحدٍ ، وأن يقول له – طائعًا ، مخبتًا – : سمعت ، وأطعت . . .

ولم يقف بيت أمية موقفا سلبيا ، ينظر ما تأتى به الأيام ، وإنما تحالف مع الشيطان ، ووقف من الدعوة ، ومن رسولها ، وممن دخل فى دين الله موقف المعاند ، والمهاجم ، والمعتدى ، يؤمل – أن يطفىء نور الله ، والله متم نوره . . .

وصارت الزعامة الباطلة فى يد أبى جهل ، وافتن فى إلحاق الأذى بالرسول الأمين ، وبأصحابه الصابرين الصامدين . . .

ولم يترك بابًا من أبواب الشر موصداً ، وإنما فُتحت جميع أبواب الإيذاء ، والذى يلم بأخبار أبى جهل ، ومن خلفية أمية ليرى ما تقشعر من هوله الأبدان : إيذاء جَسَدى ، وتعقب لكل اجتماع تعرض فيه أنوار الدعوة ، وذروة الشر ، وسنامه ما كان الإذن بسببه من الله تعالى بالهجرة إلى أرض أخصب ، وقلوب أرحم ، وصدور أرحب . . . ثم الحروب الطائشة ، التى تولى كبْرَها أبو جهل ، وركب رأسه ، وقاده إلى ذلك حتفه ، **كان أمرا مغضبا** أن يدخل فى الإسلام السابقون الأولون ، وأن يصبروا على عنت المشركين ، وإيذائهم ، وأن ينالوا بالسبق ما لم ينله غيرهم ممن أسلم من بعدهم ؛ فالوزن بموازين الله تعالى ، التى هى فى قمة السمو من العدل ، والحكمة . . .

ولما انحسر الشرك ، ودخل الناس فى دين الله أفواجا ، أفواجًا ، ولم يُجْدِ شيئًا كفرُ من كفر ، ولا عنادُ من عاند ، ولا إيذاء من جرى طلقا جموحا فى الإيذاء ، **ونظر الأمويون** فى موقفهم من الدعوة ، بعد قتل زعيمهم : رأس الشرك ، والعناد أبى جهل فى غزوة بدر الكبرى ، ولم يحصلوا على طائل من مسلكهم الشائن ، **أخذ عقلاؤهم** ينظرون فى أمرهم ، فلم يجدوا بدًّا ، ومع الأمويين غيرهم من قريش من الدخول فى

الإسلام ، حفَاظًا على بقية من ماء الوجه ، وإيمانا بأن الله غالب على أمره ، وكان آخر دخولهم فى الإسلام عند فتح مكة المكرمة . . .

وكما أن الإسلام يَجُبّ ما قبله ، فإن الرسول الأمين قال لهم – فى رحمة النبوة ، وعطف الرسالة – « إذهبوا فأنتم الطلقاء » .

ولم يقف **الأمر عند ذلك** : فقد أَمَّن الرسول العظيم من الترويع من دخل دار أبى سفيان ، ومنحهم المال الحلال من غنائم حنين : فقد منح أبا سفيان ، ومعاوية . . . كما فتح من تألف قلبه . . .

من أجل ذلك كله :

رأى رجال أمية أن عنادهم ، وكفرهم فى أول الأمر جعلهم فى المؤخرة من السابقين الأولين . . .

وأصبحوا يوازنون بين حالين :

– ما كانوا عليه في الجاهلية : من عز شامخ ، وغنى سابغ ، وكلمة مسموعة ، ورأى مطاع ، وخدم ، وحشم ، وعبيد . . . وغير ذلك .

– وما صاروا إليه وقد ألزمهم منهج الله (عز وجل) بعبادة رب واحد ، كما أمرهم بالإخاء ، والعدل ، والمساواة ، والتعاون ، وصلة الأرحام ، والبعد عن المظالم ، . . . وغير ذلك ، وذلك : بميزانهم المادّى .

ودخولهم فى الإسلام فرض عليهم قواعده ، وآدابه ، وألوان سلوكه ، واتجاهاته المثلى .

ولكنهم – مع ذلك – صاروا يفكرون فى دأب ، وإصرار ، إلى استعادة أمجادهم التى كانت فى الجاهلية من : الرياسة ، والسياسة ، والوفادة . . .

ولا مانع من أن يتحقق ذلك – بالإصرار الدءوب ، والعمل الدائم ، وبذلك يكونون قد نالوا الحسنيين .

الإسلام : الذى لا تنتكس له راية – **والفوز بالرياسة** ، والمزايا كلها تحت ظلاله .

إعمال الفكر ، والسعى الدءوب إلى تحقيق غاياتهم

أخذ الأمويون يتربَّصون ، ويترقبون ، وينتظرون فرصة يفترصونها ، ويهتبلونها تخرجهم عن تأخرهم ، وتسعى بهم حثيثا إلى الصفوف الأولى فى دولة الإسلام ...

وقد هدى الله (عز وجل) عبده الحِيّ ، السخيّ : عثمان بن عفان إلى الإسلام فى الأولين : السابقين ، واستحق بذلك : أن يزوجه الرسول الأمين من كريمتيه : رقية ، وأم كلثوم ، وأن يكون من المبشرين بالجنة ... وأن يكون ثالث الخلفاء الراشدين ..

ولما ولى الخلافة (رضى الله) وكان من الحياء بمكان رأى الأمويون فى ذلك فرصتهم السانحة ، ليستردُّوا شيئًا مما كانوا عليه ... فولاهم أموراً ، أملا فى نُصحْ الله ، وخليفته ...

وكان فى ذلك الداء العياء للمسلمين ، وكانت الفتنة الكبرى ، والفرصة السانحةً لنفث ابن السوداء سمومه فى الأقطار الإسلامية ، وانتهى الأمر بمقتله مظلوما (رضى الله عنه ؛ وأرضاه) [1] .

وتوالت الأحداث ، وعمل السلاح عمله ، ولم يحسم أمراً ...

وحسم الأمر بإعمال الفكر ، وشحذ القريحة ، وانتهى الأمر بأن يئول أمر الأمة إلى سيدنا معاوية ابن أبى سفيان (رضى الله عنه) .

وبذلك : وصل الأمون إلى الغاية ، والهدف ...

وهم بآفكارهم الثاقبة ، وسياستهم الذكية يعلمون أن الوصول إلى الغاية سهل . ولكن المحافظة على الهدف أمر ليس باليسير .

ففكروا ، **وقدروا** ، وتمخضت أفكارهم عن الأسس التالية :

أولا : الحلم الذى يسع الناس ، وأهل الحُمق جميعا ، وكان معاوية مضرب الأمثال فى ذلك .

---

(١) انظر ترجمته فى ٣ / ٥٨٤ إلى ٥٩٦ أسد الغابة .

ثانيا : أبناء الخلفاء ، والطامحون فى السيادة ، والحكم : أغدقوا عليهم الأموال الطائلة ، التى جعلتهم يَحْيَون حياة الملوك ، دون تكليف بعمل ، والرفه دائما آفة الطموح ، **وبذلك الغنى** ، والترف تحولت مدنية الرسول العظيم إلى ساحات للغناء حتى الصباح . . .

وبذلك : فقد هؤلاء طموحهم ، وتركوا الأمر للأمويين ، يديرون دفة الملك وسياسته .

ثالثا : طائفة الأدباء ، والشعراء ، وهم طائفة مستنيرة فى دولة الإسلام .

هذه الطائفة أغرى الأمويون بعضهم ببعض بسياساتهم الهادفة إلى التمزيق . . .

ومن ذلك قيل : إن جرير بن عطية بن الخطفى أغرِي به الأمويون ثمانين شاعرا ، يهجونه ، فأسكتهم جميعا بهجاءٍ أقّسى ، وذَم أمعن . . .

ولم يثب أمامه إلا شاعران :

أولهما : **الفرزدق** : لأنه كان فى البيت الرفيع من تميم ، ولم يرق إلى ذلك بيت جرير ، مع تأييد من الأمويين .

وثانيهما : **الأخطل التغلبى** ، النصرانى ، لأن الأمويين كانوا يشدون أزره تألفا لقبيله التغلبى . . .

رابعا : أبعد الأمويون عرب الشمال ، عرب مضر ، توهما منهم أنهم يحقدون عليهم للحمة الدم ، والقرابة .

وقربوا بدلا منهم عرب قحطان ، ليتخذوا عندهم يداً ، تُرْعَى ، وذمة يُحَافَظ عليها . . .

وهذا الأمر من الخطورة بمكان . . .

خامسا : أثار الأمويون الفتن ، والحزازات ، بين القبائل : بعضها ببعض وظلت نيران الفتن تخبو ، وتشب ، وتهدأ ، لتثور . . .

وخلاصة ذلك : صراع داخلى ، وبركان دائم الفوران . . .

وحصاده : فقدان الاستقرار فى المجتمع بأثره . . .

سادسا : القوة فى معاملة الشعوب التى لم تكن معهم ، وتصفية حسابات قديمة معها . . .

فإذا كانت العراق مع الإمام على (كرم الله وجهه) :

فإن الأمويين قد وجهوا إليها من أذلها ، وقتل نخوتها ، وأذهب ريحها : لقد فعل زياد بالعراق ما فعل ، وأخبار زياد بالعراق قريبة التناول لمن أرادها [١] كما قتل الحجاج الثقفى ما بقى من نخوة ، وعزة بالعراق . . .

وأخبار الحجاج منشورة ، مشهورة [٢] ، وهذا المسلك يثير الأحقاد على الدولة ، ويذهب بريحها .

سادسا :

معاملة الموالى معاملة جعلتهم مواطنين من الدرجة الثانية :

ويطلق على الموالى : الأعاجم ، والأعجمىّ : غير العربى ، وأطلق عليه ذلك ؛ لأنه لا يبين فى نطقه إبانة العربىّ .

أما الموالى : فجمع مَوْلَى : وللمولى أكثر من معنى ، ولكن المراد بالمولى هنا : مَنْ مُنَّ عليه بالعتق .

فالأمويون يرون : أن البلاد المفتوحة فتحت قسراً ، وعنوة ، وبذلك صار – السكان بالفتح عبيدا ، وقد من العرب الفاتحون عليهم بالعتق ، فصاروا كأنهم موالى ، أى : عتقاء ، والقاعدة المقررة : أن الولاء لمن أعتق . . . [٣] .

---

(١) انظر خطبته البتراء فى ٤ /١٩٧ – ١٩٩ العقد الفريد .

(٢) انظر خطبه فى ٤ /٢٠١ – ٢١٠ العقد الفريد .

وانظر أخبار زياد ، والحجاج فى العقد الفريد ٥ /٢٨٩ – ٣٢٩ العقد الفريد .

(٣) انظر ص ٣٩ محاضرات فى الفقه الإسلامى الدكتور الحسينى .

وهذا التأويل نابع عن حاجة فى نفس يعقوب ؛ ليرتبوا عليه أمرًا ، سنتحدث عنه بإيضاح بعد ذلك .

والحق الذى لا ينكر : أن الدولة الإسلامية بلغت أكبر مداها فى ظل الدولة الأموية . . .

ومن ذلك نقول : إن الأمويين قد جعلوا البلاد المفتوحة ، وسكانها فى مرتبة أدنى من مرتبة العرب . . .

وليت الأمر اقتصر على ذلك ، وإنما تعدَّاه لأمرين هامين :

أولهما : أنهم لا يولون الموالى وظائف الدولة الهامة ؛ لعدم الثقة فيهم ، كما أنهم لا يولون الهجناء أمور الدولة ؛ لأنهم يرون أن العرق قد ينزع بهم إلى خئولتهم من الموالى .

وثانيهما : زنهم لا يزوجون المولى من العربية مهما سمت مكانته ؛ لأنهم لا يرون كفاءة فى ذلك .

والأمور المتقدمة كلها : ظنَّ الأمويون أنها تجعل ملكهم عزيزًا إلى قيام الساعة . . . مع أن كل عنصر منها إنما يحمل معول الهدم قبل أن يكون يد بناء . . .

وعلينا أن نلقى الأضواء على ما أحدثه الأمويون من تفرقة مخالفه لما جاء به الدين ، وما قرره أهل الاجتهاد من هذه الأمة ، وقد سبق ذلك فى الكفاءة . **وفى تقديرنا** :

أن الأمويين ، وليس الحكم حكم تعميم – فلكل قاعدة استثناء . . .

وممن يستثنى من القاعدة: عمر بن عبد العزيز (رضى الله عنه) ومن سار سيرته . . . وقد قال الناس « الناقص،والأشج أعدلا بنى مروان » .

ما كان يصدرون إلا عن هوى مطاع ، وصولا إلى غاية ينشدونها : البقاء فى الحكم ، دون معارض ، أو منافس ، أو معّقب ، . . .

وقد جاءت النتائج مناقضة للمقصود ، إذ لا يقع فى ملك الله تعالى إلا ما يريد . وهو الفعّال لما يريد ، وهو غالب على أمره ، ...

فقد انتقضت عليهم الأمور ، ولم تدم دولتهم أكثر من اثنين ، وتسعين عاماً ، هي فى عمر الزمان ليست بالشيء الكثير .

* * *

مواقف للأمويين تجاه الموالى

١ – انصرف الموالى إلى العلم ، يرفعون به خسيستهم فى نظر المجتمع ، الذى لم يفهم حقَّهم .

ومن ذلك علم النحو : **فقد** أخذوا من نطق فصحاء العرب إلى وضع الضوابط ، والقواعد .

وانظر إلى النظرة إلى عملهم الجاد النافع فيما رواه أبو عبيدة قال :

« مر عبد الله بن الأهتم بقوم من الموالى ، وهم يتذاكرون النحو ، فقال : لئن أصلحتموه إنكم لأول من أفسده »[١] .

يريد : إن اللحن ظهر فيهم ، استجابة للغاتهم الأصيلة ... ، وهو أمر طبعى ، يصلح بمراعاة القواعد .

٢ – « ونظر رجل من الأعراب إلى رجل من الموالى يستنجى بماء كثير ، فقال له : إلى كم تغسلها ويلك ؟ أتريد أن تشرب بها سويقا ؟ »[٢] .

تقبيحا لعمله الحسن ، ولو ذم المبالغة فى الغسل لكان نقده مقبولا .

٣ – كان عيسى بن موسى شديد العصبية بعد أن علم أن فقهاء البصرة ، ومكة ، والمدينة ، وأهل قباء ، واليمن ، وخراسان ، والشام ... من الموالى اشتاط غضبا وانتفخت أوداجه ، وانتصب قاعدا ، وخاف ابن أبى ليلى ، الذى أجابه الشر منه .

وتوقعه : غيظا على الموالى ، الذين كانت لهم الصدارة فى علم الفقه .

فأراد أن يجيبه بما يسكت غضبه ، فذكر له عربيين هما : إبراهيم ، والشعبى .

---

(١) ٤/ ٣٦٥ العقد الفريد .

(٢) ٤/ ٣٦٦ العقد الفريد .

فقال : الله أكبر ، وسكن جأشه » [1] .

٤ – وروى ابن عبد ربه : « أن أعرابيا من بنى العنبر دخل على سوار القاضى فقال : إن أبى مات ، وتركنى ، وأخالى ، وخط خَطين ، ثم قال : وهجينا ، ثم خط خطا ناحية :

فكيف يقسم المال ؟ فقال له سوار : ههنا وارث غيركم ؟ قال : لا .

قال : فالمال بينكم أثلاثا ، قال : ما أحسبك فهمت عنى : إنه تركنى ، وأخى ، وهجينا . فكيف يأخذ الهجين كما آخذ أنا ، وكما يأخذ أخى ؟ قال : أجل .

فغضب الأعرابى ، ثم أقبل على سوار ، فقال : ما علمت والله ، إنك قليل الخالات بالدهناء .

قال سوار : لا يضرنى ذلك عند الله شيئًا » [2] والقصة غنية عن التعليق .

٥ – « كان نافع بن جبير إذا مرت به جنازة قال : من هذا ؟ فإذا قالوا : قرشى ، قال : واقوماه ! وإذا قالوا عربى ، قال : وابلدتاه ! وإذا قالوا مولى : قال : هو مال الله يأخذ ما شاء ، ويدع ما شاء .

وقال : وكانوا يقولون لا يقطع الصلاة إلا ثلاثة : حمار ، أو كلب ، أو مولى » « وكانوا لا يكنونهم بالكنى ، ولا يدعونهم إلا بالأسماء ، والألقاب ، ولا يمشون فى الصف معهم ، ولا يتقدمونهم فى الموكب ، وإن حضروا طعاما قاموا على رءوسهم ، وإن أطعموا المولى لسنه ، وفضله ، وعلمه أجلسوه فى طريق الخبار ؛ لئلا يخفى على الناظر أنه ليس من العرب ، ولا يدعونهم يصلون على الجنائز إذا حضر أحد من العرب » [3] .

---

(١) ٤ / ٣٦٦ ، ٣٦٧ العقد الفريد .

(٢) ٤ / ٣٦٨ العقد الفريد .

(٣) ٤ / ٣٦٣ ، ٣٦٤ العقد الفريد .

ويكتفى بهذا القدر فى هذا الشأن ، والأخبار كثيرة لمن أراد أن يستزيد منها ...

٦ – ونجعل مسك الختام فى ذلك بما رواه الأصمعى :

« قال : زوج خالد بن صفوان عبده من أمته ، فقال له العبد : لو دعوت الناس ، وخطبت ، قال : ادعهم أنت ، فدعاهم العبد ، فلما اجتمعوا تكلم خالد بن صفوان ، فقال :

إن الله أعظم ، وأجل من أن يذكر فى نكاح هذين الكلبين ، وأنا أشهدكم أنى زوجت هذه الزانية من هذا ابن الزانية ! » (١) .

وهنا يعنٌ سؤال ، يطرح نفسه .

هل يبقى مجتمع كهذا طبقي ، يقيم حدوداً قاسية بين العبيد ، والأحرار ، وبين العرب ، والموالى ؟

وإن مجتمعا كهذا : إنما يكون مجتمع الضغائن ، والأحقاد ، ويتربص كل قبيل بالآخر فرص السوء ، والتفكك ، والانهيار .

ولو وزن الأمويون بموازين الله (عز وجل) ، وعملوا بالكتاب ، والسنة ، ونسجوا على منوال المجتمع الأفضل : مجتمع المدينة المنورة (على ساكنها أفضل الصلاة والسلام) وهو النموذج للمجتمعات التى تنشد الفضيلة لبقى ملكهم ما بقى عدلهم ، وتمسكهم بالفضائل .

ولكن طاعة الهوى ، والجرى وراء دوافع النفس الأمارة بالسوء ... مما يقوض البنيان ، ويزيل الدول .

* * *

---

(١) ٤/٢٣٥ العقد الفريد .

آثار سياسة الأمويين على المجتمع الإسلامى

ونسجل – هنا – أبرز الملامح ؛ لأن الاستقصاء يحتاج إلى جهد ، وطول ، ويعنينا – فى المقام الأول تسجيل أبرز الظواهر . . .

وإذ كانت القاعدة العلمية تقول : « كل فعل له رد فعل ، مساوٍ له فى القوة ، ومضاد له فى الاتجاه » .

فإن سياسة الأمويين كانت تقابل بردود أفعال لها حصاد مرٌّ على الدولة الأموية ، التى خلطت عملا صالحا ، وآخر سيئًا ، ولم تسر على المنهج الذى أنزله الله (عز وجل) ووضحه وطبقه سيد الأولين ، والآخرين. فى الأعم الأغلب –

١ – الوصول إلى الحكم بالأسلوب الذى خطط له ، ونفذ سيدنا ، معاوية ، واشترك فى التخطيط ، والتنفيذ داهية العرب ، وأربيها سيدنا : عمرو بن العاص (رضى الله عنهما) وقد ترتب على ذلك ما يلى :

(أ) **ظهور طائفة** الشيعة الإيجابية ، وإن كانت قد ظهرت سلبية قبل ذلك : فى حب سيدنا على (كرم الله وجهه) وآله ، تشيعا لا يزيد عن مجرد الحب ، والرأى فى أحقيته للخلافة ، دون عمل إيجابى . . .

وظهرت الشيعة – بعد ذلك – فرقة إسلامية قوية : لها فلسفتها فى أمور الدين ، والسياسة ، وإدارة الأمور . . .

وتنوعت نزعاتها ، وفرقها ، ونراها ماثلة على المسرح فى أقطار كثيرة. . .

(ب) ظهور الخوارج :

وهم طائفة خرجت على التحكيم ، وكانت فى قمة الشجاعة ، والخوارج – وإن كانوا لم يستطيعوا تقويض بنيان الدولة إلا أنهم

(م-١٥)

أضعفوها : داخليا . وخارجيا ، واستنزفوا مواردها وخيراتها فى تعقبهم ، ومحاولة القضاء عليهم ، أو .. إضعافهم [١] .

(جـ) وضع بذور الشر لنشأة الشعوبية :

وذلك : للتفرقة بين العرب ، والموالى ، والمعاملة التى كان يعامل بها العرب الموالى فى أمور الزواج ، وفى النواحى الاجتماعية .

ولقد عاقب الأمويون مولى تزوج من عربية عقابا قاسيا :

جُلِدَ مائتا جلدة ، وصُودر ماله ، ومُثِّل به بحلق شعره ، ونتف شاربه، ولحيته ، وحاجبيه ، وفى ذلك يقول الشاعر – مفتخرا بما نزل بالمولى من عقاب .

وفى المائتين للمولى نكال وفى نتف الحواجب ، والخدود

والشعوبية :

نشأت رد فعل لتعالى الأمويين ، وجعل المجتمع مجتمعا طبيقيا ...

وكانت النزعة – فى أول الأمر – ترى التسوية بين الأجناس ، بما فى ذلك العرب ، والموالى ، وتغالت النزعة على يد الغلاة ، ففضلت غير العرب على العرب ، واعتدلت النزعة ، وافتخر الشعراء بالعرب ، والفرس ...

ويتمثل ذلك أكبر تمثيل فى شعر أبى نواس ، وبشار ، ومهيار الدَّيلمىّ ...

ويهمنا من ذلك : أن المجتمع كان مجتمع صراع طبقى ، وعِرْقى ، موليا ظهره – فى كثير من الأحيان إلى نواميس الدين ، وقواعد الشريعة السمحاء ...

ونقتطف من تسجيل ابن عبد ربه مما ذكره من قول الشعوبية ، **وهم أهل التسَّوية** :

---

(١) ص ٢١ الدولة الأموية فى الشرق د / جاد محمد رمضان .

– **قالت الشعوبية** : إنا ذهبنا إلى العدل ، والتسوية ، وأن الناس كلهم من طينة واحدة ، وسلالة رجل واحد .

– قالوا يقول الرسول الأمين : « المؤمنون إخوة ، تتكافأ دماؤهم ، ويسعى بذمتهم أدناهم ، وهم يد على من سِواهم » .

وساقوا قول الرسول الأمين ، في حجة الوداع . . . « أيها الناس : إنَّ الله أذهب عنكم نخوة الجاهلية ، وفخرها بالآباء ، كلكم لآدم ، وآدم من تراب ، ليس لعربى فضل على عجمى إلاَّ بالتقوى » .

وذكر ابن عبد ربه احتجاج الشعوبية ، التى فندت المزاعم الأخرى(١) .

على أن بنى أمية كانوا مع الهَوَى حيث يميل ، ومع السياسة حيث تحطُّ رَحْلَها . . .

فالغاية عندهم : استدامة الملك ، والوسائل إلى تحقيقها ، متعددة الطرائق ، لا تصدر عن خط مستقيم ، ولا عن أدب دينى قويم . . .

فهم يضمنون إلى نسبهم من كان له شأن ، أى شأن ، وقدرات خلاَّقة ، تثبت أركان ملكهم . .

ونسُوق قصة ادعاء زياد مختصرة ، فتقول :

– أذن له عمر بن الخطاب (رضى الله عنه) أن يخطب فى الناس ، مبشرا بفتحٍ كان ، وهذا من عدل عمر (رضى الله عنه) ومساواته بين الرعية . . .

– طلب عمر أن ينادى « الصلاة جامعة » وأذن لزياد بالكلام ، وبشرهم بما فتح الله على إخوانهم المسلمين . . . فأحسن زياد ، وجوَّد ، وعند أصل المنبر : على بن أبى طالب وأبى سفيان بن حرب (رضى الله عنهما) .

---

(١) انظر ٣ / ٣٥٤ ، وما بعدها من العقد الفريد .

– قال أبو سفيان لعليّ : أيعجبك ما سمعت من هذا الفتى ؟ قال نعم ، قال : أما إنه ابن عمك ؟ قال : فكيف ذلك ؟ قال : أنا قذفته فى رحم أمه سمية ، قال : فما يمنعك أن تدعيه ؟ قال : أخاف هذا الجالس على المنبر ، يعنى : عمر ، أن يفسد على إهابى . . .

فلما ولى معاوية استلحقه بهذا الحديث ، وأقام له شهوداً عليه . . .

قام زياد خطيبا ، فحمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال « هذا أمرْ لم أشهد أوّله ، ولا علم لى بآخره ، وقد قال أمير المؤمنين ما بلغكم ، وشهد الشهود بما قد سمعتم .

والحمد لله الذى قد رفع منا **ما وضع الناس ، وحفظ مناما ضَيَّعُوا** ، فأما عبيد فإنما هو والد مبرور ، أو ربيب مشكور » ثم جلس . . .

وآلم ذاك عبد الرحمن بن حسان بن ثابت ، فقال :

ألا أبلغ معـــاوية بن حرب فقـــد ضاقت بما يأْتى اليَدَانِ

أتغضبُ أن يقالَ أبوك عَفٌّ وتَرضَى أن يقـــال أبُوك زان ؟

وأشهـــد أن قربَك من زيادٍ كقُرْب الفيل من ولَدِ الأتان (١)

وقال يزيد بن مفرغ : – فى هجاء زياد –

فكرّ ، ففى ذاك إن فكرَّت معتبرٌ هل نلتَ مكرمةً إلا بتأميرِ

عاشتْ سميَّة ما عاشت ، وما علمت أن ابنها من قريْش فى الجماهيرِ

سُبْحَان من ملك عباد بقدرته لا يدفع الناس مَحْتُوم المقادير

وكان زياد يقول : ما هُجيت ببيت قط أشد على من قول يزيد بن مفرغ الحميرى (٢) .

---

(١) ٧/ ١٤٧ العقد الفريد .

(٢) ٥/ ٧/ ١٤٧ العقد الفريد .

وكان يقال له : زياد بن عبيد ، كما يقال : زياد بن سمية ، والمتوزّعُونَ يقولون : زياد ابن أبيه . . .

وأخبار زياد مشهورة ، منشورة [١] .

وعبيد : عبد لابنه الحارث بن كلدة . . .

وسمية : كانت بغيا بالطائف ، صاحبة راية ، يلم بها بغاة المتعة الحرام . . .

وأبو سفيان : كان يلم بالطائف لبساتينهما ، وثمارها ، والتى كانت تباع لبنى أمية .

وولد زياد على فراش عبيد . . . وإلحاق زياد بنسب بنى أمية ، والإشهاد له بإن أباه أبا سفيان كان لأمر سياسىّ – كما قدمنا – ولأن زياداً كان « عاملاً لعلى بن أبى طالب على فارس ، فلما مات على (رضى الله عنه) وبايع الحسن معاوية عام الجماعة ، بقى زياد بفارس ، وقد ملكها ، وضم قلاعها ، فاغتم به معاوية ، وأرسل إلى المغيرة بن شعبة » [٢] .

وقد كان المغيرة مُشِيراً فذًّا لكل من معاوية ، وزياد . . . وتم لمعاوية ما أراد . . .

وقد استُلحِق زيادٌ بنسب أبى سفيان مع أن الأمويين لا يفعلون ذلك وجاء فى العقد . . .

« . . . كانت بنو أمية لا تستخلف بنى الإماء ، وقالوا : لا تصلح لهم العرب » [٣] .

– و« قالوا : سابق عبد الملك بين **سليمان** ، **ومسلمة** ، فسبق سليمان مسلمة ، فقال عبد الملك :

---

(١) انظر ٥ / ٢٨٩ ، وما بعد ذلك من العقد الفريد . وانظر أخبار أبى سفيان ، وسمية فى ٥ / ٢٩٠ العقد الفريد . . .

(٢) ٥ / ٢٩١ ، العقد الفريد .

(٣) ٧ / ١٤٤ العقد الفريد .

ألم أنهكم أن تحملُوا هَجناءكُم على خيلكم يومَ الرِّهانِ،فتدرَكُ؟
وما يستوى المرآنِ:هذا ابن حُجَّرةٍ وهذا ابن أُخرى :ظهُرها متشرِّكُ
وتضعف عضداه ،ويقصر سَوْطُه وتقصرُ رجـــلاه ، فلا يتحركُ
وأدركـــه خالاتُه ، فنزعْنَـــهُ ألاَ إِن عِرْقَ السوءِ،لابدَّ يُدْرِكُ (١)

وقال الأصمعىّ :

« كانت بنو أمية لا تبايع لبنى أمهات الأولاد ، فكان الناس يرون أن ذلك لاستهانة بهم .

ولم يكن كذلك ، ولكن لما كانوا يرون أن زوال ملكهم على يد ابن أم ولد .

فلما ولى الناقص ظن الناس أنه الذى يذهب ملك بنى أمية على يديه ، وكانت أمه بنت يزدجرد بن كسرى ، فلم يلبث إلا سبعة أشهر حتى مات ، ووثب مكانه مروان بن محمد ، وأمه كردية فكانت الرواية عليه .

ولم يكن لعبد الملك ابن أسدّ رأيا ، ولا أذكى عقلا ، ولا أسمح نفسا ، ولا أسخى كفا من مسلمة ، وإنما تركوه لهذا المعنى » (٢) .

والأصمعى بذلك : يضيف سببا آخر لعدم مبايعة ابن أم الولد ...

وأيا ما كان الأمر : فإن موقفهم من الموالى – بعامة – لا يتزعزع ، وإن اختلف التعليل .

* * *

(١) ٧ / ١٤٤ العقد الفريد .
(٢) انظر ٧ / ١٤٥ العقد الفريد .

كلمة أخيرة
عن بنى أميّة

لبنى أمية جوانب ، مضيئة ، مشرقة : أفادت منها الدولة الأموية الفتية ، والعالم أجمع **وأبرز هذه الجوانب ما يلى** :

١ – استطاع سيدنا معاوية – بحلمه ، ودهائه – أن يجمع الناس فى عام الجماعة ، وأن يسكت الأصوات التى يمكن أن تتطلع للخلافة – بصراع دموى – بالسخاء ، والكرم ، والحلم ، والتغاضى ، وأن يتوجه للإصلاحات الداخلية ، وللأعمال الكبرى ، ولسياسة البلاد المفتوحة – بالحلم ، والحكمة – وأن يجعل شهية الفتح تمتد إلى الآفاق البعيدة ، وقد تابع مَنْ بعده المسيرة ، حتى بلغت الدولة الأموية أقصى اتساع لها ، وقد ترك لابنه يزيد ملكا ، ثابت الأركان ، وقد نجح فى الوصول إلى مبايعته – وفيها ما فيها – لكنه جنب بها أمة الإسلام صراعا مريراً ،يضعف الدولة ، ويذهب ريحها .

٢ – **استطاع معاوية أن** يكسب ولاء عرب اليمن ، وأن يكونوا عونا له ، وأن يخلصوا لعونه ، وإن أغضب ذلك المضرية ، فلكل أمر جانبان : منير ، ومظلم ، وحسن ، وقبيح ..

٣ – **معاملة الموالى معاملة** لا تليق كأمم ذات حضارات عريقة ، وسمو ، ورفعة وأهلها أصحاب تطلع إلى معالى الأمور ...

هذه المعاملة كان لها جانب مشرق ، هى أنهم انصرفوا إلى علوم اللسان العربى .

وفى المقدمة : النحو ، والصرف ، واللغة ، والأدب ، وإلى علوم القرآن الكريم ، والحديث الشريف ، والفقه الإسلامى ، ... وغير ذلك من الثقافات : الأصيلة ، والواردة ...

وتحقق بذلك قول الرسول الأمين : « لو كان العلمُ بالثريَّا لنا له رجالٌ من فارس » .

وهذا الأمر : قد جاء رد فعل لما أحدثه الأمويون فى معاملة الموالى .

٤ - **الأمويون** : أهل سياسة : وقد كانوا فى هذا الشأن الجامِعَة الجامِعَة للسياسة فى اسمى مظاهرها ، وأرفع أطوارها . . .

وقد كان معاوية مضرب الأمثال فى هذا الشأن ، وكان وزيره ، ومستشاره : عمرو بن العاص أمة فى كل شىء ، كما وضعوا أيديهم على الرجل المناسب فى المكان ، المناسب .

ومن أمثلة ذلك : زياد ، وابنه ، والحجاج الثقفى : فقد كانوا رجال المواقف ، ولهم ما لهم ، وعليهم ما عليهم . .

٥ - لا تَنْسى الدنيا لهم نشأة العلوم التى تقدمت فى أيامهم ، كما لا يمكن أن يُنْسى ضبط القرآن الكريم ، ونقطه . . . على يدى : أبى الأسود الدؤلى ، والحجاج بن يوسف الثقفى . . .

٦ - ولا ينسى لهم الشعر ، والأدب نتاج قرائح الشعراء ، الذين أغروا بعضهم ببعض ومن حصاد ذلك ما ضمته دواوين شعرائهم ، وما حوته النقائض .

وقديما قيل : « أردتُ عمراً ، وأراد الله خَارِجة » :

وقد أرادوا أمراً ، وقدَّر الله (عز وجل) آخر « ومكروا ، وأبطل الله (جل ، وعز) مكرهم ، وحول ضُرهم إلى نفع اجتماعى ، والله غالب على أمره . . .

وفى اعتقادنا : أن الأمويين - على ما فُطروا عليه من ذكاء ، وما مارسوه من أساليب السياسة لو أنهم عدلوا ، وصدروا عن منهج سماوىّ ، وأخذوا من وِرْدِ الإسلام الصافى لدام لهم الملك ، ولأصبحت الدولة الإسلامية الغنية دولة شامخة البنيان ، واسعة الأرجاء ، عظيمة الغنى ، واستمرت لها القيادة ، والريادة .

وشاهدى على ذلك : أن هذه الدولة الغنية حينما أمسك بزمام

أمورها من أعطى لقب الخليفة الخامس : عمر بن عبد العزيز ، الذى رد المظالم ، ونشر العدل ، وصدر عن تعاليم الدين لم يوجد فى العام الثانى من حكمه العادل من يستوعب أموال بيت المال ، فزوج الشباب ، وفك مَنْ فى الرقاب ، وقضى عن المدينين الديون ، وأعطى فقراء اليهود ، والنصارى ... وبقى مال ... وساد الحب ، وقلت الجرائم ...

ولكن الانحراف مع الهوى ، واتخاذ الهوى هدفًا يُبذل الغالى ، والرخيص فى الوصول إليه ، والتفرقة بين العرب ، والموالى ... هى التى قوضت بنيان الدولة ...

وقد قيل : « ولكل شيء آفة من جنسه حتى الحديد سطا عليه المبرد » .

فالموالى : ليسوا بناقص الذكاء ، ولا متخلفى التخطيط ...

فقد خططوا لزوال الدولة الأموية ، التى جعلتهم مواطنين من الدرجة الثانية ، ولم يريدوها لأنفسهم ؛ لأن المجتمع الإسلامى غير مهيَّأ الذهن لتقبل ذلك ...

وإنما أرادوها للبيت العباسىّ ، وهم فى ذلك أجناد أمينة ، ويكفيهم أن يتنمّوا أرواح الفرج فِمن كانت لهم عليه يد ... وهم يدركون : أن الأيام دول ، وإنها حوَّل ، قُلَّب .

وهكذا انتقلت الخلافة إلى العباسيين ، ولم يتحقق للأمويين ما أرادوا ..

ومن الناحية الأخرى : لم تبرأ ذمة الأمويين من تقديم اليمانية على المضرية ، ولا من آثام إثارة الحزازات بين القبائل المختلفة ، ولا من تأليب الشعراء بعضهم على بعض ، ولا من تقسيم .

المجتمع الإسلامى **إلى مجتمع** السادة ، والموالى ، وما يترتب على ذلك ، ولا من تصفية حساباتهم مع أعداء الأمس ...

وقديما قيل :

إذا لم يكن عونٌ من الله للفتى فأولُ ما يجنى عليه اجتهاده

وحينما اجتهدوا وكلهم الله (عز وجل) لاجتهادهم ، فلم يغن عنهم غناء ...

* * *

ميراث
المجتمعات من الحصاد الأموىّ المُرّ

ترك الأمويون تراثا ضخماً ، خلطوا فيه عملا صالحا ، وآخر سيئًا ، ولهم صفحات مشرقة ، وأخرى قاتمة : فقد اقتبسوا نظم الدولة من الدول التى سبقت دولتهم فى إدارة دفة الملك : فى نظم البريد ، وديوان الخاتم ، واستخدام أهل الخبرة فى إدارة شئون الدواوين ، ... وغير ذلك .

ومن عجب أن النفوس البشرية : تتغافل عن طيبات نظام الحياة ، وتتمسك بما يجر الدمار ، والويلات .

وقد أخذت مجتمعاتنا ما أحدثه الأمويون من التفرقة ، لأوهى الأسباب .

وأدار الناس ظهورهم - فى هذه الناحية - لتراث الإسلام الناصع فى الإخاء ، والمساواة ، والعدل ، والسِّلم الاجتماعىّ ، ... وغير ذلك ...

وحرصت المجتمعات على الأخذ من التراث الأموى فى النواحى الآتية :

أولا : **تصنيف** المجتمع إلى مجتمع السادة ، والعبيد ، ووضع الحواجز الحصنية بين السادة ، والعبيد فى شتى الأمور ...

ورأينا - فى مجتمعاتنا - تفرقة ممقوتة فى ذلك : لأنهم يرون أن دم العبد غير دم الحر ، وأن أسنان العبد تقل عن أسنان الحر ، فى العدد ... وغير ذلك من الباطل ، المخترع ، والادعاء ، الذى لا يعضده سندٌ ، أو سلطان ...

مع أن الرق فى الفقه الإسلامى ، له حدٌّ دقيق ... إذ نرى : أن تعريف الرق : « ذل ركبه الله تعالى على من حارب الإسلام ، وانتصر الإسلام عليه ، وعلى ذريته من بعده » .

وإن كان الإسلام قد أدخل الرق من باب زجرًا لمن تُسوِّل له نفسه محاربة الإسلام ، فإن الإسلام قد فتح للرق أبوابًا ، تشوُّفًا إلى الحرية ، ووصولا إليها : فأم الولد ، والعتق عند الظهار ، القتل الخطأ ، وكفارة الأيمان ، والطاعات ، والمكاتبة . . . وغير ذلك (١) .

ولكن الرق: الذى اشتهرت به المجتمعات له طرائق كثيرة ، كالاختطاف ، والتعدى وغير ذلك . .

وقد وضع الرسول العظيم عقوبة من باع حرا ، فأكل ثمنه . . .

والأمر – فى تقديرنا – باطل ؛ لأنه بنى على باطل . . .

وقد عانت مجتمعاتنا من هذه التفرقة ، الممقوتة ، التى لم تؤد إلى خير ، أى خير .

ثانيا :

تصنيف المجتمع إلى عرب ، وموال :

أمية مع هدفها الأصيل : البقاء فى الحكم ، غير مبالية بما تجر إليه الوسائل ، وإنما المهم النتائج ، والغاية تبرر الوسيلة – فى نظرهم – وتجىء النتائج – فى الأغلب – على الضد .

ولعل أمية – من قبيل تحسين الظن بالمسلمين – أنها كانت ترى أن سياسة الدولة إذا كانت فى يدها ، قادت السفينة إلى شاطىء الأمن ، وبر السلامة ، والسلام . . .

وقد سبق أن ذكرنا : أن أمية قدَّمت اليمانية على المضرية ؛ لحاجة فى نفس يعقوب . . . كما قسمت فى نظرتها المجتمع الإسلامى إلى :

(أ) **عَرَب** : ويستوى فى ذلك أبناء عدنان ، وقحطان . . .

(ب) موالى :

ولهم بالنسبة للموالى فلسفة غريبة ، تقوم على مقدمات غريبة ، وتسلم إلى نتائج عجيبة .

---

(١) انظر كتاب « لا رق فى الإسلام .

فهم يرون : أن البلاد التى فتحت إنما فتحت عنوة ، وبالفتح صار أهلها عبيدا وللإمام أن يتصرف فيهم بأحد أمور : القتل ، العتق ، أخذ الفدية ، . . .

وإذا كان الإمام قد منَّ عليهم بالعفو ، والعتق ، فإن للفاتحين الولاء عليهم ؛ لأن الولاء لمن أعتق . . .

وبناء على هذا القياس - القاسى من وجهة نظرنا - رأوا ما يلى :

١ - أن الموالى لا يتولون أمور الدولة الهامة ، ولا ترتفع درجتهم إلى درجة العرب .

٢ - لا يتزوج المولى العربية ؛ لأنها حرة ، ويكون لها على زوجها لون ولاء ، دله عليها درجة .

٣ - جعل الموالى مواطنين من الدرجة الثانية فى جميع الحقوق . . .

مع أن هؤلاء الموالى يمتـــون بعرق وثيق إلى دول ذات حضارة ، وغنى ، وسيادة ، وقيادة ، ووضعهم فى هذه الدركات النازلة لا تجعل ولاءهم الكامل للدولة ، وإن أخلصوا السماحة الإسلام ، وأنهم ليتربصون الدوائر بالدولة التى وضعتهم فى غير أماكنهم . . . وهذا ما حدث بالفعل عند قيام الدولة العباسية على أنقاض الأموية ، وقد سبق أن ذكرنا طرفًا من معاملة الموالى . . .

وكثير من نابهى هؤلاء المولى ينتسبون للإسلام ؛ لأن الرفعة ، وعلو الشأن ، ورقى المكانة فى الانتساب إليه .

ومن ذلك : نرى من ينتسب للإسلام ، ولا يعتزى ، لآبائه ، حتى يرفعه الإسلام ومن ذلك قول القائل :

أَبى الإسلامُ ، لا أبَ لى سواه
إذا انتسبُوا لقيس ، أو تميم

ويقول مهيار الديلمى - من مُعْتد لِى الشعوبية - :

... ...

قد قبستُ المجدَ منْ خير أبٍ وقبستُ الدينَ من خيـــر نَبى

وضحمتُ الفخرَ من آطرافِهِ سُؤْدُدِ الفرسِ ، ودين العـربِ (١)

وسأل أحد الخلفاء أديبًا قائلا له : ابْنُ من أنت ؟ فقال :

أنا ابن الأدب يا أمير المؤمنين :

فأجابه الخليفة قائلا : نعم الأب انتسبت إليه ...

ولم ينسب نفسه لأبيه ؛ لأن نسبه قد أبطأ به – على عادة القوم – فرفعه أدبه ...

وغير ما تقدم كثير . ولعلَّ الله (عز وجل) أن يوفق من يفرد له كتابا خاصًّا .

وهنا نقول :

إن الميراث الذى ورثته مجتمعاتنا عن الدولة الأموية ، لم تفرط فيه ، ولم تعرضه على موازين الله (عز وجل) لتتبين أنه تراث لا يقام له وزن فى موازين الله (عز وجل) العادلة الحكيمة ...

ولكنها أخذت هذا التراث ، وأضافت إليه ما يماثلة مما يقطع أو اصر العلاقات بين الأفراد ، والجماعات ، والمجتمعات ، وما يؤخر أمتنا عن الصدارة ، ولا يجعلها خير أمة وضعت للناس ، ولا يجعلها وسطا ، ويجعل أهلها خيارًا ، وعدولاً .

ومن ذلك : رأينا ما يلى :

١ – **العبيد** : ولهم الدرجات الدنيا ، ولا حقوق لهم ... الدراكات.

بل رأينا تصنيفهم أنهم يحملون الأحجار ، وأما السادة فهم الذين يحلقون بأفكارهم فى النواحى السامية ، والرفيعة ...

---

(١) انظر القصيدة فى ٢ / ٦ المنتخب من أدب العرب .

وبهذا : طوت هذه المجتمعات الصفحات المشرقة للدين الخاتم ، والشريعة السمحاء ، وللرسول الخاتم (ﷺ) .

ورجعت إلى الفلسفة القديمة البالية ، الخاطئة ، التى تقول : إن الفلاسفة خلقوا من ذهب ، وخلق العبيد من نحاس ، والفلاسفة يفكرون ، والعبيد يعملون ...

مع أن الباحث المنصف : لا يثق فى الطريقة التى جاء التقسيم عليها...

ويغلب على **هذا التصنيف** : الظلم ، والبغى ، والتعدى ، والتسلط على بنى الجنس إرضا لنزعات التسلط ، والسيطرة ، والبغى ...

٢ - العرب :

ركبوا طلقا جموحًا ، فى استثمار تراث الدولة الأموية ، وصنفوا تصنيفات ، ووضعوا أنسابًا ، وحدَّدوا حدوداً ، وكانوا قوَّامين على الوفاء بها وفى مجاوزتها خَرْطُ القَتَاد ، وسفك الدماء ، وقتل الأبرياء ...

ورأيناهم يذهبون مذاهب شتَّى ، لا تصدر عن تديّن ، ولا يقرها دين .

قسموا أنفسهم إلى فئات كثيرة ، **قوامها** ما يلى :

(أ) **العِرْق** : وذهبوا فى ذلك مذاهب شتى ... وهى مبنية على الغالبة ، والتعالى ...

(ب) النسب إلى أب ، أو قبيلة ، وأساس ذلك التفاضل القائم على القُوَّة ، والهوى ...

(جـ) أبناء الأب الواحد ، والجد الواحد ، وضعوا حدوداً ، أساسها الهوى ، وفرض النفوذ ...

(د) **المال** : وهو القاسم المشترك الأعظم فى جميع النزعات الباطلة...

وعند التأمل :

تجد العرب يتعالى بعضهم على بعض ، ويضعون بينهم حدوداً ظالمة، لا يتخطاها إلا جَسُورٌ مجازف ، يتحمل تبعات ما يحدث . . .

أما من كانوا يُعْرَفون قديما بالموالى: فقد ذابوا فى الدولة الإسلامية الكبيرة ، وظهرت على مرّ الأيام ، وكسرّ الليالى قيم أخرى ، وموازين – على حسب اختلاف الأزمنة ، والأمكنة – وأعراف أخرى . . .

ولكنها إنما تصدر عن هوى ، وتسلط ، وقوة مادية ، تفرض سطوتها، وسيطرتها . . .

ووجدنا فى البيت الواحد – زيادة على ما تقدم – تفرقة ممقوتة بحسب سعة الرزق ، وضيقه . . .

وعادت الأمور إلى اتباع هَوًى متحكم ، وقوّة متسلطة . . .

ولا يخلو مجتمع من المجتمعات صغر ، أو كبر إلا وتجد فيه هذه التفرقة البغيضة ، والموازين الظالمة .

* * *

آثار الإعاقة على الأفراد ، والمجتمعات ، والبيئات ، والتنمية

تمهيد :

نتمنى أن يكون كلّ مولود مثاليًّا فى خَلْقه ، وخُلُقه ، حتى يقوم بواجبه طيلة حياته فى بصَر ، وبصيرة ، وقوة ، واقتدار ، وأن يتفاعل مع غيره التفاعل السويّ . ومع مجتمعه ، والمجتمعات الأخرى كذلك ، وأن يستحق خلافة الله (عز وجل) على أرضه ، وأن يسعد بنفسه ، وأن تسعد به الحياة . . .

وعلينا أن نفصل ذلك فضل تفصيل ، فنقول :

أمنيتنا لكل مولود أن يولد من أبوين قويّين بينهما تباعد فى النسب ، ليرث خصائص الأبوين : الأب ، والأم ، وأن يكون أقوى من أصليه، وأصلب من جِذْمَيه ، وإنما يتم ذلك مع التباعد بين الأبوين ، وعلى الأقل ينشأ الناشىء سليما من الإعاقة التى تأتى من قبل تقارب الأبوين .

كما نأمل : أن تُختار الأم على أساس أن يكون الاختيار الأمثل على الدين ، والخلق ، والفضيلة . . .

فإذا ما استقبلت الدنيا ذلك المولود ، واستقبلها ، كان ذلك على سلامة فى الحواس ، وعلى صحة بدنية ، وصحة عقلية ، . . . وهكذا .

وهنا يأتى دور الأبوين فى تكوين الضمير ، مع رعاية الجسم ، وإشباع المولود بالحنان كإشباعه من اللبن ، والطعام . . .

وعلى الأبوين تربية الضمير الحى ، وإكساب المولود حميد العادات ، كإكسابه قوة العضلات ، على أن يصب كل ذلك فى كيان طفل له عادات حميدة ، وسلوك طيب ، واتجاه كريم ، وأن يُرعى من جميع النواحى الذى تجعل منه ناشئًا ، قويَّ الإيمان ، يعرف ربه ، ويتعلق به ؛ لأنه مصدر كل خير ، ومنه كل نفع ، وأساس الضمير هو الذى يجعل منه فى المستقبل صاحب عقيدة سليمة ، يعظمها ، ويذود عنها ، ويبذل كل غال، ورخيص لحمايتها . . .

وهذه الحلقة من سلسلة الحياة تسلم إلى حلقة رياض الأطفال ، والمدرسة . . .

يدخل الناشىء المدرسة ، وقد أحب الحياة ، وأحب الأحباء حب الأب ، والأم ، وتتسع محبته حتى تسع الناس جميعا . .

وفى المدرسة – على مختلف درجاتها ، يتم البناء على ما بنى الأبوان، وتتم الرعاية لما بناه البيت ، وتتسع المدركات تبعا لمراحل السن ، وجرعات التعليم . . .

وفى المدرسة : يتم فى سن معينة ظهور القدرات ، وعلى المدرس الصناع أن يقف على القدرات المنوَّعة ، التى هى عطاء من الله (عز وجل) والتى بها تتوزع الأدوار ويقوم كل ذى قدرة بما يرفع شأن المجتمعات . . .

والمدرس الصناع : لا يقف دوره عند اكتشاف القدرة ، وإنما يعمل على تنميتها فى الاتجاه السوىّ السليم ، الذى يرقى بالحىّ ، والحياة ، والأحياء . . .

ولا ينتهى الأمر عند ذلك : وإنما تكون هذه القدرات الأساس الصُّلب لدخول مرحلة الجامعات ، حتى تتفق القدرات ، ومجالات التعليم الجامعى ، وتنوعه . . .

ومع انتهاء مرحلة التعليم الجامعى ، التى تضع الجامعىّ فى الموضع الذى اختاره له الله (عز وجل) أزلا ، والذى أهلته له قدراته ، والتى ينبغى أن تتحول إلى مهارات ترقى بالجامعىّ ، وتسمو بمجتمعه . . .

هذه المرحلة تؤهل الجامعى – على تفاوت درجته العلمية أن يتفاعل مع المجتمع تفاعلا سويا ؛ يعطى المجتمع الذى سبق بالعطاء :

فقد أعطاه الدين ، واللغة ، والعادات ، والتقاليد ، وألوان السلوك ، والتعليم ، . . .

وجميع المقومات ، التى وضعته الوضع الاجتماعى ، وهيأت له فرص التعامل السوِىّ معه ، هذا المجتمع الذى أعطى ، ومن حقه أن يأخذ ،

ويسترد ، لخير الأجيال ، وتواصل الخبرات ... يعطى مجتمعه علمًا ، وعملاً ، وخبرةً ، وسلوكًا ، وتجددًا ، وأن يكون غيورًا على حرمه ، وحريمه ، حريصًا على عمل خلاَّق ، يضع مجتمعه فى الموضع اللائق به تحت الشمس ...

وقد يكون **الجامعيّ** عالَميّ العطاء ، وهو بذلك يؤدى واجب مجتمعه الصغير ، والكبير ، والأكبر : الإنسانيّ ...

وفى مقدمة ما يهمنا : أن يطول عُمُر هذا الذى سجلنا شيئًا من ملامحه ، التى ينبغى أن تكون ، وينتظر منه أن تكون ، والذى يطلب منه تجاه أسرته الصغيرة : الأب ، والأم ، والإخوة ، والأخوات ، والأقارب ، وأولى الأرحام .

يهمنا - **أن تكون سميعًا** ، مطيعًا ، متقبلا فى صغره - من الأب ، والأم ، والمدرسة ، وهو بذلك يؤدى حق البرّ ، كما أنه يتقبل فى شكر ، ورضا ما يُعْطَى ...

فإذا جاء **أوان رد الجميل** كان ذلك فى صورة برّ للوالدين ، ورعاية لهما ، وفى صورة رعاية طيبة للإخوة ، والأخوات ، وفى صورة صاحب القلب الكبير ، الذى يمتد بره للأقارب ، وأولى الأرحام ، والجيران ، وما هو أوسع من ذلك ، وأسمى فى الأجر منزلة ...

كما يرجى منه إذا دارت الحياة دوراتها ، وضعف الأبوان أن يكون لهما أبا حانيا ، كريما ، راعيا ، فالحياة كذلك ، وقد أشار إلى ذلك رب العزة فى قوله الكريم « إمَّا يبلغنَّ عندَك الكبر أحدُهما ، أو كلاهما » (١) وتشير كلمة **عنْدَك** إلى أسمى سعالى الرحمة ، والحث عليها : فقد كان عندهما صغيراً ، فأحسنا أيمَّا إحسان ، وقد كانا عنده كُبيرين فعليه أن يرد الجميل ، حتى تتواصل الأجيال بالخير ، وتسعد الحياة ...» هـ .

الصورة التى ذكرنا شيئًا عن ملامحها ، تم لها ، **ومنها ما يلى** :

---

(١) من الاية ٢٢ من سورة الإسراء .

تم لها :

- **الأخذ** من الوالدين ، ومن الآباء ، والأجداد - على حسب ما ذكرنا سابقا -

- **الأخذ من الأسرة** : أداب السلوك ، العادات ، والتقاليد ، اللغة ، الاتجاهات ، ...

- **الأخذ من مجتمع المدرسة** : الإبقاء على كل صالح من الأسرة ، والزيادة عليه ، والتدريب النافع ...

- **الأخذ من مجتمع الجامعة** : كل العلوم ، والصفات الجامعة للمكارم ، والأعمال ...

تم منها :

- **ردّ الجميل** للمجتمع الذى أعطى كل ما عنده : من لغة ، وآداب، وعقائد ، وسلوك ، واتجاه ، وأعطى عملا ، وتطويراً ، وتحديثا ، وحُنُوًّا ، ورعاية ، وتقدُّما ...

- **رد الجميل** للأسرة الصغيرة : فهو أب للأب ، والأم ، وأب للإخوة ، والأخوات ، ومعين للأقارب ، وأولى الأرحام ...

- **وقد رد للمجتمع** الكبير ، والأكبر كل قدرات تُوّج بها ، ومهارات ، وصل إليها ، ...

والخلاصة :

فإنه بهذا : حقق ذاته ، وقام بواجباته ، واستحق شرف الخلافة على الأرض ، واستعمرها وأفاد من خيراتها ...

هذه هى الصورة المثلى : لمن يستحق لقَب خليفة فى الأرض ، ولمن أدَّى حق الله عليه ، وحق عمارة الكون ، وتطوير المجتمعات ...

وإنما تتحقق بذلك : إذا تربى المولود التربية السليمة ، واختير الزواج

على الدين ، والإغراب ، وحَسُنَت التربية فى جميع أطوار الحياة ، وبلغ المولود أرذل العمر ، حتى يأخذ ماله ، ويفى بما عليه . . .

أما إذا لم يراع ما تقدم ، ولم يغرب الزوج لم يتحقق من حياة المولود ما يرجى منها ، وحالت دون ذلك الإعاقة من أى : نواحيها . . .

وسنلقى الأضواء على ذلك – إن شاء الله تعالى فيما يأتى .

* * *

الإعاقة
وأنواعها ، وآثارها السيئة على الحياة ، والأحياء

الإعاقة :

وتأتى – فى الأعم ، الأغلب – من قبل زواج الأقارب :

وزواج الأقارب : إنما يأتى – فى الأعم ، الأغلب – من سببين :

أحدهما : أصيل تدور الأسباب الأخرى ، حوله ، وتكون ثانوية بالنسبة له :

وهذا السبب هو : المال :

وذلك : خشية توزيع الثروات على الأصهار ، وانتقالها إلى آخرين . . .

وهذا مخالف لما عليه سياسة المال : من الجمع ، والتفريق ، وقد تقدم ذلك .

وهذا الميزان الذى يخالف ميزان الله العادل وسنته التى لا تحول ، ولا تزول يعود فى نهاية الأمر : إلى التعويق ، وانتقال المال بطرائق أخرى ، فلم يفد الحرص على المال شيئا ، ونفذت إرادة الله تعالى . . .

أنواع الإعاقة المدمِّرة .

وهذا الذى نسوقه ثبت لدينا بالملاحظة الدقيقة ، والمتابعة الواعية ، والترقب والانتظار قرابة نصف قرن من الزمان فى أقوام تربطنا بهم شتى العلاقات ، وفى فئات من الناس ، منوعة المشارب ، والاتجاهات . . .

وهذا الذى وصلنا إليه يشبه التطبيق الجاد على النظرية الواعية ، وعلى فهم مدلولات الآيات الكريمة ، والأحاديث الشريفة فى ذلك ، ووصايا الحكماء ، والنابهين من البشر . . .

أولا :

تأتى الإعاقة فى نمو الأجسام النمو الطبيعى ، حيث يتناسب العمر الزمنى ، مع معدل النمو الجسمى ... وفى محصلة الأمر نجد ضعفاً جسمياً ، وضموراً فى الأعضاء ...

ويترتب على ذلك : عدم القدرة على القيام بواجبات الحياة ، ومطالب المجتمع ...

وفى هذه الحالة : يعود المال ، وتعود العقارات إلى المتربصين الدوائر بهذه الأسر التى لم تزوجهم من بناتها حماية للمال ، فقد ذهب المال إليهم لضعف أولادهم ...

وهم بذلك : لم يُعْطوا خياراً ، وإنما أُخذ منهم قهراً ... ، وقسراً .

ومثل هذا المعوّق لا فائدة منه لنفسه ، ولا خير منه يرجى لمجتمعه ، ولا استمرار لعقبه فى الحياة ...

ونقول لأمثال هؤلاء : ذلكم الجزاء للترفع : ذهاب المال ، واعتلال أجسام الذرارى .

ثانيا :

الإعاقة فى **إصابة الحواسّ** ، وهى المنافذ ، التى نطل بها على الحياة...

والحواس : منافذنا على الحياة ، التى نتفاعل معها أخذاً ، وعطاء...

وصدق الله العظيم : « والله أخرجكُم من بطون أُمهاتكم ، لا تَعْلمُون شيئًا ، وجعل لكم السمع ، والأبْصَار ، والأفئدة ... » [(١)] .

أى : أخرجكم مواليد لا تعرفون شيئًا عن الحياة ، والأحياء ، وما بعد ذلك ، ولكنه تفضل عليكم بالحواس كلها ، وهى المنافذ التى تطلون

---

(١) من الاية ٧٨ من سورة النحل .

منها على أرجاء الحياة ، وجعل لكم العقل المميز ، الذى يسيْطر على هذه المنافذ ، يستقبل ، ويصدر ، وجل الله (عز وجل) ...

والزواج من الأقارب : يحدث فى كثير من الأحيان إعاقة فى الحواس، وذلك لتقابل الضعف فى الحيوان ، والبويضة – كما ذكرنا ...

وإذ كان الصممُ تبعه البكم ؛ لأن الصغير يتكلم محاكيا ما يسمع ، فإذا لم يسمع ، فكيف يحاكى ؟ وتعطُّل حاستين هامتين فى الإنسان يعطل الحياة كلها ...

ويكون المعوق فاقد القدرات ، وهو لا يعطها ...

ومحصلة ذلك : أنه لم يفد نفسه ، ولم يفد غيره مما كان ينتظر منه، وهو سوىّ مُعَافى ... وتسبب الباخلون فى إيجاد فئة كَلَّة على المجتمع ، تؤخر ، ولا نقدم ، تأخذ ، ولا تعطى ...

ومثل ذلك : بقية الحواس ، التى تتعطل من قبل زواج الأقارب ...

وصدق الله العظيم إذ يقول : « وعلَّم آدَمَ الأسْمَاء كلَّها »[1] ؛ لأنه لم يسبق آدم بشر يسمعه ، فيحاكى سمعه ، والعقل حاكم ، مفسر ، مراقب ...

وهذا المعاق الذى حرص مورثه على جمع المال له لا يفيد منه شيئًا ، وإنما ينتقل انتقالا كالذى ذكرناه ، وشاهدناه فى الحياة ، ومع الأحياء ، وهم بذلك : ضيَّعوا ، ولم يجمعوا ... ضيعوا المال ، والولد ، واحتقبوا المعصية ، وتزودوا الزاد المر للآخرة ...

ثالثًا :

الإعاقة فى التخلف العقلى :

مما يأتى ثمرة مرة لزواج الأقارب : التخلف العقلى ...

---

(١) من الآية ٣١ من سورة البقرة .

وإذا كان العقل أعظم منحة من الله (عز وجل) بعد معرفته ، والإيمان به ، يأتى العقل الذى يهدى صاحبه . . .

وقد تكلمنا – فيما مضى – عن التخلف العقلى ، وعن توقف نمو الذكاء فى سن معينة مبكرة : فإذا كان العباقرة يستمر نموّ ذكائهم إلى الثامنة عشرة ، والأسوياء إلى السادسة عشرة فإن ضعاف العقول لا يزيد نموهم العقلى عن ست سنين تقريبا .

ومن ذلك : تكون طبقات ضعاف العقول ، والمأفونين ، والذين يكون عمرهم العقلى أقل من عمرهم الزمنى . . .

وهؤلاء هم فى شريعتنا الغراء السُّفَهَاء : الذين لا يحسنون التصرف فى أموالهم . . .

والسبب فى هذه الإعاقة انما يأتى – فى الأعم الأغلب – فى زواج الأقارب . . .

وهنا نقول :

إن الباخل الشحيح ، الذى لم يزوج ابنته من كفء لها ، واختار لها قريبا حتى يكون المال محفوظا فى أسرته – ظنًا منه –

فإن الحال تتبدل ، ويموت المورث ، ويئول المال إلى الوارث السفيه ، والواجب الحجر عليه حفاظا على المال ، الذى هو عصب الحياة ؛ ليؤدى وظيفته الاجتماعية . . .

وقد يختار الوصىّ ممّن أبعد عن الزواج ضنًّا بالمال .

ويكون المال قد آل إليه التصرف فيه ، وفى صاحبه السفيه . . .

ومخافة التشفى وضع ربّ العزة ، الحكيم فى كل ما يأمرنا به ، وينهانا عنه حدودًا ، وطلب من الوصى ألا يتعداها ، وأن يرعى السفيه ، وأن يرد إليه ماله – إن رشد – وهيهات : أن يصلح العطار ما أفسد الدهر . . .

وخلاصة ذلك :

فإن الجناية جناية حريص شحيح ، ظنا منه أن المقادير تسير وفق شحه وبخله ، ولكن الجزاء جاء فى صورة ضياع للمال ، ولوارثه ، وانتقل إلى عدو يبسط فيه يده ، ويبدده ، إن لم يمثل أمر ربه ، ويعامل السفيه بما ينبغى أن يعامل به وحرم السفيه من القيام بأمر نفسه ولم يفد مجتمعه ، ولم تسعد به الحياة ...

وقد نشرت صحيفة الأهرام فى عددها الصادر فى ٢١ / ٤ / ١٩٩٧ فى صفحة التحقيقات تحت عنوان « من حقهم أيضا ... الحياة » .

ملايين معاق ذهنياً فى مصر : « أصعب ما تبتلى به الأسرة أن ترزق بطفل معاق ذهنيا ، وغير مدرك ، متأخر ذكاؤه تأخرا شديداً ، يعيش داخل أسرة من الأصحاء ... » .

وهنا نقول :

هل ترى السعادة أسرة فيها معوّق ، تعوقه إعاقته عن الحياة العادية فى أسرته ؟ وما مدى الأسى ، الذى يصيب من كان سبباً فى الإعاقة ؟ .

ولو نظرنا إلى هذه الجناية لوجدنا الجانى قد وزن بغير موازين الله (عز وجل) واختار لنفسه،ولم ينظر إلى ما اختاره الله له: شرعاً ، وسلوكا ، وعملا ...

رابعًا :

الإعاقة فى عدم **استقامة الأعضاء** ، وسلامتها ...

وقد تأتى الإعاقة فى الأعضاء ، وتكون غير سليمة ، ولا تؤدى وظائفها كاملة ... وحسبك من شخص يريد أن يعمل ، فلا تطاوعه أعضاؤه ، التى جاءت الإعاقة فيها ...

ومثله : لا يؤدى عملا كاملا ، ويكون كلاً على أسرته ، وعلى مجتمعه الذى يعيش فيه ، ولا يكون مجتمع المنتجين ، وإنما يكون مجتمع المعوّقين ...

والإعاقة فى عضو من الأعضاء تكسب صاحبها انطواء عن الناس ، والمجتمع ؛ لأنه يرى نظراتهم إليه ، ويتضرر منها ، ويتزوى عن الناس بسببها .

وتكون النتيجة :

أن هذا المعوّق : لا يتقن عملا ، ولا يؤدى وظيفته كاملة ، ويصيبه ما يصيبه نتيجة الإعاقة .

وإنها جاءت من ذنب لم يقترفه ، « إثم لمن يكن طرفا فيه ، وتأتى تداعياته على مجتمعه الذى يعيش فيه .

خامسا :

الإعاقة تجلب الأمراض النفسية :

وتفسير ذلك :

أن الطفل السوىّ ، الذى يكون ثمرة زواج متباعد يكون موضع استحسان ، وحب ممَّن يعيش بين ظهرانيهم ، يسمع منهم آيات الثناء ، ويُكال له المديح ، ويشعر بإعجاب مَنْ حوله به . . .

وهذا كله : يربى نفسه تربية لا عُقَد فيها ، ولا أمراض ، وإنما تمتلىء نفسه بالحب ، والحنان ، والعطف ، فينشأ نشأة متوازنة من الناحية النفسية ، والعاطفية ، والوجدانية ، والجسمية . . .

وحصيلة ذلك : ثقة فى النفس ، وفى الغير ، وحب الخير للغير ، والتعاون معهم . . . **وعلى العكس من ذلك المعاق :** فإنه يشعر بنقص - أىّ نقص - عن إخوته إذا لم يكونوا معاقين ، وعن أقرانه ، ولدَاته ، ويكون منطويا فى مدرسته ، ومجتمعه نتيجة نظرته لنفسه ، ونظرة الآخرين له . . .

ومحصلة ذلك :

أن هذا الشخص يكون مريض النفس ، مليئـا بالعقد النفسية

المدمرة ، يحتقر نفسه ، ويكره الآخرين ، وينفر منهم ، ولا يتعاون معهم ، ويكون كمًّا مهملا فى مجتمعه الذى يعيش فيه ، لا يتعاون مع غيره ، ولا يستطيع النهوض بواجباته ، فهو شخص يرى أن الحياة نبذته ، وأنه نبذ الأحياء .

والثمار المرة ، لا يسلم منها مجتمعه الذى يعيش فيه ؛ لأنه يتمنى الشر للغير ، ولو قدر على الإتيان به لغيره لما تردد فى ذلك .

وهذه الأمراض النفسية تسنم إلى ما يلى :

(أ) **الكآبة** : والكآبة مرض آخذ فى الانتشار ، وهو من أمراض مجتمعنا الذى نعيش فيه .

(ب) **اعتلال البدن** : لأن النفس إذا مرضت اعتل الجسم تبعا لها .

والنتيجة : أن مثل ذلك إنما يعيش فى زوايا النسيان ، وهو كلٌّ على مجتمعه الذى يعيش فيه ، وإنَّ ما وصل إليه ليس له دخل فى أسبابه ، وإنما عليه الاستجابة لعدم مقاومته .. والأمراض العضوية تأتى - فى مثل ذلك - استجابة لأمراض النفس ...

سادسا :

الإعاقة قد تكون سببا من أسباب العقم :

ولقد قرأنا فى كتاب الكون المفتوح ، الذى أمرنا أن نقرأه ، وذلك بقول ربنا (عز وجل) فى أول ما نزل « اقْرَأْ باسم ربِّك ، الذى خَلَق ... الآيات »[(١)] .

وليس **المراد بالقراءة حل** رمز مكتوب إلى كلام منطوق - كما يعرّفُونه .

وإنما القراءة - هنا - على المعنى الأوسع للقراءة فى الكون الواسع ، وما فيه من عجائب ، وغرائب ، وما ينبغى علينا أن نفعله من النظر ، والتفكر ، والتدبر ...

---

(١) الآيات ١، ٢، ٣، ٤ من سورة العلق ...

رأينا كثيراً من الأسر : يحرص الكبراء على بقاء الثروة كاملة ، لا تفتت بميراث ابنته ، يذهب نصيبها إلى زوج لها من أسرة أخرى ...

فيجبرون أبناءهم على زواج بنات الأعمام ، وينتج عن ذلك العقم...

وعند موت هؤلاء ، وموت من كانت إعاقته العقم ينتقل المال كله ، أو معظمه ، ... إلى من حجبوهم عن الزواج من بناتهم ...

ولا يدرى هؤلاء أنهم كانوا سبباً من أسباب انتحار الأسرة بالعقم ، وزوال الأسرة ، والمال ... ، وقد أرادوا عَمْرًا ، وأَرَادَ الله خَارِجَة .

سابعا :

الإعاقة فى ظهور الأمراض الوراثية ، والموت المبكر .

وقد قرأنا فى كتاب الكون المفتوح ، وتتبعنا أخبار أسر غنية : جمعت ، وسادت ، وقادت ...

وكان همها الحفاظ على المال ، وخافوا نقصه بميراث البنات – إذ أعطين – وانتقل الميراث إلى أسر أخرى ...

فارتكبوا حماقة قصر الزواج على أبناء ، وبنات الأسرة فقط ...

وأخذ الزمن يدور دورته فظهرت الأمراض الوراثية ، وفى مقدمتها أمراض القلب ، والشلل النصفى ، وظهرت هذه الأمراض مبكرة فى الجميع ، وفى مواعيد متقاربة ...

وكانت محصلة ذلك :

١ – موت الكبار العظماء فى سن مبكرة ...

٢ – ترك النساء أيامى ...

٣ – من لم يصبه العقم ترك ذرية كغُثَاء السيل ، لا هى فى التعليم ، ولا فى العمل ، ولا فى المجتمع ، وليسُوا فى العير ، ولا النَّفير ...

٤ – سطا على الثروة أقوياء ظلُّوا محرومين منها طيلة حرص الأقوياء على إبعادهم عنها ...

ولم يجد الضعفاء سوى هؤلاء يقومون على أمورهم ، والويل للضعفاء من الأقوياء ... **كما رأينا فى الأسرة الواحدة :**

من تزوج غريبة أنجب نجباء ، وطالت حياتهم لأرذل العمر ، ومن حرصوا على زواج القريبات وماتت ذزرايهم فى سن مبكرة ...

وكنت إذا نظرت بعين باصرة ، وببصيرة نفاذة وجدت أبناء الغريبات لا أتراب لهم ، ولا أنداد فى السن على الأرض ، وإنما وارهم التراب ...

ثامنا :

القصور فى تحصيل العلم ، وفى نيل درجاته ...

وذلك : لأن العقل السليم فى الجسم السليم ، والجسم لم يسلم لأمراض الوراثة ، فلم يكتمل العقل ، ولم يقو الجسم على السهر ، والعمل المضنى فى تحصيل العلم ، وإجراز قصب السبق فيه .

تاسعا : الإعاقة تقتل الطموح :

وذلك : أن الطموح يأتى من :

١ - شخص يشعر بذاته ، ويعلم مَدَى قدراته ، ومواهبه ، ويريد : أن يضع نفسه فى موضع ، مَرْمُوق : يسعد به ، ويسعد به من حوله ..

٢ - من شخص يشعر أن أسرته أعطته ، ولابد من عمل خلاق ، مثمر دءوب ، يضع أسرته فى مقدمة مثيلاتها من الأسر الأخرى .

٣ - من شخص يريد أن يرد الجميل لمجتمعه ، وأن يجعله فى مكانه اللائق تحت الشمس ، وعلى الكوكب الأرضى ...

٤ - من شخص يريد أن يعمل عملا يخلد ذكره ، ويجعل له لسان صدق فى الآخرين ؛ ويجعله بيز الأحياء مذكورا ، وإن كان فى عداد من ماتوا ...

والطامح من يشعر بكل ذلك ، ويأخذ فى :

١ - التخطيط السليم ، النابع من نفسه الكبيرة ، والذى يتفق مع ما شرع الله ، ورسوله ...

٢ – العمل الدءوب ، الذى يحقق الأمل ، ويوصل إلى الغاية المنشودة ...

٣ – وقيل كل ذلك : اســتعانة بالله تعالى ، وثقة فيه ، وتوكل عليه ، يأخذ من الفشل النجاح ، ومن الخسارة المكسب ، ومن الإخفاق التفوق... وهكذا ...

وأنّى لسليل الأقارب بهــذه النفس الكبيرة ، والهمة العالية ، الوثابة ، وفى نفس الوقت كانت جناية الآباء عليه لا تقتصر على الإعاقة ، وإنما تمتد إلى أن يكون عاطلاً بالوراثة ، فقد ترك له الآباء ما يغنيه عن التفكير ، وما يذهب عنه مئونة العمل ...

والمحصلة لذلك كله تكون – فى الأعم الأغلب – غير ما ذكرنا .

– فى قرناء السوء ، الذين يتعاونون مع الشيطان لفتح أبواب المتعة الحرام كلها ، والتى تذهب بالمال ، والصحة ، وتستدل الستار على البقية الباقية من مفاخر ...

ـ ضياع العمر فى أعمال تضر العاطل بالوراثة ، ومجتمعه .

عاشراً :

ما يصيب المجتمع من الإعاقة ...

لا يرقى مجتمع إلا بسواعد أبنائه ، الأقوياء البررة ...

أما أهل الإعاقة : فهم عوامل هدم ، ومعاول إتلاف ...

والمجتمع الذى ينتظر رد الجميل ممَّن تعهده ، ورباه » أن يرد له الجميل فى أعمال ترقى بالمجتمع ، وتسعد الأقران ، وليس فى وسع المعوق أن يفعل شيئًا ، ذا أثر نافع وإذا عرفنا أبعاد الإعاقة ، وآفاتها على الأفراد ، والأسر ، والمجتمعات ، ...

فإننا نرى الذين تمسكوا بالأعراف البالية ، ولم يتأدبوا بآداب الدين

ووصاياه ، وأصروا – لسبب ، أو لآخر – على زواج بناتهم من أقرب قراباتهم ، وركنوا إلى هذا التخلف جنوا ثماره المرة .

وإنهم في ذلك إذا كانوا ينشدون جمع المال ، وحبسه فإن أمرهم آل إلى بعثرته وضياعه ، وذهبت ريحهم ، وأصبحوا أثرا بعد عين .

ومما يزيد النفس حسرة ، وألما ، وأسى : أننا نرى من نال قدراً من التعليم هيأته له قدراته فإنه يكون أشد حرصا على الموروثات البالية ، ويحول ما وصل إليه من علم إلى حجاج باطل ، وبرهان فاسد ...

أما الذين : وزنوا بموازين الله (عز وجل) ولم يتعلقوا بأعراف ، هي أوهى من بيت العنكبوت ، وأسلموا الوجه لله تعالى ، وقالوا : سمعنا ، وأطعنا رأينا الخير ينحاز إلى جانبهم ، والنجابة تحالف أولادهم ، والوظائف المرموقة تكون لهم ، ويأتى المال تبعا لذلك ...

وبشكر الله (عز وجل تستمر النعم ، وتزداد ، وبالتقوى يأتى كل خير ... وصدق الله العظيم القائل : « وتلكَ الأيامُ نُداولُهَا بَيْنَ النَّاسِ »(١) .

« سُنةَ الله فى الذينَ خَلَوْا من قبلُ ، ولنْ تجد لسنةِ الله تَبديلاً »(٢).

ولمثل هذا : فليعمل العاملون ، وليتنافس المتنافسون ...

* * *

(١) من الآية ١٤٠ من سورة آل عمران .

(٢) من الآية ٦٢ من سورة الأحزاب .

التنمية

وعلينا بعد عرض ما تقدم أن نخص التنمية بكلمة موجزة ، فنقول :

(أ) التنمية :

فى معجم مقاييس اللغة ، مادة (نمى) :

النون ، والميم ، والحرف المعتل : أصل واحدة ، يدل على ارتفاع ، وزيادة ...

ونمىَّ المال يُنْمِى : زاد ... » .

والتسمية بالمصدر ، يقال : نمىَّ الشىء تنمية : زاد فيه ، وكثرة .

والتنمية متعددة الجوانب :

وتفصيل ذلك – فى إيجاز – ما يلى :

أوجِدَ الإنسانُ على أرض ، حافلة بكل خير :

١ – **الماء الملح** ، ومن المال كل شىء حى فى مستودعات كبيرة تمثل ثلاثة أخماس اليابسة تقريباً ، وفى الماء كل شىء ...

والماء الملح يمثل $\frac{١}{٢}$ ٩٧٪ فى المائة ...

٢ – **الأنهار** : وهى مستودعات الماء العذب ، والبحيرات ، وينابيع الأرض ...

وكل ذلك يمثل $\frac{١}{٢}$ ٢ ٪ فى المائة من الماء ...

وهناك دورة بين الماء العذب ، ومصدره الملح ، وقد سخر الله (عز وجل) لذلك الشمس تضرب صفحات الماء ، ويرتفع البخار ، ويتكثف فى أجواء السماء ، ويكون ركاما ، يصيب الله به من يشاء ، ويصرفه عمَّن يشاء ...

يأخذ الزرع ، والشجر ، والناس ، والحيوان ما يكفيهم من الماء العذب ، ثم يعود الباقى لمصدره الأول : البحار ، والمحيطات ، حيث يتم تعقيمه ... وهكذا تكون دورة الماء حتى يرث الله الأرض ، وما عليها ، ومن عليها ...

٣ - **البحار ، والأنهار** : يعيش فيها وتحتها حوالى ٩٨ ٪ فى المائة من المخلوقات رزقا للعباد ، وكذلك ما فى البحار من جواهر ، ومعادن نفيسة ، ولؤلؤ . ومرجان ...

٤ - **الرياح** : المسخرة بقدرة الله تعالى فى أوقات محدودة ، لا تتجاوزها ، وهى لواقح ، وتلطف الأجواء ، ...

٥ - **الأرض** ، وهى مسخرة طائعة ، تنبت من كل زوجٍ بهيج رزقا للعباد ، وقد قدر الله (عز وجل) أقوات العباد عليها : شِبَعًا ، ورَفَهًا ، وغير ذلك ...

٦ - **الحب ، والنَّوَى** ، الذى يغلقه الله (عز وجل) بقدرته ، وفى ذلك رزق العباد ، وخيرهم ...

٦ - **الأنعام** : وما تجود به من لبن ، ولحم ، وصوف ، ووبر ... وغير ذلك ...

٧ - **الشمس** : وقد جعل الله (عز وجل) فيها : الحرارة ، والدفء، والنور ، وسر الحياة للنبات ، والشجر ، وكل حى ، ...

٨ - **الجبال** : وقد جعلها الله (عز وجل) خزائن للمعادن ، والنفط، والركاز ... وغير ذلك ...

وكل ما تقدم مما ذكرنا : ومما لم تذكر ، لقياس على ما تذكر ...

عند الله (عز وجل) خزائنه ، وينزله بقدر معلوم ، فى وقت معلوم وقته الله (عز وجل) أزلا ، وشرح صدور عباده العلماء للوصول إليه ، والإفادة منه .

وعند الإيجاز نقول :

(أ) البحار ، وما حوت .

(ب) اليابسة ، وما ضمت . . .

(جـ) والجوّ ، وما امتاز به . . .

جميع ما تقدم مجالات التنمية ، وميادين العمل ، والتفوق . . .

والمجتمع **الراقى** الأمثل هو الذى :

– يستثمر كل قطرة من ماء .

– ويستثمر كل ذرة من تراب ، ورمل . . .

– ويستثمر كل ذرة من هواء . . .

ويحول ما يستطيع أن يحوله من ذلك إلى تنمية مستنيرة ، وتنمية بناءة ولقد أشار إلي ذلك رب العزة فى قوله الكريم : « هو الذى خلَقَ لكُم ما فى الأرْض جميعًا » [1] .

فجميع ما تقدم مخلوق لنا ، وقد أمرنا بالعمل ، والتعمير فى قوله تعالى :

« هو أنشأكم من الأرض ، واستعمَركُم فيهَا » [2] أى : أوجب عليكم عمارتها ، والإفادة من جميع عناصرها ، المخلوقة لنا . . .

وجميع ما تقدم إنما يأتى بعمل ، والعمل إنما يتأتى من البشر مباشرة، وإما مما سخره الله (عز وجل) للبشر ، لحمل العبء ، وصعوبة العمل . . .

وجعل الله عز وجل الجزاء الأخروى مترتبا على العمل الدنيوى . . .

* * *

---

(١) من الآية ٢٩ من سورة البقرة .

(٢) من الآية ٦١ من سورة هود .

مجالات العمل المنتج وصولا إلى التنمية

أولا : الرعى :

والمرْعَى : الحرفة الأولى للإنسان فى حياته الأولى .

وعمل الإنسان المحافظة على ما شبته ، وأنعامه ، وارتياد أطيب العشب ، وأحلى الماء ، وإن رغائبه ، وما تقوم عيه حياته : إنما يكون فى ألبانها ، ولحومها ، وأصوافها ، وأوبارها ... ويتخذ له من ذلك أثاثا ، ومتاعا إلى حين .

والتنمية - هنا - واضحة المعالم سهلة التكاليف ...

ثانيا : الزراعة :

وتكون عند مرحلة الاستقرار النسبى ، وحول شواطىء الأنهار ...

والزراعة تعطى دون حدود .

والتنمية : تكون أفقية بالاستصلاح ، والاستزراع ...

والتنمية الرأسية : تكون بالعناية من جميع النواحى ، لزيادة الغلات ، والحاصلات ..

كما تقوم أنواع من الصناعة فى مراحل متقدمة ، يكون أساسها الزراعة ، وفى ذلك الخير الوفير ...

ثالثا : الصناعة :

وهى متعددة الجوانب ، تقوم على ما فوق الأرض ، وعلى المخزون فى باطنها ، والصناعة : هى المجال الحقيقى للثروة ، وللسيادة ، والقيادة ، والنماء ، ...

والتنمية فى الصناعة :

لا تقيدها قيود ، ولا تحدها حدود ...

إذ كلما أتقن الإنسان صناعة فتح الله تعالى شهيته لأخرى ، ذات نفع ، وفائدة ، وقيمة . . .

ولن يتوقف ذلك مادام هناك فكر يفكر ، وقلب يعى ، ومواد أولية فى دنيا الله (عز وجل) . . .

وهذا ميدان فسيح :فى التنافس فيه كل سعادة ، وغنى ، ورفعة . . .

التنمية البشرية :

وهى أرقى أنواع التنمية ، وأجلها قيمة ، وأعظمها أثرا . . .

إذ أن كل تنمية إنما هى بالإنسان ، ولخير الإنسان . . .

وسنفرد للتنمية البشرية كلمة موجزة لما لها من كبير الأثر فى الإفادة مما خلق لنا الله (عز وجل) مع بلوغ الغاية ، وسهولة المئونة . . .

* * *

قمة التنمية

التنمية البشرية

جميع ما خلق الله (عز وجل) فى الكون إنما تفضل به على الإنسان...

ولئن رأينا فى الظاهر – أن الحيوان يشارك الإنسان فى الإفادة مما خلق الله (عز وجل) فإنما مردّ ذلك ، وعائده فى النهاية للإنسان ...

فالزرع – مثلا – ذو حب ، وريحان ، وعصف : تبن ...

فإن الريحان ، وصافى الدقيق ، وخالصة للإنسان ، والنخالة ، والتبن للحيوان ، وعائد **ذلك** : من لبن ، ولحم ، وصوف ، ووبر ... وغير ذلك للإنسان ...

وجميع ما فى الكون للإنسان ، وهو مسخر ، مذلل لنفع الإنسان .

وهنا نقول :

ميادين التنمية كثيرة ، والمنافع عديدة ، والنعم موفورة « وإنْ تعدُّوا نعمةَ الله لا تحصوها » [١] .

ولكن هذه النعم فى أماكنها ، لابد لها من عمل ، لاستخراجها ، وتنميتها ، وطرق الإفادة منها ...

وعلى مقدار ما يكون العمل تكون الثمار ، والعائد ، وعلى مقدار ما يكون الغراس تكون الثمار ، ويأتى الجَنّى ، والأكل ...

ومن ذلك نقول :

ما يُنَمىَّ أوجده الله (عز وجل) بقدرته ، وخلقه من عدم ، وتفضل به على عباده ... ولكن هذه النعم لابد لها ممَّن يُنَمِّى ...

---

(١) من الآية ١٨ من سورة النحل ...

والذى ينَمِّى هو الإنسان : بما ركب الله (عز وجل) فيه من المدركات ، والملكات ، وبما أمده من القدرات ، والمهارات ...

وهنا نصل إلى :

مادة قابلة للتنمية ...

وإنما ينميها بشر ، ذو خصائص معينة ...

والعنصر الإول : موجود ، وهو من صنع الله لعباده ...

والعنصر الثانى : الذى يستطيع أن يحول هذه العناصر إلى .

١ - **مطعوم** : يسمن ، ويغنى من جوع ...

٢ - **مشروب** : سائغ هنيىء ...

٣ - **ملبوس** : يقى الحر ، والبرد ، والبأس ، ويكون زينة ، وجمالا ...

٤ - **مسكون** : ولا حدود للتجويد فيه ، والارتقاء به ...

وجميع ما تقدم إنما يأتى بعمل من الإنسان ...

وكلما كان العمل متقنا ، مجوداً ، مبنيا على أسس علمية جاءت الجودة ، والسلامة فى التنمية ...

وعلى ذلك :

فللتنمية جناحان :

ما خلق الله (عز وجل) فى كونه لعباده ، وما هداهم ، لاستخدامه، وللإفادة منه ... والجناح الثانى : الإنسان ...

وقد ربط الله (عز وجل) عمل الإنسان بالنعيم الدنيوى : من عائد العمل ، وبالنعيم الأخروى ، والله (عز وجل) لا يضيع أجر من أحسن عملا ...

---

(١) انظر ما يتعلق بالتعليم .

وإذا كان الإنسان العنصر الهام فى التنمية ، فإن واجب الأجيال أن تعده الإعداد الكامل ، الذى يجعله جناح التنمية القوى . . .

وعلى الأجيال أن تعنى بالناشىء فى النواحى الآتية .

(أ) النواحى النفسية ، حتى ينشأ مبرءاً من العقد النفسية المدمرة .

(ب) النواحى : العاطفية ، والوجدانية ، والإشباع من الرعاية ، والعطف ، والحنو . . .

(جـ) النواحى الجسمية ، وتنمية الحواس تنمية متكاملة ، والعناية بالرياضة ، لبناء الجسم ، وامتصاص الجهد ، والسموّ بالأخلاق . . .

(د) التربية الدينية : إذ الدين عصمة الأمر ، وموجه للتى هى أقوم .

(هـ) تربية الضمير : تربية سليمة ، لتكوين الاعتقاد النافع ، والاتجاه إلى السلوك السوى . . .

(و) تكوين الاتجاهات السليمة ، التى توصل إلى نتائج سليمة . . .

والخلاصة :

فإن العناية كل العناية إنما توجه لتربية الإنسان فى جميع النواحى ، حتى يستطيع التفاعل مع عنصر التنمية الآخر ؛ لخيره ، وخير الناس أجمعين . . .

وفى كتابنا « التبيان فى تفسير قول الرحمن « ووضع الميزان » فيما يتعلق بالتعليم والتدريب وضوح ، وبيان لهذه الأمور . . .

وعرض ذلك – فى إيجاز – فى النواحى الآتية :

– تستقبل المدرسة الناشىء ، والناشئة فى سن معينة ، تبنى على أساس المنزل – إن كان سليما – وتزيد عليه ، وتعدل فيه . . .

– التعليم كهرم قائم : أساسه التعليم الأساسى ، وهو حق للجميع ، دون استثناء .

– فى نهاية مرحلة التعليم الأساسى : تظهر القدرات التى وهبها الملك الوهّاب ، وعلى المدرس اليابه الصناع أن يكتشفها ، وأن ينميها فى الاتجاه السليم . . .

– تأتى مرحلة التعليم الثانوى مبنية على أساس القدرات التى ظهرت فى نهاية مرحلة التعليم الأساسى .

وهى قدرات وزعت بحكمه الحكيم للتنمية ، وعمارة الكون : فالتعليم الزراعى ، والصناعى . والتجارى يوجه إلى كل نوع منه على حسب القدرات المكتشفة . . .

– أصحاب المواهب الخلاقة ، والمدركات الرفيعة ، والاستعدادات العالية يوجهون إلى الجامعة على حسب الميول ، والقدرات ، والمهارات ، والملكات . . .

– يختار من هؤلاء أصحاب القدرات الفائقة للبحث ، ومتابعة الدرس . . .

ويكون من هؤلاء : من يدرسون فى الجامعات ، ومن يجعلون من المعامل محاريب للبحث ، ومتابعة الدراسة ، والاكتشاف . . .

مع ملاحظة :

أن الذين درسوا الدراسة الفنية يدربون تدريبا نافعا ، ومخططا لنموهم المهنى ، وعند نهاية التدريب يوزعون على الأعمال ، وعلى أسواق العمل فى الدول الشقيقة ، والصديقة ، لأنهم عمالة فائقة ، مدربة . . .

أما من نالوا درجات البكالوريوس ، والليسانس ، فإن إدارة الأعمال ، والمكاتب لا تضيق بهم . . .

والفئة الفائقة : التى قصرت على البحث ، والدرس فإن عليها أن تطور جميع نواحى التنمية فى التخصصات المنوعة ، ولا يكون أبحاثهم حبيسة الأدراج ، وإنما توظف لخير الحياة ، وتقدم التنمية فى كل المجالات.

وتحقق شعار « العلم للحياة » فإذا ما تم ذلك تبعه شعار « العلم للعلم » .

وذلك : حينما ترتقى الأمه ، ويزداد الغنى ، وتتفتح آفاق الخير . .

* * *

الإعاقة

تقف حائلا معوقا لبلوغ التنمية البشرية غاياتها المرموقة

تتم التنمية الحقة ، وتحلق بجناحيها : ما خلق الله (عز وجل) لنا في كونه ، مع عملنا المستنير ، الجاد ، الدءوب . . . الذى يقوم على أحدث الأساليب العلمية ، التى توفر الجهد ، والوقت ، وتجلب الغنى الوفير ، والخير الكثير رزقا للعباد .

وإنما يتأتى ذلك : إذا كان الجناح التانى ، وهو الجناح المحورىّ للتنمية ، سليما ، قويا .

مستنيرا ، ينفتح على غيره ، ويتفاعل مع مجتمعه الإنسانى تفاعلا خلاقا : أخذا ، وعطاء ، وتعلُّمًا ، وتعليما . . .

وتنمية العنصر البشرى إنما تقوم على التربية ، والتعليم ، والتصنيف الذى أشرنا إليه . . .

وبذلك : يكون أفراد المجتمع بجناحيه : الذكر ، والأنثى ، كل على حسب قدراته ، ومهاراته ، حتى يصل المجتمع إلى مجتمع الإنتاج ، والكفاية ، ثم إلى مجتمع الشبع ، والوفرة ، ثم إلى مجتمع الثروة الطائلة، ومد الغير بالخير من أمم شقيقة ، وصديقة . . .

والغنى يولد الغنى ، والنجاح يفتح الشهية لنجاح أسمى ، وأعظم، والغنى مسموح الكلمة ، مهيب الجانب ، والمجتمع المنتج الغنى يفرض احترامه بين المجتمعات الراقية . . .

إذا قرنا ذلك : والحقيقة أعظم ، وأبعد أثرا ، فإننا نطرح الأسئلة الآتية :

- أنى لمعاق ذهنيا ، أن يكون عضوا نافعا فى أسرة الإنتاج ؟
- وأنى لمعقد نفسيا ، أن يعمل عملا ينفع به نفسه ، ويسعد به غيره ؟

– وأنى لمجتمع به عاطل بالوراثة أن يكون عضوا فى سوق العمل ، أو قوة فى الإنتاج ؟

– وأنى لمن تتناوشه أمراض الوراثة ، وتعجل بمصيره المحتوم أن يكون معطيا ، نافعا ؟

– وأنى لمريض القلب أن ينهض بما يفرضه عليه مجتمعه فى العمل ، والإنتاج ؟

– وأنى لفاقد الحواس ، أو بعضها أن يكون قواما على أمر نفسه ، فضلا عن العمل لغيره ؟

– وأنى لعقيم أن يعمل ، وهو حاقد على الدنيا ، حاقد على من ينجب ، وهو يعلم أن مآل جهده لغيره ؟ .

– وأنى لحاقد على المجتمع أن يعمل عملا للارتقاء به ؟

وغير ذلك :

مما تسببه الإعاقة من عدم قدرة على العمل ، وعدم رغبة أصيلة فيه ، حيث لا هدف له فى الحياة يسعى لنيله ، وتحقيقه ، وإن المشاهدة ، والاختلاط خير برهان لما ذكرنا . . .

والمجتمعات ينالها من التأخر ، على قدر ما أصاب أفرادها من إعاقة ، والأمر يومئذ لله .

* * *

وسائل القضاء على الإعاقة

سبق أن ذكرنا أننا لو أخذنا عينة من البشر عشوائية فإنك تجد طرفين:

أحدهما : فى القمة من الذكاء ، والقدرات ، والمهارات ، وهى قلة ضئيلة . . .

وثانيهما : فى القرار ، وذكاؤهم محدود ، وعمر الزمنى سباق لعمرهم العقلى ، وهى فئة قليلة . . . وما بين الطرفين : أسوياء ، وهم يتفاوتون فى مقدار الذكاء ، والقدرات ، والملكات . . . وهذا : خلق الله (عز وجل) .

ولعلَّ حكمة ذلك : أن يقف العبد على باب ربه بعد أن اتخذ الأسباب – بالزواج الحلال لإنجاب الولد ، أن يطلب من الله (عز وجل) أن يؤتيه صالح الأعضاء ، سليم الحواس ، سليم العقل ، لا إعاقة تصيبه من أى نوع من أنواعها .

فإذا ما كانت الاستجابة ، وآتاه الله صالحًا ، كانت عليه تربيته الحقة – كما أسلفنا .

والإنسان فى ذلك : أخذ فى الأسباب ، وترك الأمر لمن له الأمر وحده ، وهو رب الأسباب ، والفعال لما يريد . . .

أما إذا لم يفعل ذلك ، وسبح ضد التيار ، وأدار ظهره للنواميس الكونية ، وخالف ما شرعه الله (عز وجل) لخيرنا فإنه يستحق جزاء وفاقا أن تحل بذريته الإعاقة ، وأن يكون سببا فى معوقين معذبين ، وبهم ينتهى أثره ، وذكره ، وعقبه ، وماله . . .

وهنا يحق أن يقال له « يداك أو كتا ، وفوك نفخ » ونقول له « بما ظلمت ، وخالفت . . . » .

والذى يريد ألا تكون الإعاقة من قبله ، وألا يكون طرفا فيها تقول له : افعل ما يأتى :

١ - اجمع المال من حلاله ، وأدّ حق الله فيه ، ولا تحرم وارثا ، أو وارثة ، ولا تفضل وارثا على آخر ودع المال لسنة الله فى خلقة : جمع من وارث ، وتفريق على أصحاب حقوق فيه ، وما بقى للورثة ، دون تمييز .

٢ - لا تحرم ابنة ، لأنها بنت ، فلها نصيب مما تترك ... ولا تجعلها عانسا حتى لا ينتقل بعض المال إرثا إلى أسرة أخرى ، ودع الأمور تسيرها حكمة الله تعالى ، وقسمته العادلة ...

٣ - زوج ابنتك من كفء ، ارتضيت خلقه ، ودينه ، وأمانته ، ولا تخش انتقال جزء من المال إليه من ميراث زوجته ، فذلك عدل الله (عز وجل) فى القسمة ...

٤ - تزوج ذات الدين ، كما أمرك الرسول العظيم ، وحتى لا تحل عليك عقوبة دعوته المجابة عند المخالفة ، فتغتفر ، وتصير إلى متربة ، ومسكنة ...

٥ - تزوج من الغرائب حتى يأتى النسل أعظم من أصليه ، وأقوى من أبويه ...

٦ - لا ترتكب حماقة الحمقى ، وهم يجبرون أبناء الأسرة الواحدة على الزواج من الأقارب حتى لا تحل الإعاقة بالنسل .

٧ - رب أولادك تربية دينية ، سوية ، متوازنة : فهم امتداد لعمرك ، وهم ذكر طيب لك ، وألسنة صدق فى العالمين لتخليد ذكرك ، ...

٨ - دع ما يوصى به الحمقى ، وأصحاب الأهداف السيئة ، البعيدة، الذين يتعاونون مع شياطين الجن ، ويزينون لك تمييز وارث على آخرين يشبه هى أو هى من بيت العنكبوت ، وهم يخططون تخطيطا

خبيثا ، لتلقى ربك بمعصية ، وتترك الصراع بين أولادك ، وربما انقلب إلى دم ، وخراب بيوت . . .

ما أجمل أن يصدر الإنسان عن طاعة لله ، ولرسوله فى كل ما يأتى ، ويذر ! . . .

وقد قص علينا التاريخ ، وأخباره تتسم بالصدق والعبرة . . .

أن عمر بن عبد العزيز (رضى الله عنه) ترك أولاده ، دون درهم ، أو دينار ، قائلا : إن كان أولاد صالحين فالله يتولاهم ، لأنه يتولى الصالحين . . .

وأن هشام بن عبد الملك ترك أولاده أغنى المسلمين . . .

ودار الفلك دورته ، ورأى الناس الآتى :

أولاد عمر بن عبد العزيز أغنى المسلمين .

وأولاد هشام بن عبد الملك يتكففون الأيدى .

بذلك :

وبتزوج الغرائب – على الدين – تبتعد الإعاقة عن نسلنا ، وتنجب ذرية تكون أئمة للمتقين . . .

ولو شاءت حكمة الله تعالى ، وكانت إعاقة بسبب أى : سبب ، أو بسبب كوارث الحياة فإن الله (عز وجل) يجعلها ابتلاء ، والصبر يصرفها ، ويزيلها ؛ لأنه ولى الصالحين . . .

وفى مثل ذلك : يرجو المؤمن عفو ربه ، ولا يطارده وخز الضمير .

والحمد لله الذى بحمده ، ونعمته تتم الصالحات ، والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء ، والمرسلين : سيدنا محمد ، وعلى آله وصحبه أجمعين .

وبعد

فإنى إذ أقدم للقراء ، وللمسلمين هذا الكتاب ، الذى بذلت فيه وقتا، وجهدا أسأل الله أن يجعله فى ميزان الحسنات يوم الدين ، وأن ينفع به كل قارىء ، وأن يحول ما فيه إلى سلوك عملى ؛ لخيره ، ولخير المجتمعات ، إنه سميع قريب مجيب ..

« وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت ، وإليه أنيب » .

د . عبد الحميد السيد محمد عبد الحميد .

خاتمـــة

نسأل الله (عز وجل) حُسْنَها – بمنه ، وفيضه ، وكرمه .

الحمد لله ، والصلاة والسلام على سيدنا ، ومولانا رسول الله ، وعلى آله ، وصحبه أجمعين .

(وبعد)

فإنى عايشت فكرة الكتاب طيلة حياتى : العلمية ، والعملية ، وبخاصة حياة الجامعة فقد نمت الملاحظة عندى صغيرا ، ومازالت ترويها الخبرة النامية ، ويتعهد مسلك الناس فى حياتهم ، وعصبياتهم ، وانقيادهم لهوى النفس ، وتزيين الشيطان .

وجمعت من ملاحظاتى الشىء الكثير ، وكنت أنصح ، وأوجه طيلة نصف قرن من الزمان ، وأسوق البرهان العملى ، والدليل المشاهد . . .

وكثيرا ما كانت تتحطم آمالى على صخرة عقائد بالية ، وموروثات باطلة ، بل كنت أقابل فى كثير من الأحيان بالإعراض عن السمع ، والطاعة ، والشبهة : هذا ما وجدنا عليه آباءنا .

ولم يجد اليأس إلى قلبى سبيلا ، وإن النصر مع الصبر ، وحرّى بمد من القرع للأبواب أن يلج – كما يقال . . .

ولقد بدأت بنفس ، واقتفى أثرى من شرح الله صدورهم للخير ، ووجدت حصاد عملى فى كثير ممن هداهم الله (عز وجل) .

وإنى إذ أقدم هذا الكتاب الذى هو لغة القلب للقلوب فإنما أقدمه ناصحا ، مقتنعا ، وأملى فى الله (عز وجل) أن يهدى به الجامحين جميعا . . .

ولقد سجلت فى الكتاب تحقيقات علمية مفيدة فى شتى مجالات

الثقافة ، والمعرفة مما يمت للموضوع بعروة وثيقة ، وأعتذر للقارىء إن رأى تطويلا ، أو شيئًا من التكرار لمناسبة ، فالخير أردت ...

وأملى أن يفتح هذا الكتاب شهية الباحثين ، وأن يؤلفوا فيما أجملته تأليفا مفصلا ... ففى ذلك الخير ، والنفع الكبير ...

وأسأل الله وجلت قدرته أن يوفق القارئ إلى تحويل ما فى الكتاب إلى سلوك عملى ، وأن يبلغ به غيره ؛ لينال الأجر ، وكريم المثوبة .

والحمد لله أولا ، وآخرا .

د / عبد الحميد السيد محمد عبد الحميد

آداب قنا - جامعة جنوب الوادى

عميد (سابقا)

ت ٣٣٣١٧٢ / ٠٩٦ قنا .

* * *

الفهرست

رقم	الموضوع	الصفحة

المراجع

أهم المراجع

رقم	المرجع
١	تصريف الأفعال
٢	الكشاف
٣	الجامع لأحكام القرآن
٤	المرأة عبر العصور
٥	البيان ، والتبيين
٦	الشواهد الكبرى للعينى
٧	العقد الفريد
٨	شرح شذور الذهب
٩	الكتاب لسيبوية
١٠	شرح الأشمونى
١١	فتح البارى بشرح البخارى
١٢	صفوة البيان
١٣	المهذب : فى اللغة العربية
١٤	الشرح الصغير للإمام الدردير
١٥	محاضرات فى الفقه الإسلامى
١٦	شرح التقريب .
١٧	صحيح مسلم ،بشرح النووى
١٨	المثل الساير
١٩	شرح أبى الحسن لرسالة القيروانى
٢٠	تفسير القرآن للبيضاوى .
٢١	مقدمة ابن خلدون
٢٢	أسواق الذهب .
٣٢	التبيان فى تفسير ... ووضع الميزان » .
٢٤	الحيوان للجاحظ
٢٥	أسد الغابة ...
٢٦	النحو ، والنحاة ...
٢٧	الدولة الأموية فى الشرق
٢٨	لا رق فى الإسلام ...
٢٩	المنتخب من أدب العرب .
٣٠	الشعوبية ...
٣١	علم النفس د/ حامد عبد العزيز .
٣٢	تحقيقات الأهرام ...

بسم الله الرحمن الرحيم

المؤلفات – بفتح الله تعالى وفضله

المواد ، والكتب	الأجزاء
(أ) النحو :	
١ – شرح ، وتحقيق كتاب ابن الناظم لألفية ابن مالك ، وتعليق عليه	مجلد
٢ – شرح وتحقيق ، وتعليق على شرح الأشمونى لألفية ابن مالك . . .	أربع مجلدات
٣ – شرح وتحقيق ، وتعليق على شرح ألفية ابن مالك للهوارى الأندلسى (مخطوط) .	أربع مجلدات
٤ – الكواكب الدرية فى الشواهد النحوية .	أربع أجزاء
٥ – بلوغ الأرب فى الواو فى لغة العرب .	مجلد
٦ – كتاب الباء .	مجلد
٧ – مفتاح الإعراب .	مجلد
٨ – طريق الهدى فى تسير قطر الندى .	مجلد
٩ – البهجة المرضية فى تيسير الأزهرية .	مجلد
١٠ – تيسير تيسير النحو .	مجلد
١١ – تيسير النحو (عرض ، وتحليل ، وتطبيق لشرح ابن عقيل للألفية .	٤ أجزاء
١٢ – س ، جـ لتيسير النحو . . .	٤ أجزاء
١٣ – النحو ، والنحاة .	مجلد
(ب) الصرْف :	
١ – التنوير فى التصغير	مجلد
٢ – النسب	مجلد

٣ – تصريف الأفعال .	مجلد
٤ – تصريف الأسماء (الضياء) .	مجلد
٥ – المقال فى الإعلال ، والإبدال .	مجلد
٦ – امتاع الطرف فى تيسير الصرف .	٢ جزءان
٧ – تيسير الصرف عرض ، وتحليل لشرح ابن عقيل ، وتطبيق .	٤ أجزاء
٨ – س ، جـ فى تيسير الصرف . . .	٤ أجزاء

(جـ) العروض ، والقافية .

١ – الطريق المعبد إلى علمى الخليل ابن أحمد (العروض ، والقافية) .	مجلد

(د) الفقه الإسلامى .

١ – تيسير فتح القريب المجيب – (الجزء الثانى)	جزء
٢ – تيسير فتح القريب المجيب – (الجزء الثالث) .	جزء

(هـ) اللغة :

١ – المهذب : فى محاسن اللغة العربية ، وخصائصها ، وما فى القرآن الكريم من المعرب .	جزء

(و) التصوف : (من سلسلة أولياء الله تعالى) :

١ – سيدى عبد الرحيم القناوى .	جزء

(د) فى الدين ، والإجتماع :

١ – التبيان فى تفسير قول الرحمن « ووضع الميزان »	مجلد
٢ – المرأة عبر العصور بين هوان الجاهلية ، وعزة الإسلام	مجلد
من سلسلة مشكلات تعوق التنمية ، والنماء .	
التعويق – (الإعاقة) .	مجلد
٢ – الثأر بين فوضى الجاهلية ، ودستور الإسلام .	جزء